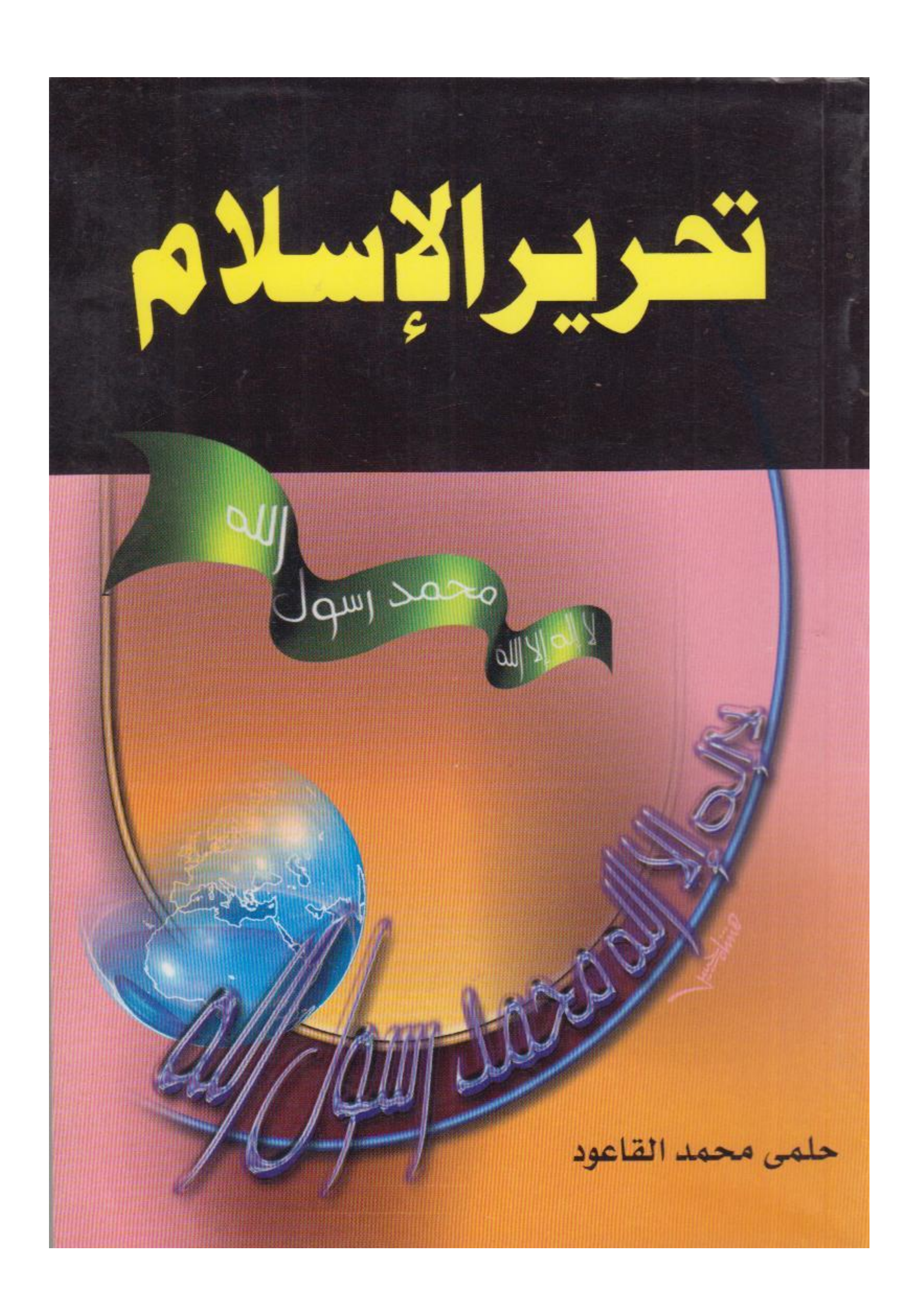

تحرير الإسلام
لا إله إلا الله
محمد رسول الله
حلمى محمد القاعود

الطبعة الأولى للناشر

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

رقم الإيداع: ٢٠٠٤/١٤٥٨٦

الترقيم الدولى: .I.S.B.N

977 - 265 - 550 - 0

دار التوزيع والنشر الإسلامية

مصر - القاهرة - السيدة زينب ص. ب ١٦٣٦

٢٥١ ش بورسعيد ت: ٢٩٠٠٥٧٢ - فاكس: ٢٩٣١٤٧٥

مكتبة السيدة: ٨ ميدان السيدة زينب ت: ٣٩١١٩٦١

www.eldaawa.com

email:info@eldaawa.com

بسم الله الرحمن الرحيم

استهلال

نحمد الله حمدًا يوافى نعمه ويكافئ مزيده، والحمد فى ظروف المحنة أوجب منه فى كل الظروف، لأن المسلم يظل فى محنته العامة أو الخاصة مربوطًا بحبل الله الذى يتفضل عليه بنعمة الصبر والبصر، ونصلى ونسلم على خير أنبيائه المبعوث رحمة للعالمين، فقد كان رحمة مهداة، جاءت فى وقت العسرة، لتكون بردًا، وسلامًا على قلب البشرية الظامئ للحق والعدل والحرية، فاعتقها من أسر العبودية لغير الله، وحررها من قيد الطغيان الذى صنعه الجبابرة المستكبرون . . اللهم صل وسلم وبارك على محمد، وآل محمد، وعلى أصحابه الأطهار الأبرار، وعلى أبويه إبراهيم وإسماعيل فى الأولين والآخرين . .

وبعد...

فقد كانت الكارثة التى أصابت الأمة الإسلامية بسقوط عاصمة الخلافة العباسية قديمًا تحت أقدام الطغاة المستكبرين فى إبريل ٢٠٠٣م، قاتلة ومصمية. جاء الصليبيون الغزاة بقيادة الولايات المتحدة، وبريطانيا ليدكوا عاصمة الخلافة بأحدث وسائل التدمير التى توصلوا إليها، وينسفوا البنية الأساسية فى معظم المدن العراقية من الجنوب حتى الشمال، ويقتلوا أكثر من عشرة آلاف مسلم، عدا الجرحى والمصابين . . ثم يجلس الحاكم الصليبى الاستعمارى على الكرسى الذى كان يجلس عليه فخر الأمة فى زمنه وبعد زمنه «هارون الرشيد»، ثم ابنه «المعتصم».

وقبل سقوط عاصمة الخلافة، استطاع الطغاة المستكبرون إسقاط كابول وأفغانستان كلها، ودمروا البيوت وهدموا المساجد والمدارس، وكان الحصاد قَتْل أكثر من عشرة آلاف مسلم أيضًا، عدا الجرحى والمصابين..

وبعد سقوط كابول وبغداد، يستعد الطغاة المستكبرون لإسقاط عواصم أخرى، وإخضاع العرب، والمسلمين جميعًا، وقد انتقلوا من مرحلة العمل المراوغ إلى العمل الصريح المباشر، لتغيير ثقافة الأمة، وعقيدتها، ودينها، وإحلال ثقافة صليبية غربية بديلة، تقنن التبعية والذيلية، وتؤصل لقبول الاستعمار، والنهب، وتقيم بناءً عنصريًا بغيضًا يقسم الأمة إلى طبقات وشيع، وطوائف!

العمل الصريح بدا فى طلبات مباشرة، وأوامر قاطعة للحكومات العربية والإسلامية كى تغيِّر مناهجها التعليمية، وتُعدِّل فى خُطب الجمعة، وتسطح الإعلام العربى، والإسلامى أكثر مما هو مسطح، وتفرغ الثقافة الإسلامية من مضمونها العقدى، والإنسانى.

لقد استبيحت ديار الإسلام، والمسلمين من قبل الطغاة المستكبرين عقب أحداث سبتمبر ٢٠٠١م فى نيويورك وواشنطن، وهى أحداث غامضة تم فيها اختراق برجى التجارة فى نيويورك، ووزارة الدفاع فى واشنطن بطائرات مدنية أدَّت إلى خسائر كبيرة فى الأرواح، والمبانى.. وعلى الفور؛ اتهمت الولايات المتحدة الإسلام (المتطرف!) بارتكاب هذه الأحداث، وأصدرت حكمها، على الفور أيضًا، بمعاقبة المتهمين فى تنظيم القاعدة، وشنت حربها العدوانية ضد الشعب الأفغانى المسلم الذى دمرت بلاده، وأسقطت حكومته، وقتل أبناؤه، وفى الوقت نفسه، وبعد عامين

من شن الحرب، فإن تنظيم القاعدة المذكور مازال حيًا، ولم يتأثر كثيرًا، وإن كانت القوات الأمريكية قد اعتقلت مئات من الناس فى أفغانستان وذهبت بهم إلى معسكر «جوانتانامو» لتسجنهم، وتعذبهم، وتبقيهم بلا محاكمات حتى الآن، كما فعل أسلافهم الصليبيون فى القرون الوسطى عندما أسروا مئات الأبرياء من المسلمين فى فلسطين، ووضعوهم فى معزل، وراحوا يعذبونهم ويذلونهم حتى قيض الله من خلصهم وحررهم!

لم يكن غريبًا على الصليبيين الأشرار أن يمارسوا العنف والوقاحة ضد المسلمين، قبل أن يكون هناك تحقيق قضائى يحدد المجرم بما لا يقبل مجالاً للشك، وعاقبوا شعبًا بأكمله دون أن يعاقبوا من اتهموه، وهو الشىء نفسه الذى حدث مع العراق، فقد اتهموا رئيسه بأنه يملك أسلحة دمار شامل، وتحت ذريعة البحث عن هذه الأسلحة ارتكبوا جريمتهم ضد الشعب البائس، وربضت قواتهم فى كابول، وبغداد، استعدادًا للقفز على عواصم إسلامية أخرى..

الغريب حقًا، هو تماهى النخب الثقافية فى العالم الإسلامى مع وجهة النظر الصليبية الاستعمارية، وتسويغ اجتياحها، واستباحتها لأرض الإسلام بدعوى أن حكومة طالبان «ظلامية» وأن حكومة صدام «دموية»! لقد دخل الطغاة المستكبرون إلى كابول، وبغداد ليكونوا «ظلاميين» أكثر من «طالبان»، ودمويين أكثر من «صدام»، ومازالوا بظلاميتهم ودمويتهم يزرعون الرعب والموت فى كل مكان هناك!

النخب الثقافية المتماهية مع الصليبية الاستعمارية؛ لم تكتف بتسويغ الاجتياح والاستباحة لأرض الإسلام، ولكنها تمادت لتستبيح هى الإسلام

ذاته، وتطالب بإلغائه، أو إقصائه، أو استئصاله من واقع الأمة، بعد أن استؤصل، أو أقصى، أو ألغى من واقع السلطة فى البلاد الإسلامية!

راحت هذه النخب تردد ما يقوله العدو الصليبى الاستعمارى، وفى الوقت الذى كان فيه دم الأمة يسيل غزيرًا، ومدرارًا فى أكثر من مكان إسلامى، كانت الأقلام، والأفواه التى تعود إلى هذه النخب تمارس أبشع دور فى تزييف الوعى، وتسطيح الفكر، وطرح القضايا الإسلامية من وجهة نظر صليبية استعمارية.

لقد صار العدوان على الإسلام، والمسلمين سافرًا، ووقحًا، وداميًا..

وهو ما يجعل سطور هذا الكتاب تعالج واقع العدوان الصليبى الاستعمارى من خلال ما تردده النخبة المتماهية معه، وخاصة من يطلق عليهم مثقفو السلطة وكُتَّابها، الذين لم تعرف أقلام بعضهم الوضوء ولا الحياء.. سعيًا إلى «تحرير الإسلام» من قبضة الاستبداد والاستعمار وخدامهما جميعًا.

إن الإجابة على أسئلة مثقفى السلطة وكُتَّابها ليست ترفًا، أو نشاطًا زائدًا عن الحاجة، ولكنه تشريح لأكاذيب ينخدع بها من لم يطَّلعوا على منهج الإسلام بصورة جيدة، أو من حرموا الوعى بكنوز الدين الحنيف، ومعطياته..

أسأل الله العلى القدير، أن يكون فى هذه السطور بعض الفائدة..

ومنه العون والسداد...

والله ولى التوفيق

حلمى محمد القاعود

١

الفصل الأول

استباحة الإسلام

١

يبدو أن استباحة الإسلام عَبَرَتْ مرحلة الخداع والمداراة، إلى مرحلة المباشرة والفجور، فما عادت الألفاظ المراوغة هى المعجم الذى تستخدمه الصليبية الاستعمارية المتوحشة، وخدامها من الناطقين بالضاد، ولكن تقدمت الألفاظ الصريحة الواضحة إلى المعجم الصليبى الاستعمارى الذى يردده الأتباع، والأشياع، ولم يعد التطرف، والتشدد، والأصولية، والإرهاب شفرة الحديث المتعارف عليها عند الحديث عن الإسلام، وحسب، ولكنها صارت التعريف الأوضح لمفاهيم الإسلام، وقيمه، بالإضافة إلى الجرأة الفاجرة فى تقديم المطالب الصريحة الواضحة بإلغاء الإسلام من حياة المسلمين، وتغيير معتقداتهم الإسلامية، وتعديل قرآنهم، فضلاً عن السخرية من آياته، ومفاهيمه، وعدّ الإسلام ودخوله إلى مصر غزوًا استعماريًا يهدف إلى نهبها لحساب الخلافة فى يثرب، ودمشق، وبغداد!

فى الأيام الماضية (يولية ٢٠٠٣) شهدت القاهرة حدثًا ثقافيًا، احتشدت له أجهزة الدعاية المصرية، والعربية، وفى الوقت ذاته أخذت تتبلور فى الأفق الثقافى ظاهرة طائفية خطيرة ومريبة!

الحدث الثقافى الذى احتشدت له أجهزة الدعاية المصرية، والعربية كان مؤتمر «نحو خطاب ثقافى عربى - من تحديات الحاضر إلى آفاق المستقبل» الذى عقدته وزارة الثقافة المصرية بمقر المجلس الأعلى للثقافة، وحشدت له نحو سبعين، ومائة من المثقفين العرب، والمصريين، معظمهم من

الشيوعيين وبعض الليبراليين، وحشرت بينهم اثنين من المحسوبين على التيار الإسلامى لم يحضرا المؤتمر، وعلى مدى ثلاثة أيام من الأول إلى الثالث من يولية ٢٠٠٣م، تبارى المتحدثون فى المؤتمر فى الحديث عن الخطاب الثقافى الجديد الذى يفترض أن تعتمده الأمة العربية لتحدى الحاضر، ودخول آفاق المستقبل .. وتجرأ كثير من المتحدثين الشيوعيين، أو من كانوا كذلك، وصاروا متأمركين فى الحديث عن العقبات التى تحول دون دخول العرب إلى آفاق المستقبل، واختزلوا هذه العقبات فى الإسلام. قال «أدونيس» الشاعر السورى المعروف: إن الإسلام هو خاتم الرسالات ومحمد ﷺ هو خاتم الرسل، وإن الله قد قال ما عنده بالنسبة للدين الخاتم، ولم يعد لديه ما يقوله! (تعالى الله عما يقول علواً كبيراً) ورتب «أدونيس» على ذلك أن الإسلام أعطى اليقين، والثبات فلم تعد للمسلم حاجة إلى السؤال أو القلق الذى هو أساس الإبداع، لذا فالإسلام ضد الإبداع! وقال «جابر عصفور»: إن الإرهاب هو العقبة الأساسية فى طريق التقدم، والإبداع لأن الإرهاب هو الذى يقتل المفكرين، والمبدعين، والمثقفين، ويهددهم، ويعوق إبداعهم لذا فلابد من القضاء على جذوره المتمثلة فى الأصولية. وقال «العفيف الأخضر»: يجب تغيير التربية الدينية الإسلامية لأنها تنتج الإرهاب، والظلام، ويجب القضاء على الإسلام «الوهابى» - كما يسميه - وتعميم التجربة التعليمية التونسية فى البلاد العربية، وهى التجربة التى استأصلت الإسلام تماماً من التعليم وحرّمت ارتداء الحجاب على الطالبات، وحبذت التغريب فى المجتمع التونسى، ثم فاخر «العفيف الأخضر» بأنه هو الذى أغلق جامعة الزيتونة -الإسلامية-،

ورأى آخرون أن كلمة «الكفار» يجب أن تحذف من القرآن الكريم، وأن آية ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ..﴾ تعبير عنصرى، وأن المسلمين يجب أن ينخرطوا فى سياق «العولمة» أى التبعية للعالم الصليبى المتوحش!

ثم جاءت توصيات المؤتمر، لتصب فى هذا السياق إلى حد كبير، ومع أنها تحدثت برقة، ولطف عن الاستبداد، وحق الشعب الفلسطينى فى دولته المستقلة (دون إشارة إلى القدس واللاجئين) والتنديد بالاحتلال الأمريكى للعراق (دون الدعوة إلى المقاومة، وانسحاب المحتلين)؛ فإنها دعت إلى ما أسمته الخطاب الدينى المتطور المنفتح على العصر الذى تجاوز الخطابات الدينية الركودية، والمتزمتة (مثل ماذا؟ - لم تقل لنا التوصيات ما هى؟) ودعوة الحكومات إلى اتخاذ موقف محايد فى صراع الأفكار والاجتهادات، دون توظيف دينى للسياسة، أو توظيف سياسى للدين (يعنى بالعربى الفصيح: دعوا كل من يحارب الإسلام يعمل براحته دون أن يزعجه أحد أو يرد عليه أحد، فضلاً، عن إقصاء الإسلام من الحياة الإسلامية، وفقًا لما دعا إليه أحدهم من ضرورة حذف المادة الثانية من الدستور التى تتحدث عن الشريعة الإسلامية بوصفها المصدر الأساسى للتشريع، وضرورة الفصل بين الدين والدولة!).

ورفضت التوصيات ما يسمى بدعوات الانعزال عن العالم أو مناصبته العداء. ولست أدرى من الذى أوحى للمؤتمرين بهذه التوصية؟ يبدو أنهم لم يسمعوا عن الجيوش الجرارة المسلحة، وغير المسلحة التى تأتى إلينا فى عقر دارنا تستوطن بلادنا، وتحتلها، وتنهب ثرواتها، وتغزونا بمنصّريها وسماسرتها، ومخابراتها، وعملائها - فهل نحن حقًا معزولون عن

العالم. لو أردنا الانـعزال أيها المستنيرون لما استطعنـا . . ثم من قال إننا ندعو إلى مناصبـة العالم العداء؟! لقد انبطحنا - كـما لم ينبطح أحد من قبل - واستسلمنا استـسلامًا غير مسبوق للعـالم كله، بكباره، وصغاره، وسلمنا عـواصم الخلافة والقـداسة، والحضـارة، ليسوح فـيهـا المحتّلون الصليبـيون المتـوحشون الغـزاة كيفـما شاءوا، وأرادوا، فـهل نحن الذين نناصب العـالم العـداء؟! . . عيب علـيكم يا أهل التـقدم، والاسـتنارة والشطارة أن ترددوا مثل هذا الكلام!

ثم تتناول التوصيات ما تسميه بالوصايات المتعالية التى تحتكر المقدسات القومية، والدينيـة، وتنصب نفسها قيمًا متـفردًا عليها، وتعلن رفض هذه الوصـايات. بالطبع لم تـقدم قـيـادة المؤتمر، أو أمـانتـه أى نموذج لهـذه الوصايات المتعـالية، وأغلب الظن أن المسألة فى جوهـرها هى رفض غير مباشر لمفاهيم الإسلام وقيمه، واسـتباحة صريحة لتعاليم الدين الإسلامى المحاصـر واليتـيم، والمطارد فى بلده، ومـوطنه، وكل مكان . . ترى هل يجرؤ أهل اليسار، والعلمانيون الذين أقامـوا مؤتمرًا ضخمًا بأموال الشعب المصـرى المسلم البائس، أن يوجـهـوا مثل هذا الكلام إلى دين آخـر، أو شريعة أخرى غير دين الإسلام، وشريعته؟! كلا، لأن أصحاب الديانات، والشرائع الأخرى، حتى شـريعة عبادة البقر، يملكون القـوة للدفاع عنها، وهؤلاء لا يستطيـعون الاقتراب منهـا، أو لمسها ألم أقل لكم إن استـباحة الإسلام تتم اليوم بمنتهى المباشرة والفجور؟ ولكِ الله يا مصر؟

●●●●



مشكلة السلطة الثقافية فى بلادنا أنها تفترض أن الإسلام يمثل أقلية محدودة منبوذة يجب استئصالها، لأنها أقلية إرهابية ظلامية أصولية متخلفة، لا يجدى معها غير البتر، ولا يبقى بعدها إلا أولئك المثقفون المستنيرون الذين يؤمنون بالحداثة الغربية من منطلقات ماركسية أو ليبرالية أو طائفية. وتتناسى السلطة الثقافية فى بلادنا أن الوطن العربى جميعه بما فيه من مسلمين، ونصارى، ونصيريين، ودروز، ويهود، وسريان، ومجوس، وأرمن وعرب، وبربر، وزنوج، كلهم يدينون بالثقافة الإسلامية عن طريق العقيدة أو المعايشة، وأنهم لا يرضون بها بديلاً حتى لو بدا أن أهل الحداثة من شيوعيين، ومتأمركين، وأشباههم يملكون الصوت الأعلى، والهيمنة الأكبر. وقد كان رد الفعل فى مصر، وغيرها على ما قيل فى مؤتمر القاهرة الثقافى مزعجًا، ومقلقًا للسلطة الثقافية المستبدة، فراحت فى غير تعقل أو تبصر، تشن هجومًا موتورًا فى وسائط الدعاية، والاتصال، وتصف من عارضوا مقولات المؤتمر، وتوصياته - «بالتأسلم»، و«المتأسلمين» - أى أنهم: كَفَّروا كل من عارض المؤتمر وسمحوا لأنفسهم أن يحكموا على الناس، ويفتشوا فى ضمائرهم. لقد اقاموا من أنفسهم «محاكم تفتيش»! والمفارقة أنهم زعموا أن المعارضين يكفرونهم، ويخونونهم، ويكذبون على المجتمع. لقد نسى أهل السلطة الثقافية فى بلادنا أنهم أقلية محدودة لا تمثل فى معظم الأحوال، وأحسنها أكثر من نصف بالمائة، ومع ذلك يحتكرون المؤسسات الثقافية، ويتنادون

إلى المؤتمرات، والندوات، ويتبادلون منح الجوائز لأنفسهم، ثم يعيدون إنتاج مقولاتهم المكرورة التى ترى فى الإسلام عقبة، وفى العلمانية طريقًا أوحد للتقدم، والرخاء، والحرية! ويعلم الناس على سطح الكرة الأرضية أن الأقلية اليسارية والمتأمركة لا يمكن أن تمثل بلد الأزهر الشريف والبلاد العربية الإسلامية . . هل يعقل أن يكون هنالك ما يقرب من سبعين، ومائة شيوعى ومتأمرك وحدهم فى مؤتمر لا يضم ممثلين للأزهر أو الهيئات الإسلامية، أو غيرها من الشخصيات التى تهتم بالفكر الإسلامى، وحضارة الإسلام ومستقبل الإسلام؟ هل يمكن أن يتعاطف الشيوعيون أو المتأمركون مع الإسلام فى مؤتمرهم الذى يبحث فى خطاب ثقافى جديد تلتزم به الأمة الإسلامية؟

الإجابة بالنفى طبعًا. ومع ذلك، فإن عرّاب المؤتمر - صديقى اللدود- جابر عصفور يتجاهل مسألة التمثيل تمامًا، ويصر على أن أعضاء المؤتمر مفكرون لهم وزنهم، وقيمتهم، وأنه ليس مسئولاً عما يقولون! وسوف نسلم جدلاً بما يقول عن قيمة هؤلاء، ووزنهم، ولكنهم ليسوا مفكرين، أو كتابًا، أو مثقفين، أو علماء إسلاميين. التمثيل العادل يقول إن المؤتمر - وتموله أموال المسلمين - إذا ضم خمسًا وتسعين وتسعمائة عضو إسلامى، فإنه يتقبل وجود خمسة فقط من «اللادينين» - أى الماركسيين والمتأمركين- ولكن الذى حدث هو العكس، فلم يحضر المؤتمر بصفته الإسلامية أحد إلا شخص واحد من لبنان، ثم وزير الأوقاف الذى ينحاز بحكم وظيفته إلى السلطة الثقافية فى توجهاتها العلمانية، المعادية للتوجه الإسلامى ومعطياته، ويكفى أن الرجل أحال الإسلام إلى حالة أمنية ينافس فى

التصدى لها وزارة الداخلية، فقد أمَّمَ المساجد، ووضع شروطًا تعجيزية لبنائها تفوق ما كان يتندر به البعض عن الخط «الهمايونى» فى بناء الكنائس، وصار إغلاق المساجد هو الأساس، وفتحها لدقائق الصلاة هو الاستثناء، كما صار اعتلاء المنابر مقصورًا على من يحملون تصاريح «أمنية» إلى الدرجة التى جعلت «شيخ الأزهر» - وهو من هو فى منصبه ومركزه - يحمل تصريحًا يوافق عليه رجل أمن قد لا يكون ملمًا بمفاهيم الإسلام وتشريعاته!

لقد أكثر المؤتمرون من الحديث عن السلطة الدينية والمؤسسة الدينية والدولة الدينية، والقرون الوسطى، والعصور الوسطى كناية عن الإسلام وتشريعاته وعقائده، وقيمه، ومفاهيمه، وكأنهم يسقطون كل ما وجه إلى الكنيسة الغربية قبل قرون على الإسلام، ووجوده الاجتماعى، وهذا بالطبع لا ينتج خطابًا ثقافيًا حقيقيًا، يعبر عن الأمة، وطبيعتها، وخصائصها ومميزاتها، ولكنه يعبر عن التماهى فى الثقافة الغربية الاستعمارية ومعطياتها المخالفة فى الأغلب لمفاهيمنا، وقيمنا.

إن نجوم مؤتمر القاهرة الثقافى لم يكتفوا بما قالوه داخل أروقة المؤتمر استباحة للإسلام، وامتهانًا، بل خرجوا على الناس فى الصحف، وعلى الشاشات، ليقولوا كلامًا أكثر وضوحًا فى عدائه، وأكثر شراسة فى وقاحته ومجافاته لروح العلم، والحق . . تأمل مثلاً ما قاله أحدهم عن الاستعمار العربى لمصر، وإشادته بدور المستعمر الفرنسى «نابليون» لمصر، والحملة الفرنسية عليها التى أيقظتها، وجعلتها ترى نفسها فى مرآة الغرب، وتأمل مثلاً ما قاله بعضهم عن الإسلام الذى يقصى المرأة، وغير

المسلم من حقـوق المواطنة(؟)، وما قاله بعضـهم عن المقاومة للاستـعمار الأمريكى بوصفها أفضل وصفة للانتـحار الجماعى، وما قاله بعضهم عن «المتـأسلمين» الذين إذا حكمـوا بلداً أفسدوه وأسـالوه أنهـاراً من الدمع والدم، وكأن غير المتأسلمين هم الذين يصلحونه ويسيلونه أنهاراً من الورد واللبن؟ وما قاله بعضهم عن تمسكـه بمقولة ماركس «نقد الدين شرط لكل نقد»! ومـقولة هيجل «تحـقيق مرحلة تاريخيـة شرط لتجـاوزها» ويرتبون عليها: «تحقيق الإسلام شرط لتجاوزه»!!

إنهم بصـراحة يدعـوننا إلى نبـذ الإسـلام، لأن هيجل، ومـاركس، وأمريكا يرون ذلك، وبالتالى يجب الكف عن مقاومة الاستعمار الصليبى المتوحش، والإقامـة عند قدمى السيد الصليبى المتـوحش، وإلا كنا ننتحر جماعيًا! يا الله؟ أهذا آخر ما تفتق عنه ذهن المؤتمر، والمؤتمرين؟

لقد كان مؤتمر القـاهرة الثقافى حدثًا أمريكيًا بامتـياز، لأنه لبىَّ رغبات أميركا فى تغيير الإسلام أو ما يسـمى تغيير الخطاب الدينى، ولبىَّ رغبتها فى الإعلان رسـميًا عـن وجود نخبـة من اليساريين القـدامى، واللائذين بهم، يعلنون بوضـوح، ودون خجل، عن دخـول العصر الاستعـمارى الصليبى الجديد، وتكريس العـبودية - على مستوى الأفـراد، والجماعات والدول - للسيـد الصليبى المتوحش، سـواء كان مقيـمًا فى واشنطن، أو أوربة . . وتلك لعمرى - لو تحققت - نهاية العالم! ويا لها من نهاية!!

●●●●



تكمن مشكلة السلطة الثقافية المزمنة؛ فى إحساسها بذاتها الذى يتضخم يومًا بعد يوم، كلما استشعرت قدرتها على الاستبداد، والتحكم فى عقل الشعب المصرى، ووجدانه، ثم إنها ترى أن أية معارضة لسلوكها وفكرها، مؤامرة رجعية ظلامية أصولية، أو مؤامرة يصنعها فريق منافس من الوصوليين والانتهاريين والمتسلقين، وللأسف، فإن السلطة الثقافية لا تقبل الانصياع للحقيقة ولا تقبل الرجوع إلى الحق. . ومن المفارقات المضحكة أن هذه السلطة ترفض المساس بأغنية «حب إيه» لأم كلثوم من جانب بطل «الليمبى» محمد سعد الذى غناها بتهكم، وسخرية، كما ترفض النمط الغنائى الذى يقدمه (المكوجى السابق) شعبان عبد الرحيم أو شعبولا، كما ترفض أن يتدخل مجلس الشعب المصرى، ليوقف الانحطاط والابتذال والإباحية فى الأفلام المصرية، ولكنها لا تجد غضاضة فى الإفتئات على الإسلام، والسخرية منه، والدعوة إلى استئصاله، ومحاربة أتباعه، وعلمائه، وفتح المجال أمام من لا يستطيعون قراءة آية واحدة من القرآن الكريم قراءة صحيحة، لنهش أعراض علماء الأزهر، والمتخصصين فى علوم الدين!

لقد قلت من قبل، إن مؤتمرًا تضم أغلبيته الساحقة شيوعيين سابقين أو شيوعيين متأمركين، لا يمكن أن يحترم الإسلام، أو معتقداته، وهو ما جرى فى مؤتمر القاهرة الثقافى، سواء ما يتعلق بتجديد الخطاب الدينى أو الخطاب الثقافى، وقد رأينا نفرًا من أبرز المشاركين يحاول التدليس على ما جرى فى المؤتمر ويقول بأنه: لا يناقش الدين، ولكن يتناول الخطاب

الدينى، وهذا التدليس تفضحه الدعوة الصريحة والفاجرة، إلى التخلى عن الإسلام بحذف المادة الثانية من الدستور التى تتعلق بالإسلام، وتعده المصدر الرئيسى للتشريع، كما تفضحه الدعوة إلى تحويل الدولة إلى دولة علمانية لأن مصر تضطهد المرأة، وغير المسلمين! إن الدعوة إلى إزاحة الإسلام عن الحياة والمجتمع هى دعوة أمريكية ترتبط بالدعوة إلى تغيير مناهج التعليم الإسلامى (وحدها) لأنها تصنع التطرف، والإرهاب! فهل هى مجرد مصادفة أن تتطابق الدعوة الصليبية الاستعمارية الأمريكية إلى علمنة الدولة وتغيير مناهجها الإسلامية مع الدعوة الشيوعية والمتأمركة إلى علمنة الدولة وتغيير مناهجها الإسلامية؟ ليست مجرد مصادفة وليست توارد أفكار، ولكنها دعوة واحدة، لأن الإسلام هو عنصر المقاومة الوحيد، والحقيقى فى مواجهة الاستعمار، وأتباعه. وإذا كان الحدث الأول، وهو المؤتمر الثقافى قد انتهى ضمنيًا إلى هذه النتائج، فإن الحدث الثانى الذى يتعلق بالرؤية الطائفية فى مصر ينتهى إلى النتائج ذاتها فى وضوح، وصراحة تامين. .

نقل إلىّ بعض الطلاب أن قومًا يتكلمون العربية، ويدخلون الأزهر الشريف باسم السياحة، ويجلسون إلى الطلاب الذين يستذكرون دروسهم فى صحنه فترة الامتحانات، يفتحون مع هؤلاء الطلاب مناقشات دينية تهدف إلى تنصيرهم، وإخراجهم من الملة، أو زعزعة معتقداتهم بحكم محدودية محصولهم الثقافى، والدينى، ويطرحون عليهم أسئلة حول تناقض آيات القرآن الكريم، وقضايا أخرى. . وإذا صحت هذه الأنباء، فإن الأمر يستدعى تساؤلات عديدة حول دور الأزهر، وشيوخه، وعلمائه، ودور وزارة الأوقاف التى لا تسمح لأحد بالجلوس فى المساجد بعد الصلاة، ولا ارتقاء منابرها من جانب علماء الإسلام إلا بتصريح

أملى.. ودور الصحافة، وأجهزة الدعـاية، وغيرها، لأن هذا العمل يهدد الوحدة الوطنية التى يتكلمون عنها كثيرًا..

كمـا نقلت إلى الأخـبار وصول رسـائل تنصيـرية من بعض الجـهات المحلية إلى بعض الأفـراد الذين تنشر الصحف عـناوينهم، وتدعوهم هذه الرسائل إلى ترك الإسلام، واعـتناق غيره، مع الاستعـداد لتقديم الكتب المقدسة، وغيرالمقدسة للإقناع..

وتنسى هذه الجهـات أن المسلم لابد أن يكون مؤمنًا بالرسل، والأنبـياء السابقين، والكتب المقدسة السابقة: الزبور، والتوراة، والإنجيل، وصحف إبراهيم، وموسى، وإلا فإنه لن يكون مـسلمًا، فما الداعى إلى بذل هذه الجهـود، فى هذا الوقت بالذات؟ أيـها السادة نـحن نؤمن باليـهـودية والنصرانية كما أنزلتا على مـوسى، وعيسى، ولسنا فى حاجة لمن يدعونا إلى هذه أو تلك.

الأعجب من كل هذا ما تنشره جريدة طائفية تتبنى وجهة النظر الأمريكية على طول الخط، وتشيـد بالرئيس بوش، وتصريحاته، وفتـوحاته للعراق، وبلاد التـعـساء من الـعرب المسلمـين. هذه الجريدة تـدعو إلى مـا يسـمى «بلاهوت التـحرير» لغـير المسلمـين فى مصـر الذين يعانون من الاضطهـاد الإسلامى، ومن التمييز العنصرى، والحرمان من حقوق المواطنة؟!

إن المسلمين يتمنون أن يعاملوا معاملة غـير المسلمين، فلا يصفهم أحد بالتطرف، أو الإرهـاب، ولا يقـتـرب منهم «زوار الـفـجـر»، أو «زوار الضحى»، ولا يدخلون السـجون، والمعتـقلات إلى ما لا نهـاية حتى لو حصلوا على مئات الإفراجات، والأحكام النهائية.

أى لاهوت وأى تحرير يا سادة؟ هل صارت السلطة المصرية ضعيفة إلى هذا الحد حتى يتم ابتزازها بمثل هذه الدعوات الغريبة عن طبيعة مصر وأهلها؟

تقول الإحصاءات إن تجارة القطاع الخاص فى مصر يملك معظمها غير المسلمين (٦٥٪ من التجارة). وتقول الصحف إن عمالقة الديون الهاربين فى الخارج من غير المسلمين، ولذا لا تستطيع الدولة أن تأخذ منهم موقفًا حاسمًا، فى الوقت الذى تقوم فيه الدنيا، ولا تقعد للقبض على ولد مسلم ملتح فى أقصى الأرض، والإتيان به إلى مصر، ووضعه أمام المحاكم الاستثنائية، لأنه متهم بالإرهاب!

والسؤال الآن: هل صار الإسلام مستباحًا إلى هذا الحد؟ هل هذه سياسة رسمية؟ أشك فى ذلك، ولكن السؤال الملح: لماذا يحدث هذا فى هذا التوقيت؟ كيف يتطابق الوعى الشيوعى المتأمرك مع الوعى الطائفى المتعصب؟ هل ترضى عنا السلطة الثقافية، والطائفيون المتعصبون إذا طلقنا الإسلام، وتحررنا منه؟ أم إن هذا لا يكفى، ويجب أن نتحول إلى عبيد مثل مسلمى الأندلس «الموريسكيين» فنقف أمام محاكم تفتيش يصنعها مثقفو السلطة، وحلفاؤهم ليقولوا لنا: إنكم لم تتخلصوا بعد من الرجعية والظلامية، والأصولية؟!

هل نردد مع شيخ المعرة قوله:

جر ياغراب وأفسد لن ترى أحدًا ... إلا مسيئًا وأى الناس لم يجر؟

لا أدرى والله وحده أعلم!

●●●●

الفصل الثانى

تجديد الوعى

بحذف الإسلام أم تعميقه؟

١

تراجع أركـان السلطة الثـقـافـيـة، وأقـروا أن المطلوب ليس هو «رأس الإسلام»، ولكن المطلوب هو «الخطاب» الذى يسـاوى الكلام، والحديث، والمقـال، والخُطبـة - بضم الخـاء والخِطـبة بـكسـرها أى: طلب الزواج، والخطب بمعنى الأمر، والشأن، والغرض، والخطاب بمعنى الحكمة ﴿وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾ [صّ: ٢٠] - الخطاب المطلوب رأسه إذًا - حسب أركان السلطة الثـقافية - هو منـاسبة الكلام لمقتـضى الحال كما كـان يقول البلاغيون القدماء. إنهم يزعمون أن الخطاب بهذا المعنى هو المطلوب رأسه، لأننا فى عصر العلم، والعلم يتجدد، أما أصـحاب الخطاب الدينى، أى: المسلمون، فهم لا يتجددون، ولا يتغـيرون، لذا يجب أن يتجددوا حتى لو امتلكوا لغة العـصر التى يرطنون بهـا. إنهم نصـوصيـون وفئران كـتب، وحفارو قبور، ولا يصلحون لمخاطبة العـصر، فهم قد خاصـموا العقل، وآمنوا بالخرافة، والغيب .. ويجب علـيهم أن يعيـدو النظر فى الأفكار، والمسلمات، أو ما نسميه نحن بالثوابت، فالعالم يتغير، ونحن لم نتغير..

بهـذا المنطق الغالط، وهـذا التخليط العـجـيب يحاول أركـان السلطة الثقـافـية إقناع الناس أنهم لا يريدون المساس بـالإسلام، أو استـباحـته، ولكنهم فقط يريدون تذكـيرنا بأننا نعيش فى عصر العـلم الذى يقفز أهله قفزات هائلة لا نستطيع أن نقيـسها، أو نقدرها، وهذا يفرض علينا من - وجهة نظرهم - أن نتخلى عن النصوصية، وقرض الكتب، وحفر القبور!

هذا المنطق العجيب له وصف لا أحب أن أذكره هنا، ولكنى سأفترض جدلاً أنه يصدر عن رغبة حقيقية فى الإصلاح والتقدم . . ولهذا سأناقشه بإيجاز، لأخلص إلى تدليس من نوع آخر، برع فيه أركان السلطة الثقافية بحكم ما يتاح لهم من وسائط التعبير الساحقة مثل الصحف اليومية واسعة الانتشار، والشاشات التلفزية التى تخاطب أعرض قطاعات المجتمع المصرى بل المجتمع العربى.

من سوء الأدب النظر إلى علماء الإسلام، ومثقفيه بمثل هذه النظرة الاستعلائية الكريهة التى تصنعها مركبات النقص، والرغبة الاستبدادية فى فرض النموذج الغربى (من خلال هوامشه الرديئة) على الأمة الإسلامية المستباحة. فعلماء الإسلام، ومثقفوه ليسوا نصوصين بالمعنى المتخلف الذى ساد أوربا فى العصور المظلمة بالنسبة لها، ودعا نفرًا من مفكريها إلى ما يسمى «بالتأويل» ليتخلص الناس من ربقة «الكنيسة» و«رجال الكهنوت». فالمساحة التى أتيحت لعلماء الإسلام من حرية تناول النصوص الإسلامية لم تعرفها أمة قط، وتأمل ذلك العدد الهائل من التفسيرات، والشروح التى تناولت القرآن الكريم، والسنة النبوية، وجُاء بعض مثقفى «القصاقيص» المعرفية ليتهموها بأنها أقرب إلى الشرك، ومليئة بالإسرائيليات. وأعتقد أنهم لم يسمعوا أبدًا عن الدراسات العميقة، والغزيرة التى دارت حول «الإسرائيليات» وتنقيتها من التفاسير وغيرها.

ومن سوء الأدب أن يُتَّهَم المسلمون بمخاصمة العقل، والإيمان بالخرافة والغيب، وواضح أن كُتَّاب السلطة من أركان الثقافة الرسمية فى بلادنا، يملكون وعيًا محدودًا للغاية بالثقافة الإسلامية، ومعرفتهم بالإسلام

محدودة، ومع ذلك لا يجدون حرجًا فى تكفير الناس، واتهامهم «بالتأسلم» ثم - ياللعار! - أن هناك من يكفرهم هم، ولا يقدمون دليلاً واحدًا على ذلك.

آيات العقل، والنظر، والتأمل، والموازنة، والمقارنة، والتفكير، والسمع، والبصر يصعب حصرها فى القرآن الكريم. مادة العقل ومشتقاتها وردت فى أكثر من خمسين آية، منها قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣]، وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، وقوله تعالى: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٧]. . . .

الإسلام دين العقل، أخرج الناس من الظلمات إلى النور، ودعاهم إلى الإيمان وفهم الظواهر الطبيعية، وغيرها عن طريق العقل، والكتب الإسلامية - خاصة ما يتعلق بعلم العقائد أو علم الكلام - تحمل دائمًا الدليل العقلى إلى جانب الدليل النقلى، نحن أمة شرفها الإسلام لأنها استخدمت العقل، ووصلت به إلى الله، وهى تؤمن بالغيب، واليوم الآخر والقدر خيره وشره، لأن عقلها هداها إلى الإيمان، وهداها إلى العلم الذى أسس للحضارة المعاصرة فى شتى جوانبها، وحرر أوربا من عصر الظلمات إلى ما يسمى عصر الأنوار. .

يوم تكالب علينا الهمج من مستعمرى أوربا وأمريكا حاربوا العقل

والعلم والإيمان، وها هى أمريكا تواصل مسيرة الحرب الشاملة، وتستخدم مثقفى السلطة فى البلاد العربيـة،ليروجوا لفكرها الشرير الذى يهدف إلى استئصال الإسلام، وبناء مجتمعات ذليلة مستكينة.

نحن فى عصر العلم. نعم! ولكن من الذى يـعوق الأمة عن الدخول إلى عصـر العلم: الدين أم السلطة؟ الدين مـحاصـر، ومطارد، ومنفى، ويسخر منه المسئـولون، ويحرِّمون تعليمه حتى وصلت الأمـية الدينية فى العالم العربى إلى ٧٥٪ وفق بعض التقديرات. الدين يسمى تطرفًا وإرهابًا وظلامًا، وأصولية، ورجعيـة لدى مثقفى السلطة، ومع ذلك فانظروا ماذا تصنع السلطات «العلـمانيـة» بالعلم.. وليسـأل أركـان السلطة الثقـافيـة مسئولى الإعلام، والتعليم عن قيمة العلم والعلماء. افتح التلفزيون وانظر من الذى يملأ شـاشتـه مـعظم الوقت: العوالـم أم العلماء؟ الغـوازى أم الغزاة؟ وانظر إلى مرتب أكبر علمـاء الذرة فى مصر، ومرتب أصغر ممثل أو مطربة أو لاعب كرة فى أحد نوادى الأقاليم، ثم تأمل المفارقة، واحكم بعدئذ: هـل الدين هو الذى يعطل العلم فى مصـر، والبلاد العـربية؟ أم أطراف السلطة المستنيرة؟

إن نسبـة المتدينين الذين دخلوا شـتى التخصـصات الدقيـقة فى العلوم البحـتة، والتطبيـقية أكـبر من نسبـة غيرهم.. فلمـاذا يدلس علينا أركان السلطة؟

●●●●



يعلم مثقفو السلطة أنهم يقومون بمهمة غير نظيفة، وهى تشويه الإسلام وإلغائه، وبث الكراهية فى نفوس الناس -الأجيال الجديدة تحديدًا- تجاه الثقافة الإسلامية، ومعطياتها لإحلال الثقافة الصليبية الاستعمارية، وقبول الغزو النازى اليهودى لبلادنا، والسيطرة على مقدساتنا، وتحويل الأمة إلى مجرد بقايا «هنود حمر» يجلدهم السيد الصليبى بسوطه الذى لا يرحم! الحكومات لا تستطيع أن تقوم بهذه المهمة غير النظيفة مباشرة، ولكنها تستخدم مثقفيها الذين يشكلون «السلطة الثقافية» للقيام بها، لأنهم- فى كل الأحوال- يعيشون المنطقة الرمادية، التى تجعلهم ناطقين باسم أنفسهم عند الحكومات، وناطقين باسم الحكومات عند أنفسهم، وعند وقوع الأزمات تتبرأ منهم الحكومات، ثم تعوضهم بعدئذ بمناصب أخرى أو مكافآت مختلفة الشكل والمحتوى (تأمل ما حدث فى أزمة «الوليمة» وأزمة الروايات الثلاث!).

ولا ريب أن أزمة المؤتمر الثقافى الذى انعقد فى أوائل يولية بمعرفة المجلس الأعلى للثقافة، سوف تسفر عن تعويضات كبيرة لأركان السلطة الثقافية، فقد بذلوا جهدًا عظيمًا فى تشويه الإسلام وتلويثه، وكافحوا كفاحًا مقدسًا (!) عبر شاشات التلفزة، وصفحات الجرائد لإثبات تخلف دين الأمة وظلاميته، وعدم صلاحيته لبناء المستقبل أو صنع التقدم، وبعضهم أخذته العزة بالإثم، فارتدى ثياب الراقصة العجوز، التى تظهر

كل ما تستطيع من جسدها، لترضى من يعنيهم الأمر، وأغرق فى تسفيه الشريعة، والعقيدة، وراح يصب جام غضبه على ما يتعلق بالمرأة، والميراث والخلافة، والقرآن الكريم الذى يسمونه «النص»، ويرى فى ذلك سببًا رئيسًا لعدم دخولنا العصر، والتحدث بلغته ومنطقه. والحل عند كُتَّاب السلطة هو تأويل النصوص، أى القرآن الكريم، والأحاديث الشريفة، لتتلاءم مع العصر، أو بمعنى أدق مع الغرب، أو بمعنى أكثر دقة مع ما يريده الصليبيون الاستعماريون، وخدامهم النازيون اليهود الغزاة.. وأرجو أن يجد لى أحد القراء تفسيرًا أو فهمًا لإصرار كُتَّاب السلطة على تأويل الآيات القرآنية الثابتة المحكمة الصريحة الواضحة المحددة؟ هل لذلك من معنى غير تعديل الآيات، وتبديلها وفقًا للمقاس الصليبى الصهيونى كى يرضى عنا، وما هو براض؟

يقول أحدهم إن النصوص (كذا!) حررت المرأة جزئيًا! هو بالطبع يقصد الإسلام، ويشير بصراحة ووضوح إلى أن القرآن الكريم لم يحرر المرأة تحريرًا كاملاً مثلما فعل الغرب الذى حرر المرأة تحريرًا كاملاً. ولا أقول إن صاحبنا لم يفهم النص القرآنى، أو قصَّر فى فهمه. كلا، إنه يفهمه جيدًا، ويعلم مضمونه علمًا دقيقًا، ولكنه يدلس على الأمة ليرضى الجهات التى لا تريد بالإسلام، والمسلمين خيرًا، ويسعى جاهدًا كى يلوى أعناق الحقائق، والثوابت، ويقارن مقارنة ظالمة بين المرأة المسلمة والمرأة الصليبية. لقد كان الإسلام أول شريعة تحرر المرأة تحريرًا كاملاً وتعيد إليها إنسانيتها بصورة تامة، وتسلكها فى عداد الأحرار الكرماء بعد أن كانت عند الرومان، واليونان، والأوروبيين الهمج، مجرد سقط متاع، تسدد بها

الديون، ولا تملك حق الاختيار. ولا أظن الغرب الصليبى اليوم -بما فيه أمريكا- إلا تاجر رقيق يلعب بالمرأة كيف شاء، وقد أخرجها من بيتها إلى سوق النخاسة، لتعمل، وتكدح، وتتعرى، وتمارس الغواية لزيادة مكاسب الحكومات، والشركات، والمؤسسات الرأسمالية التى بلا قلب، ولا ينفى ذلك وجود نساء متميزات حققن وجودًا إنسانيا رائعًا بالثورة على السياسة الصليبية النفعية.. ولعل هذا يفسر سر دخول الكثيرات من الأوروبيين -وخاصة فى بريطانيا- إلى ساحة الإسلام، وارتداء الحجاب اقتناعًا منهن بأن الإسلام هو الذى يحرر الإنسان عمومًا، والمرأة خصوصًا، ويمنحها طعم الحياة، ومعناها الحقيقى! أى تحرير ناقص صنعه الإسلام للمرأة يا هذا؟

يرى كاتب السلطة أن المرأة ترث نصف الرجل فى الشريعة الإسلامية، وهذا هو التحرير الناقص الذى صنعته «النصوص» وبناء عليه يجب أن نغير النصوص! هكذا بكل بساطة يتجاهل حضرة الكاتب السلطوى أن ميراث المرأة محكوم بتكليف الرجل -بل الدولة أو ما كان يسمى بيت المال- بالإنفاق على المرأة -أيًا كانت- أمًا أو زوجًا أو بنتًا أو أختًا أو خالةً أو عمة أو جدة، وفى سبيل ذلك بدا أن ميراثها قليل، مع أنه فى الحقيقة يمثل امتيازًا للمرأة التى قد ترث فى بعض الحالات أكثر من الرجل (حين ترث مثلاً الربع من زوجها، الذى يرثه رجال، ونساء آخرون كثيرون تنقسم الأرباع الثلاثة الباقية بينهم!)، ولكن صاحبنا فيما يبدو- والله أعلم- حريص على أن ينقل إلينا تجارب الأخوة التعساء الباحثين عن غسيل الأموال المسروقة بدءًا من خلفاء الأخ «أتاتورك» حتى خلفاء المرحوم «سيادبرى» مرورًا «بالحبيب» وتلاميذه!!.

ومثلما قامت قيامة «السلطة الثقافية» ضد الحجاب، والإفتاء- عنوة وبجاحة- أنه لم يرد فى النصوص، فقد رأى أحدهم أن شهادة المرأة نصف شهادة الرجل وصمة فى جبين الإسلام يجب التخلص منها. وينقل عن واحدة من المتغربات احتلت منصبًا مرموقًا ذات يوم، قولها لمن حولها: «الإسلام بتاعكم يجعل شهادة البواب أحسن من شهادتى!»، ولأن الهانم المشبعة بالثقافة الصليبية الاستعمارية لم تقرأ الآية التى وردت فيها الإشارة إلى شهادة الرجل، والمرأة، ولم تتعرف على ما قاله الفقهاء فى هذا السياق، فقد سخرت من الإسلام «الإسلام بتاعكم!» ولم تحاول البحث عن معنى الشهادة، أو أهمية التوثيق فى السياق الذى وردت فيه، والغاية التشريعية فى الآية الكريمة.

●●●●



يقول كُتّاب السلطة إن المرأة لم تكن مسئولة عن نفسها من قبل، وهذا يجعل نصيبها من الميراث نصف نصيب الرجل، ولم تكن مسئولة عن غيرها من قبل، فلا تكلف بمسئولية، وتعد شهادتها ناقصة، ولكن هذا الموضوع تغير الآن تمامًا، فمن الطبيعى - كما يزعم مثقفو السلطة- أن تتغير قراءتنا للنصوص الدينية.. وليس من المعقول اليوم، وقد أصبحت المرأة أستاذة، وقاضية، ونائبة فى البرلمان، ووزيرة أن تقدر شهادتها فى المحاكم بنصف شهادة، على حين تعد شهادة الرجل، ولو كان جاهلاً طائشًا أميًا شهادة كاملة.

هذا الخلط أو التخليط يحسمه سؤال بسيط: هل صارت المرأة فى غير حاجة إلى رجل واكتفت بنفسها؟ إذا كانت الإجابة بالإيجاب، فعلينا أن نغير النصوص لا أن نعيد قراءتها أو نغير قراءتها، ولكن المرأة مازالت تحتاج إلى الرجل حتى لو كانت وزيرة، ثم من قال إنها لم تكن مسئولة عن نفسها أو غيرها؟ المرأة مسئولة عن نفسها، وعن أبنائها، وعن زوجها- وهى راعية فى بيتها- وفقًا لقوانين الفطرة التى هى أساس التشريع الإسلامى، ومع هذه المسئولية الخطيرة التى يستهين بها دعاة التغريب وأنصار التشريعات الثقافية الاستعمارية، فإن المرأة بحكم تكوينها البيولوجى، وعلاقتها العضوية الأساسية فى تكوين الأسرة المسلمة، لها واجب الرعاية، فقد جعل الإسلام واجب رعايتها -مهما بلغت من

مناصب- معلقًا فى رقبـة ولى أمرها، وينتقل هذا الواجب إلى الدولة فى حالة غياب هذا الولى. لقد اتضح من قبل أن نصيب المرأة من الميراث يعد امتيازًا لها وتكريمًا يفوق نصيب الرجل أحيانًا، وهو ما يدحض مقولة أنها أقلُّ حظًا من الرجل، وأن «النصوص» لم تحررها تحريرًا كاملاً. وإذا كانت «النصوص الدينية» -أى: القرآن والسنة- واضحة، قطعية الدلالة، فكيف نعيد قراءتها أو نغير قراءتنا لها؟ وبأى معنى؟

وهذا يعيدنا إلى قضية شهادة المرأة التى يعيبونها على الإسلام، ويرون أنها تنقص من قـيمتهـا، وكيانها، فلو أن القـوم أخذوا الإسلام بمفهـومه الصحيح المتكامل، لما وقعوا فى هذا التناقض المعيب، والخلل الفادح. إن القرآن الكريم وضع أسسا، وقواعـد لحفظ الحقوق، والحرص على تماسك المجتمع، وإشاعة القيم العليا التى تحكم مسيرة المجتمع الإسلامى، وتحقق له سلامـة السلوك، ونظافة الفكر، واسـتقـامة التوجـهات. وفى مـجال التعاملات المالية والمداينة لابد مـن الكتابة، والشهادة، وطلب الإسلام من الكاتب أن يكتب ولا يمتنع تحت أى ظرف عن الكتابة، مادام قادرًا عليها، كما طلب من الشهود ألا يمتنعوا عن الشهادة إذا طُلبت منهم حفظًا لحقوق الطرفين: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ

الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ..﴾ [البقرة: ٢٨٢].

القرآن الكريم يتحدث بوضوح عن الأهلية، والعدل، والرضا، والشهادة والتقوى، ويلحُّ عليها فى أكثر من صورة، ثم يأتى بعد ذلك من يدلس على الأمة ويزعم أن «نصف الشهادة» بالنسبة للمرأة تعنى تفضيل شهادة الرجل الجاهل الطائش الأمى، ويرتب على ذلك ضرورة تغيير قراءتنا للنصوص الدينية! حتى لا تكون الشهادة من رجلين، أو رجل، وامرأتين. ونسى النتوم طبيعة المرأة، وظروف حياتها الأسريَّة، والاجتماعية التى تجعلها قد تغفل بعض التفاصيل، والجزئيات، فتذكرها الأخرى بما نسيته، أو لم تنتبه إليه.. وسوف أترك صاحب «الظلال» - رحمه الله- ليوضح المسألة بأسلوبه المضىء الجميل:

«إنه لابد من شاهدين على العقد ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ والرضى يشمل معنيين: الأول أن يكون الشاهدان عدلين مرضيين فى الجماعة. والثانى أن يرضى بشهادتهما طرفا التعاقد.. ولكن ظروفًا معينة قد لا تجعل وجود شاهدين أمرًا ميسورًا، فهنا ييسر التشريع فيستدعى النساء للشهادة، وهو إنما دعا الرجال لأنهم هم الذين يزاولون الأعمال عادة فى المجتمع المسلم السوى، الذى لا تحتاج المرأة فيه أن تعمل لتعيش، فتجور بذلك على أمومتها، وأنوثتها، وواجبها فى رعاية أثمن الأرصدة الإنسانية، وهى الطفولة الناشئة الممثلة لجيل المستقبل، فى مقابل لقيمات، أو دريهمات تنالها من العمل، كما تضطر إلى ذلك المرأة فى المجتمع

النكد المنحرف الذى نعيش فيه اليـوم! فأما حين لا يوجد رجلان، فليكن رجل واحد وامـرأتان. . ولكن لماذا امرأتان؟ إن النص لا يدعـنا نحدس! ففى مـجال التـشريع يكون كـل نص محددًا واضـحاً مـعللاً: «أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى». . والضلال هنا ينشأ من أسباب كثيرة. فقد ينشأ من قلة خبرة المرأة بموضوع التـعاقد، مما يجعلها لا تستوعب كل دقائقـه وملابساته ومن ثم لا يكون مـن الوضوح فى عقلهـا بحيث تؤدى عنه شهادة دقيقة عند الاقتضاء، فـتذكرها الأخرى بالتعاون معًا على تذكر ملابسات الموضوع كله، وقـد ينشأ من طبيعة المرأة الانفعاليـة. فإن وظيفة الأمومة العضوية البيولوجية تستدعى مقابلاً نفسيًا فى المرأة حتمًا، تستدعى أن تكون المرأة شديدة الاستجابة الوجدانية الانفـعالية، لتلبية مطالب طفلها بسرعة، وحيـوية لا ترجع فيهما إلى التـفكير البطىء. . وذلك من فضل الله على المرأة، وعلى الطفولة. . وهذه الطبيعة لا تتجزأ، فالمرأة شخصية موحدة هذا طابعهـا -حين تكون امرأة سوية- بينما الشهـادة على التعاقد فى مثل هذه المعـاملات فى حاجة إلى تجـرد كبير من الانفـعال، ووقوف عند الوقـائع بلا تأثر، ولا إيحاء. ووجـود امرأتين فيـه ضمـانة أن تذكّر إحداهـما الأخرى -إذا انحـرفت مع أى انفـعال- فـتـذكـر، وتفىء إلى الوقائع المجردة» (الظلال: ١/ ٣٣٥ وما بعدها).

••••

٤

لا يخجل كُـتَّاب السلطة، ومثقـفوها من المغالطة والتـدليس والتلبيس والإيمان ببـعض الكتَّـاب والتشكيـك فى بعضـه الآخـر، وتكمن خطورة موقـفهم، وسلوكهم أنهم يخـاطبون جمـهورًا عريضًا بلغـت نسبة أميـته الدينية أكثـر من ٧٥٪ بعد أن تكفل رفاقهم من الماركسـيين، والمتأمركين، وأعضـاء التنظيم الطليعى بإقـصاء الإسلام عـمليًا عن المناهج الدراسـية، وتركـوا بعض الصفـحات التى تسـمى منهجًا للتربيـة الدينية لا يطالـعه الطلاب، ولا يدرسه لهم أحد، لأنه لا يضاف إلى المجـموع! ولا يقتصر الأمر على شناعة المسـتوى الذى وصلت إليه الأمية الدينية الإسـلامية فى مصر، والعالم العربى، ولكنه يمتد إلى طرح البديل للثقافة الإسلامية عبر وسائل الإعلام التى تمثل قوة ضاربة -وخاصة التلفزة- وذلك بنشر الثقافة الاسـتعـمارية الـصليبيـة فى أحط تجلياتهـا، أعنى: العـرى، والعنف، والسطحـية، والأنانيـة، والغاية تبـرر الوسـيلة، والوقاحـة فى السلوك، والبذاءة فى التعبـير، واحتقار دين الأمة، وتراثهـا وتاريخها، وبطولاتها، واستقـبال الغزو الاستعـمارى بوصفه المنقذ من الـضلال. . ثم يا للعار؛ الدعوة إلى الفرعونية بدلاً عن الإسلام والعروبة!.

يقـول كتَّـاب السلطة، ومـثقـفـوها عن خطابهم الدينى الجـديد الذى يريدون تسـويقه للأمـة البائسـة: إن الخطاب الجديد لا يُسـقط الزمن من حسابه، وينـظر لمقاصد النص، ولا يقيـد نفسه بعباراته، ويهـتم بالإنسان قبل أن يهتم بأى شىء آخر، إنه باختصار ثورة جذرية شاملة على الخطاب القديم.

ويفسر كُتَّاب السلطة ومثقفوها الخطاب القديم بأنه إذعان، وتسليم، والخطاب الجديد بحث، ونقد، ومساءلة، ومحاكمة. الخطاب القديم شكل ومظهر، والخطاب الجديد فكر، وجوهر.. إلخ.

وواضح أن القوم -ولا مؤاخذة- ليس لديهم فى هذا الموضع أدنى معلومة صحيحة عن الفكر الإسلامى. ويبدو أنهم يستقون معلوماتهم من حلقات الدخان الأزرق، والمحافل الماسونية، كما وصفهم أحد رفاقهم فى لحظة غضب غير نبيلة؟! وهم فى تخليطهم يسفرون عن حقيقة غايتهم وهى الثورة الجذرية الشاملة على الخطاب القديم الذى يرونه إذعانًا وتسليما، وشكلاً، ومظهرًا، ولا يهتم بالإنسان قبل أى شىء آخر (بمفهوم المخالفة)! لو أن هؤلاء السادة سألوا باحثًا مبتدئًا فى العلوم الإسلامية لقال لهم: إن لدينا علمًا قائمًا بذاته اسمه «علم الأصول» وهو مفخرة الحضارة الإسلامية، والتشريع الإسلامى فى كل عصر، ومكان، لأنه علم المستقبل وعلم مقاصد الشريعة التى تعنى بالإنسان، كما خلقه الله، وأراد له الخير حيث كان، وليس كما يريد الأمريكان، أو الروس من قبل.. هذا الإنسان الذى كرمه الله، ورزقه من الطيبات، حتى جاء الطغاة، والمستبدون، وأبواقهم من المرتزقة، والأفاقين، ليفسدوه، ويحطموه، ويغتالوا كرامته، ووجوده بالكذب والتضليل، وقوة الشر! لو نظر كُتَّاب السلطة ومثقفوها لعرفوا أن علم الأصول فى التشريع الإسلامى سبقهم بأربعة عشر قرنًا فى مراعاته للزمان ومقاصد الشريعة، قبل أن يطل السادة المثقفون من عباءة المستعمرين الصليبيين ليطلبوا ثورة جذرية شاملة على «الخطاب القديم» (الرمز الكودى للإسلام عندهم!)، وليبشروا بخطاب جديد يهتم بالإنسان قبل أى شىء آخر.. وبالطبع، فهم يتناسون بدهية

أساسية فى الإسلام، وهى أن المسلم يهتم بخالقه قبل أى شىء آخر، والاهتمام بالخالق يتضمن بالتالى الاهتمام بالمخلوق.. وهنا فلا مجال لما يسميه كُتَّاب السلطة بالإذعان، أو التسليم بوصفه دليلاً على الخطاب القديم، أو التخلف، أو الإظلام كما يسمونه، فمن يؤمن بالخالق عليه أن يذعن لما يقول، ويسلم بما يأمر به. ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ [النساء: ٦٥] ﴿ **وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا** ﴾ [الأحزاب: ٢٢].

يلاحظ أن كُتَّاب السلطة لا يحتجون بآية واحدة من القرآن الكريم (أو النص كما يسمونه)، أو حديث شريف واحد من السنة المطهرة (أو النص الثانى كما يسمونها). مع أن النص والنص الثانى يحفلان بمصطلح التسليم، والإسلام نفسه يعنى الخضوع، والطاعة، والتسليم أيضًا.

لا أحد من كُتَّاب السلطة ومثقفيها يدعو إلى الثورة الجذرية الشاملة على الأوضاع الفاسدة التى تعيشها الأمة، ولكنهم يوجهون كل جهدهم لتغيير الإسلام، وتعديله، وتبديله بما يرضى السادة الأمريكان واللائذين بهم.. إنهم يريدون محو الإسلام من الوجود، ويسمحون لأنفسهم أن يكفروا الناس، ويصفونهم «بالمتأسلمين!»، ويجمح بهم الهوى إلى الحد الذى يريدون فيه استئصال المعجم الإسلامى، ويرونه فخاخًا منصوبة، ويستشهدون على ذلك بلفظة «البيعة» ويرونها تناقض كلمة الديمقراطية.

لا ريب أن الهوى حين يحكم أقلام كُتَّاب السلطة، يهوى بهم إلى مزالق تكلفهم ما لا يحبون حيث تنكشف عوراتهم الفكرية، والثقافية،

وكان الأولى بهم أن يستروا أنفسهم. ولا أدرى ما الذى يجمع البيعة إلى الديمقراطية. البيعة تعنى المعاهدة على النصرة، أو الوفاء بشىء تجاه المُعاهَد، وكانت البيعة تعطى للخليفة أو القائد الذى يختاره الناس دعمًا له، وتأييدًا ومؤازرة، وقد وردت فى القرآن الكريم تعبيرًا عن النصرة للنبى ﷺ، والطاعة، والعمل بالإسلام: ﴿إنَّ الَّذين يُبايعُونَكَ إنَّمَا يُبَايعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّه فَوْقَ أَيْديهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ ...﴾ [الممتحنة: ١٢].

فالمبايعة اتفاق يقتضى الوفاء، والتنفيذ، أما الديمقراطية فلها نظير يستغرقها فى المفهوم الإسلامى هو «الشورى»، وإذا كان المعز لدين الله الفاطمى يطلب البيعة لدعم حكمه بالسيف، أو الذهب، فالإسلام ليس مسئولا عن سلوكه أو سلوك الناس: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩].

الكلمات فى الإسلام واضحة دقيقة وليست فخاخًا منصوبة كما يزعم كُتَّاب السلطة وأعوان الاستبداد، المفارقة أنهم يتعرضون للإسلام وهم يدلسون على المسلمين، فكثير منهم يعى جيدًا طبيعة الإسلام، وتشريعاته، وقليل منهم يجهلها أو يتجاهلها، ولكنهم يستغلون أمية الناس فى المجال التشريعى الإسلامى، فيخلطون الأوراق، ويدلسون على الجمهور، ويصنعون لأنفسهم بطولات ورقية لا قيمة لها باسم الثورة، والتجديد.

●●●●

٥

من خصائص كُتّاب السلطة ومثقفيها؛ أنهم لا يتورعون عن الكذب لتمرير مقولاتهم ضد الإسلام، والمسلمين، ويتهمون غيرهم بتهم باطلة أو يصفونهم بما ليس فيهم.. وقد رأينا فى المؤتمر الثقافى الذى عقده مثقفو السلطة نماذج من أكاذيبهم وادعاءاتهم حول الإسلام والمسلمين، ثم رأينا إلحاح كبارهم على أن المؤتمر مثل «التيارات الفكرية المتباينة فى مدى التنوع المؤثر لبنية الثقافة العربية المعاصرة»! وهذا الإلحاح ينقضه أولاً أن علماء الإسلام فى الأزهر، أو الجامعات، أو إدارات الدعوة والوعظ، وهم الذين يعنيهم أمر الخطاب الإسلامى، لم يتحقق تمثيلهم فى المؤتمر المذكور بأية صورة من الصور، اللهم إلا إذا كان السيد وزير الأوقاف- بما يرمز إليه من توجه أمريكى إزاء الإسلام- يغنى عن كل هؤلاء، وينوب عنهم فى مواجهة ما يقرب من مائتى شيوعى سابق أو متأمرك حالى، ويقودنا هذا إلى ما ينقض كلام الكبار ثانيًا، حيث إن التيارات الفكرية المتباينة فى مدى التنوع المؤثر لبنية الثقافة العربية المعاصرة، ليس قاصرًا على التيارات الشيوعية، أو العلمانية، فهذه- كما يعلم كهنة آمون المعاصرون- تأثيرها محدود للغاية، وأن التأثير الأكبر، والأعظم فى بنية الثقافة العربية والمعاصرة هو للثقافة الإسلامية، مع كل الحملات الضارية التى يشنها أعداء الإسلام، وخدام الغرب الصليبى، والنازية اليهودية. إن خداع القراء بالحديث عن التيارات الفكرية المتباينة يوحى أن الإسلام حاضر، أو كان حاضرًا فى المؤتمر، وهو ما لم يحدث، اللهم إلا إذا عددنا تمزيق لحم

الإسلام والطعن فيه وتلويثه بوساطة السادة المؤتمرين (المستنيرين) حضورا فعالاً وحقيقيًا!.

ويدعى مثقفوالسلطة أن الإسلام يعادى الحرية الفكرية، والإبداعية، ولهم فى هذا السياق كلام غريب، وعجيب، يدخل فى متاهات بعيدة ومتشابكة، فهم يزعمون أن التطرف الدينى يرتبط بالدعوة إلى الدولة الدينية (كذا!) فى عالمنا العربى المعاصر، ويزعمون أن القوة الباطشة للتطرف الدينى قد أطلقها الرئيس الراحل «أنور السادات» ورعاها، وأن هذه القوة الباطشة متعصبة، وإرهابية، ولا تسمح بممارسة الفكر، والإبداع، ويتخذون من حادثة «فرج فودة» وحادثة «نجيب محفوظ» دليلاً على مقاومة الإسلام للمفكرين، والمبدعين، وتحريضه ضدهما!.

وليعذرنى القارئ الكريم حين أوفر عليه نقل ما يقوله مثقفوالسلطة بأسلوبهم الركيك، وبجاحتهم الجريئة فى التهجم على دين الأمة، وعقيدتها وثقافتها إرضاءً للسيد الأمريكى الصليبى المستعمر، والسيد النازى اليهودى. وفى كلامهم تخليط كبير، ومعجم قبيح. . ولا أدرى من الذى يجمع التطرف إلى الدولة الدينية إلى محاربة الفكر، والإبداع؟ أتمنى أولاً أن يفسروا لنا مفهوم التطرف الدينى، هل كل من يتمسك بعقيدته، ودينه يسمى متطرفًا؟ هل كل من يعارض المظاهر المنافية للإسلام، والتفريط فى مقدساته يسمى متطرفًا؟ وكيف يكون المسلم غير متطرف؟ هل يسلم نفسه للأمريكان، واليهود كى يعيدوا صياغته فكرًا، وعقلاً وثقافةً؟ هل يكتفى من الإسلام بأداء الصلوات، ويرحب بالاستعمار الصليبى اليهودى؟ هل. . ؟هل. . ؟ قولوا لنا أيها السادة ما

معنى التطرف؟ هل هو التشدد فى الدين؟ لقد كان التشدد موجودًا منذ أربعة عشر قرنًا، ولكنه كان فى إطار ضيق جدًا، وبقى الإسلام وذهب المتشددون، لأن الإسلام ينهى عن التشدد والغلو، ويدعو إلى التسديد، والمقاربة، وهذا ما يعلمه كُتَّاب السلطة حق العلم، ولكنهم يخلطون بين التطرف والإرهاب. والأخير مرفوض نقلاً وعقلاً، ما لم يكن موجهًا لأعداء الله، والإسلام، والمسلمين: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ** ﴾ [الأنفال: ٦٠]، والإرهاب الذى جرى ويجرى فى مصر، وبلاد المسلمين صناعة غير إسلامية، ويعلم القاصى والدانى أن صنّاعه الأصليين فى واشنطن، وتل أبيب، وأنهم يعملون ليل نهار لاستئصال الإسلام، وتمزيق وحدة المسلمين، وبث الفتنة بينهم ليكون بأسهم بينهم شديدًا!.

التطرف، والإرهاب ليسا الإسلام، والتطرف، والإرهاب مرفوضان من الإسلام ما لم يكن الإرهاب لإخافة الأعداء، والإسلام لا يعادى الحرية ولا الإبداع، لأن جوهره يقوم على الحرية التى تنفى العبودية لغير الله (مثقفو السلطة يدعون إلى عبادة الغرب الصليبى، والولاء لأمريكا والاستسلام لليهود!). الحرية فى الإسلام قيمة أساسية تحكم الدين، فالعبد، والمقلد، والمنافق ليسوا أحرارًا، ولا تصح عقيدتهم إلا إذا تحررت أرواحهم، وعقولهم من كل ما عدا الله، وهو ما يتمثل فى الركن الأول من أركان الإسلام الخمسة «شهادة أن لا إله إلا الله، وأنّ محمدًا رسول الله»، وفى الآيات الكريمة العديدة التى أوردها القرآن الكريم حول التقليد والمقلدين ما يشير إلى ذم هؤلاء العبيد الذين لا يملكون الحرية العقلية أو

الفكرية ويسيرون على نهج غيرهم، ويقلدونهم تقليدًا أعمى: ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٢، ٢٣]. ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠]، ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٤].

والمسلم لا يدخل إلى دائرة الإسلام إلا من خلال اقتناع عقلي يقوم على الحرية المطلقة، وقد أعطانا الحق سبحانه حق الإيمان، وحق الكفر شريطة أن نتحمل النتائج، وفقًا للأدلة العقلية المنطقية التي تقنع صاحب العقل السليم: ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ [الكهف: ٢٩].

●●●●

٦

يسعى كُتّاب السلطة إلى ترويج مقـولاتهم الكاذبة بالإلحاح عليها، كى تتحول إلى حقائق، وفقًا لنظرية النازى الأشهر «جوبلز» الذى كان يؤمن أن الأكذوبة تتـحول إلى حـقيقـة بكثرة ترديدها وتكرارها، وهو مـا فعله كُتّـاب السلطة بكثـير من المقـولات التى أرادوا الترويج لهـا عبـر وسائط التعبير القوية، الواسعة الانتشار التى يهيمنون عليها، ومن هذه المقولات، ربط الصحـوة الإسلاميـة - يسمونهـا بالتطرف الدينى - بمواقف الرئيس الراحل أنور السادات، وتشجيعه لها، ثم حديثهم الممل عن الدولة الدينية التى يريد المتطرفون إقامتها!!

ولا ريب أن مـصطلح «التطرف الدينى» يحـمل فى طيـاته الكثيـر من الخبث والمراوغة، لأنه قد يطلق على بعض الجماعات الصغيرة التى تتشدد فى أمور الدين، وتشددها مسألة مكـروهة من الأغلبية، لأن هذه الأغلبية تعلم أنه لن يشـادَّ، الدين أحد إلا غلبه. والوقـوف عند هذه الجمـاعات الصغيرة، والتهويل من أمرها، وشـأنها عمل غير سوى، لأنه إعلان عن حرب فى غير مكانها، وزمانها، وكما سبق القول، فإن التشدد يذهب مع مرور الوقت، ويعود أصحابه إلى الفطرة السوية، والاعتدال الطبيعى الذى يتعامل مع القضايا فى حجمهـا الطبيعى. بيد أن القوم - كُتّاب السلطة - نزعـوا إلى سحب المصطلح علـى الحركـة الإسلامـية كلهـا، والصحـوة الإسلاميـة عمومًا، فـوصموا كل من يتحـرك تحت راية الإسلام بالتطرف

الدينى، وزادوا أحيانًا بوصمه بالإرهاب، وذلك كله لتشويه صورة الإسلام فى النفوس والقلوب، وخاصة أمام الأجيال الجديدة الغضة التى حرمت من التعرف على أسس الإسلام ومقوماته وقيمه، فصار المسلم كما يصوره مثقفو السلطة وكُتّابها، هو ذلك الملتحى الذى يتكلم الفصحى بتقعر، ولا يجد غضاضة فى الإمساك بقنبلة وتفجير المركبات العامة وتجمعات البشر، واستخدام البنادق والمدافع فى قتل الآمنين الوادعين بحجة الدعوة إلى الإسلام، وقد ألح كُتّاب السلطة الذين يتقنون فنون الدراما التليفزيونية والسينمائية على تقديم هذه الصورة الدموية المخيفة للمسلم فى المسلسلات والأفلام، حتى بات الأطفال يصرخون كلما رأوا شخصًا ملتحيًا: إمسك: «إرهابى»!

أما المسلم النموذجى الذى صوره كُتّاب السلطة، فهو الشخص المودرن الذى يمارس الحب ويشرب الخمر ويفرط فى أمر الدين ولا يعرف شيئًا اسمه الحلال وآخر اسمه الحرام.. لا مكان لدى كُتّاب السلطة ومثقفيها للمسلم العامل العابد الذى يخشى ربه ويعف عن الحرمان ويجاهد فى سبيل الله والوطن ويتفوق فى علمه وعمله ويحافظ على شخصيته وهويته.... إلخ.

هناك أسباب موضوعية للصحوة الإسلامية أعادت المسلمين إلى الإسلام دون تشجيع من هذا المسئول أو ذاك، وأبرز هذه الأسباب هزيمة يونية ١٩٦٧م النكراء التى أذلت العرب والمسلمين، ومازلنا ندفع ثمنها حتى الآن بعدما يقرب من أربعين عامًا.. هذه الهزيمة جاءت نتيجة لإقصاء الإسلام والترويج للشيوعية والعلمانية وحرمان الأمة من الحرية

والديمقراطية وسيادة الاستبداد والفرعنة وتغييب الإسلاميين وراء الأسوار، مع ما يرافق هذا التغييب من تعذيب بشع، وإهدار لإنسانية المعتقلين. والذى فعله الرئيس الراحل «أنور السادات» كان تصحيحًا لانحرافات نظام ظالم فاسد مهزوم، فأتاح قدرًا من الحرية للناس، وبشر بشىء من الديمقراطية تم وأده بمعرفة الجلادين، وخدام الاستبداد، وكهنة الطغيان من كُتَّاب السلطة، ومثقفيها الذين يمارسون دورهم بمنتهى الجرأة، والبجاحة حتى الآن.

الرئيس السادات لم يطلق مارد التطرف الدينى كما يقول مثقفو السلطة، وكُتَّابها، ولكن الأمة فى إطار الهامش الديمقراطى الذى بشر به الرئيس الراحل، عبرت عن نفسها، وأملها وحلمها، فرأت أن إسلامها الجميل هو الحل الأمثل لمشكلاتها، ومحنتها، وكانت البداية حرب رمضان المجيدة التى زلزلت كيان العدو وسادته فى العواصم الصليبية الهمجية الاستعمارية!

كانت الصحوة الإسلامية - وليس التطرف الدينى - طريق الأمة لبناء المستقبل الذى نحلم به، ويضعها على طريق العلم، والنور، والاستقلال والرخاء.. ولكن أنصار إبليس من الجلادين، والطغاة، وكهنة آمون أبوا أن تواصل الأمة مسيرتها على الطريق الصحيح؛ فكان إشعال النار، وكان الصدام، وكانت المأساة؛ التى أدخلت مصر، ومن ثم بعض الدول العربية والإسلامية إلى دوامة العنف، والعنف المضاد، الذى مازالت الأمة تدفع ثمنه حتى اليوم!

إن الشيوعيين القدامى والمتأمركين الجدد من كُتَّاب السلطة، ومثقفيها،

لم يغفروا للرئيس الراحل «أنور السادات» شنه الحرب على الدولة النازية اليهودية الغازية، فهم الذين أيدوا قيام هذه الدولة العنصرية المجرمة من خلال أحزابهم، ووالدهم الروحى، اليهودى الصهيونى؛ «هنرى كوربيل»! وبياناتهم التى أصدروها فى أثناء حرب ١٩٤٨م معروفة، حيث وصفوها بالحرب القذرة التى يشعلها العسكريون العرب ضد الطليعة الاشتراكية اليهودية فى فلسطين! ومع أن «السادات» كان رفيقًا مع الشيوعيين والمتأمركين واللائذين بهم، ومنحهم أعلى الوظائف والمناصب، فإنهم لا ينسون له مبادرته العسكرية التى رفعت رأس العرب، والمسلمين بعد أن كانت فى التراب، لذا فإنهم يحرصون على تشويهه وإلصاق كل عيوب الأرض به، ومنها «إطلاق مارد التطرف الدينى». كما يسمونه!

السادات لم يطلق مارد التطرف ولا مارد الصحوة الإسلامية.. هو أطلق سراح الشعب المصرى إلى حد ما، فكانت الصحوة الإسلامية تعبيراً طبيعيا عن إرادة الشعب. وكهنة آمون يكرهون الإسلام، ولا يريدون صحوة، ولا يقظة فكان إلحاحهم الخبيث على إطلاق مصطلح «التطرف الدينى» وربطه بالسادات انتقامًا من السادات والمسلمين جميعًا!

●●●●

٧

لم أجد أحدًا فى الشرق أو الغرب يتفرغ لهجاء دينه، وازدراء عقيدته والتشويش على شريعته مثلما أرى فى بلاد المسلمين. عتاة الملحدين والعلمانيين فى بلاد الغرب يعبرون عن رؤيتهم دون أن «ينصبوا مولدًا لا ينفض» لهجاء المسيحية، أو انتقاص اليهودية، ولكن كُتَّاب السلطة ومثقفيها فى البلاد الإسلامية لا يتعبون من عمليات تشويه الإسلام، وتلويثه بدءًا من وصمه بالإظلام حتى رميه بالتخلف مرورًا بالعديد من الصفات السلبية والتحريضية مثل: السلفية، والرجعية، والتطرف، والإرهاب، والعمالة، وخدمة الأنظمة المحلية، والعالمية. . . .

والقوم فى سبيل التأكيد على دموية الإسلام، وعدوانيته يربطون ما بين الدولة الدينية، والتطرف الدينى وفقًا لتسمياتهم، وتقلقهم المادة الثانية من الدستور المصرى التى تنص على أن الشريعة الإسلامية المصدر التشريعى الأساسى، أو المصدر الأساسى للتشريع، لذا ينتفضون غضبًا، وسخطًا على هذه المادة التى تحول البلاد إلى دولة دينية تغازل التطرف، والإرهاب، وتنذر بأوخم العواقب، لأنها - من وجهة نظرهم - تدخل البلاد إلى أعماق الظلمات، ودوامة العنف. القوم لا تشغلهم بالطبع، معاناة الشعب من الغلاء الفاضح، والفادح، ولا موجة الفساد البشع التى لا تستثنى أحدًا، ولا الظلم الاجتماعى الذى يفتك بالقيم، والأخلاق، ولا عودة التركيب الطبقى المتوحش الذى يحرم شابًا متفوقًا فى علمه،

وعمله، من وظيفـة فى جهة سياديـة لأن أباه فقير! أو بلغتـهم (لأنه غير لائق اجتـماعيًا!)؛ مع أن الناس يعلمـون أن كثيرًا من أصـحاب المال لم يحصلوا عليه بعرق الجبين، ولا الميراث الحلال!

إنهم ينطلقـون من فرضـية أن الدولة متـيمـة بالإسلام، وتشـريعاته، وقـيـمه، وأنـها تنـافس من يسـمونـهم بالمتطرفين فى تطبـيق الشـريعـة الإسلامية، لأن الدستور ينص على أن الإسلام دين الدولة، وأن الشريعة الإسلاميـة المصدر الأساسى للتشـريع؟ بالطبع لم ينظروا، أو تجاهلوا، أو عصبوا أعينهم عما يلاقيه الإسلام على أيدى السلطات التنفيذية فى معظم المواقع، وأن السياسـة العملية المتبعة هى «تجـفيف منابع الإسلام» (الاسم الكودى هنا للإسلام هو الإرهاب!) بدءًا من كتـاتيب تحفيظ القرآن الكريم حتى الجامعـات، فضلاً عن أجهزة الدعاية، والصـحافة، ووزارة الأوقاف التى تفضل صعود الجهلاء - الذين يحملون تصريحات أمنية - على أعواد المنابر، دون العلماء المشهود لهم بالعلم، والكفاءة، والفضل.

بعض كتاب السلطة ومثقفيها يرقص فى «حلقة الذكر» غائبًا عن الوعى والمجتمع، لـيحذر ويصرخ: انتبـهوا؛ لأن الدولة الدينية ستـمزق الوطن وستعود بنا إلى عصور الظلام، وكأننا خرجنا من هذه العصور، وتوحدنا فى النور!

إن الواقع يقول إن معظم الدول العربية، والإسلامية من أشد الناس قسوة على أبنائهـا، قهـرًا، واضطهـادًا، واستـبدادًا، وهـى بذلك تخالف أوليـة إسلامـية اسمهـا «الحرية»، ثم إنها فى واقـعها الاقـتصادى، والاجتـماعى

والثقـافى، والتجـارى تابعة تبعـية مطلقـة للغرب الصليـبى الاستعـمارى، فتتـعامل بالربا (الفائدة)، وتقلده فى العـادات، والتقاليد (القـوانين السائدة تعاقب على غش الخمر، ولا تعاقب على إنتاجها، والمتاجرة بها وشربها!)، وكتّـاب السلطة، ومـثقفـوها يرددون، ويتنـجون أحط ما يـقدمه سـادتهم الصليبيون، واليهود فى الغـرب، من فكر وأدب، وثقافة، وسـينما وفنون أخرى، ونظمنا التجارية خـاضعة خضوعًا شبه تام لقـوانين الغرب التجارية ونظمه فى المعاملات، (وحيـوا معى السيد «الدولار» الذى صار يحكمنا فى صحونا ونومنا، ويحدد لنا سعر الفول، والطعمية، والفجل، والجرجير!).

الدول العربية والإسلامية فى مجملها تسير حياتها وفقًا لما يسمى النظام العلمانى الصليبى الغربى، والرابط بينـها وبين الإسلام هو العبادات داخل المساجد، وعقود القران عند الزواج، والجنائز عند الموت، أما ما عدا ذلك فالمسألة فيها نظر، ولكنها تؤكد على التبعية شبه الكاملة لحركة المجتمعات الصليبية الغربية فى جانبها المتدنى دون الجانب المتفوق.

والسؤال هو: لماذا لا يقنع كُتّاب السُلطة، ومـثقفوها بهذا الوضع الذى يؤكد على وجـود مسافة طويلـة بين الإسلام، والحكومات الإسلامـية فى الواقع العملى، ويصرون على حذف المادة الثانية، أو المواد التى تشير إلى إسلامية هذه الحكومات؟

إنهم فى حقيقة الأمر مكلفون بمهمة (غـير نبيلة طبعًا)؛ وهى استئصال كل أثر أو وجـود للإسـلام، حتى على مـستوى الصـورة الشكليـة، أو الكلمات الميتة فى دساتير لا تعترف بها الحكومات المستبدة غالبًا.

ثم إن القوم فى سبيل تحقيق مهمتهم، يخلطون - عن عمد وسبق إصرار على الخلط - بين الحكومة الإسلامية والدولة الدينية. الأخيرة نتاج للعصور المظلمة فى أوروبا الصليبية، حيث كانت الكنيسة صاحبة دور كبير فى تحديد مصائر الناس عن طريق ما يسمى الحرمان، وصكوك الغفران، ولكن الحكومة الإسلامية - وقد بلغت أوج ازدهارها، وقوتها، وعظمتها فى فترة العصور الأوروبية المظلمة - تنطلق من رؤية شاملة للحياة والآخرة، ولا تملك صكوك غفران، أو حرمان، إذ العلاقة بين المسلم، وربه لا تقوم على وساطة، لأنها علاقة مباشرة، وقريبة.. والمسلمون فى علاقتهم مع حكومتهم الإسلامية أدرى بشئون دنياهم فى إطار الثوابت التى نزل بها الوحى، وأصَّلتها السنة النبوية الشريفة.

●●●●

٨

يضعنا كتـاب السلطة، ومثقفـوها -من اليسار المتأمرك- أمـام خيارين كلاهما مر، أولهما أن نتخلى عن أصـالتنا، ونفقد ديننا، وقيمنا، ونخسر أنفسنا بالـتماهى مع عـدونا، ومُستـعمرنا، وقـاتلنا. والآخر أن نتـمسك بتراثنا، وننحاز إلى حضارتنا، فنخرج من العـصور الحديثة، أو نظل فيها مضطهدين لا نفهم لغة العصر، ولا نخالط أهله، ويستشهدون على ذلك بما حدث من انقلابات قـادتها الجماعات الدينيـة، فوصلت إلىّ الحكم فى إيران، والسودان وأفـغانسـتـان، فعزلت نفـسها عن العـالم، وعاشت فى الماضى، وخرجت من العـصر، كما يستـشهدون بما قامت به الجـماعات الإرهابية فى دول عربية عديدة لم تصل فـيها إلى الحكم، ولكنها مارست الإرهاب، والدمار، والقتل والذبح.

لا شك أن مثـقفى السلطة اليساريين المتـأمركين يضعوننا بين خـيارين قاسيين، ولكن نظرة فـاحصة إلى هذا الطرح الصبيانى السـاذج تنسفه من أساسه، وتضعه فى حجمه الحقيـقى أو وصفه الذى يستحقه. وإذ افترضنا جدلاً بأن هناك أقلية تقول بالفعل بالانعزال، وعدم مخالطة العالم المعاصر نتيجة لإرهابه الاستعمـارى، ومظالمه الوحشية، مع وجود من ينادى بترك الدين الإسلامى، وما يتعلق به، والتماهى مـع المستعمر الصليبى الظالم، فهناك بالفعل القاعدة العريضة من المسلمين، وعلماء الإسلام، بل وبعض الدول الإسلامية، التى تنادى بالتمسك بالدين الإسلامى، وتراثه، وتنحاز

إلى الحضارة الإسلامية، وقيمها، وفى الوقت نفسه تسعى إلى الحرية -أولاً- ثم العلم، والمعرفة، والتفاعل مع العالم كله (بما فيه من مستعمرين متوحشين وقتلة) انطلاقًا من الآية الكريمة ﴿ .. وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم.. ﴾ [الحجرات: ١٣].

القاعدة العريضة من المسلمين، وعلماء الإسلام تنسف هذا التخيير الذى طرحه كتاب السلطة، ومثقفوها، لأنه ينحاز إلى العدو الصليبى الاستعمارى، وتابعه اليهودى النازى المتوحش. إن المراوغة بطرح خيارين غير مقبولين بالتبعية أو الانعزال أمر يدل على البؤس الفكرى، فنحن -المسلمين- يجب أن نملك الحرية، والعزة، والاستقلال: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾ [المنافقون: ٨]؛ ومن هنا فالتبعية مرفوضة، وخاصة التبعية الثقافية، والحضارية، لأن المسلم له حضارته التاريخية وثقافته المتميزة التى يحرص عليها انطلاقًا من واجبه الدينى، قبل أى واجب آخر. ونحن المسلمين مطالبون دينًا، وخلقًا، وعرفًا بالتعامل مع الآخرين تعامل الأنداد فى ظل خصوصيتنا الحضارية، وهويتنا الإنسانية، وعمليًا فالعزلة أو الاعتزال غير ممكن، فى عالم لا يستطيع أن يستغنى عن بعضه أو أفراده، تجارةً وثقافةً، واقتصادًا، وجوارًا، وعلمًا، ومعرفة، وخبرة... وفى عصرنا الحالى، فإن بعض الدول الإسلامية التى لم تتنكر لإسلامها، استطاعت أن تواجه الواقع، وتعيش العصر، ومع كل المحاولات الاستعمارية الآثمة لتعويقها، وتعطيلها، فإنها تتجاوز العقبات، وتشارك فى المسيرة الإنسانية. وفى شرق آسيا دولتان مهمتان تقومان بدور كبير فى هذا السياق هما: ماليزيا،

وإندونيسيا، وهناك دول عربية وإسلامية تسعى إلى التعبير عن نفسها، ولكن قوى الشر الاستعمارية والمحلية تحول بينها وبين الوصول إلى هذا التعبير، وأثق فى الله أنه سيوفقها فى يوم قريب إلى ما تتمناه.

إن كتاب السلطة، ومثقفيها يحاسبون الإسلام بأعمال العنف التى يقوم بها بعض الأشخاص، كما يحاسبونه على أساس سلوك بعض الحكومات المستبدة التى تحكم باسم الدين، أو قصور بعضها فى فهم الدين، جوهرًا وأولويات، وخاصة فى المجال السياسى، ولكن من قال إننا يمكن أن نحاسب المسيحية بسلوك حكوماتها الاستعمارى الهمجى، أو بسلوك بعض رجال الدين المسيحى الفاسدين؟ هناك بالضرورة فرق بين الإسلام كما جاء من عند رب العالمين، وتطبيقه بوساطة الأشخاص الذين لم يستوعبوه أو لم يقدروه، أو الذين يتاجرون به. وهذه مسألة ليست قاصرة على زمننا ولكنها موجودة فى كل الأزمان التى تعاقبت على الإسلام والمسلمين، بعد انتهاء عهد الخلافة الراشدة، التى كانت مثالاً، ونموذجًا يقاس عليه ويهتدى به.

إن هذا الخيار المنكود الذى يطرحه كُتَّاب السلطة، هو مراوغة خبيثة لإعلان الدعوة الشريرة التى ترفع راية «الفقه الجديد». وهى راية يرفعها غلاة المتعصبين الصليبيين، واليهود فى الولايات المتحدة الأمريكية خصوصًا والغرب عمومًا، وذلك لتغيير الإسلام، وتبديله بما يتماشى مع التصورات الصليبية اليهودية، ويحقق لها الأطماع السياسية والاستراتيجية والاقتصادية فى بلاد الإسلام والمسلمين.

وخطورة هذه الدعوة الآثمة أنها تركز: على ما يسمى بالتأويل أو

التفسير العصرى للقـرآن الكريم، والسنة المطهرة، بمعنى استبعاد كل ما لا يتفق مع التبعية للغرب الصليبى الاستعمارى، أو يتصادم معه، وعلى هذا فإن كتاب السلطة حريصون على أن نستبعد الإسلام من التعليم، والإعلام والثقافة، والفكر، والصحافة، والسـياسة، والاقتصاد. . . على أساس أن هناك ما هو دينى ودنيوى، ولا علاقة بينهما، فى حين أن الإسلام يحكم حياة المسلم، وسلوكه فى عبادته، وعـمله معًا، فضلاً عن أنه لا يمكن لنا أن نحذف ثابتًا من ثوابت الإسلام من أجل عيون أمريكا، أو اليهود أو أى أحد آخر.

مبادئ الإسلام معروفة منذ أربعة عشر قرنًا، أجمعت عليها الأمة، ولا يستطيع أحد أيًا كان أن يـغير فيها، أو يبدل، وخـاصة أولئك الذين نبتوا فى «خضراء الدمن» - اليسـارية التى تأمركت - وصارت تغير معـتقداتها كما تتغير «الموضة» وأسعار البورصة.

لن يكون الإسلام أمريكيًا أو صهيونيًا. سـيظل الإسلام بعقيدته وقيمه وأخلاقه قائمًا فى النفوس والقلوب، وراسـخًا فى المشاعر، والأحاسيس، مهما حاول المراوغون الخبـثاء أن يرفعوا من رايات زائفة، ودعاوى باطلة، وخيارات ساقطة، لأن الإسلام هو الحيـاة، وهو جنة الإنسانية حين يقيمه الناس كما أنزله الله.

●●●●

٩

الفقه الجديد، هو الراية الزائفة التى يرفعها العلمانيون من الماركسيين المتأمركين، ويريدون به تبديل الإسلام وتغييره وفقًا لهوى الولايات المتحدة الأمريكية، والعالم الصليبى الاستعمارى الذى تقوده. وهم يرفعون رايتهم الزائفة وفقًا لمغالطات مكشوفة لا تنطلى إلا على السذج البلهاء.

ومن هذه المغالطات أن الفقه الإسلامى، بل الإسلام، يحتاج إلى قراءة جديدة معاصرة، تختلف عن قراءة العصور الوسطى، التى حنطت النصوص(؟) وأغلقت باب الاجتهاد فى القرن الثالث الهجرى بتواطؤ الفقهاء مع الحكام(؟!) وقدست التفسير القديم، ولم تلتفت إلى الغايات التى يهدف إليها الإسلام.

ويلاحظ أن السادة اليساريين المتأمركين من كتاب السلطة يحرصون دائمًا على إزاحة القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة من أدبياتهم لفظًا ومعنى، أسلوبًا وصياغة، ويكتفون، أو يصرون على استخدام مصطلح «النص»، أو «النصوص» امتهانًا لقدسية الوحى، ومكانته.

ولا ريب أن كل عصر يختلف عن العصور التى تسبقه فكرًا، ومنهجًا وأسلوبًا بحكم تراكم الخبرات، والمعارف، والإنجازات البشرية، فى شتى المجالات، والميادين، وهذا يستدعى قراءة جديدة، تتجدد باختلاف العصور والأزمان، فيما يتجدد، ويختلف، وليس فيما هو ثابت

وراسخ. . وحين نتناول الصلاة مثلاً، سنراها من الثابت الراسخ الذى لا يستطيع أحد أن يغير فيه أو يبدل، هل يمكن تعديل عدد الركعات أو السجدات مثلاً؟ هل نستطيع أن نجعل صلاة الجمعة يوم الأحد بدلاً من يومها الحالى؟ وإذا تناولنا الصيام أو الزكاة أو الحج هل يمكننا أن نبدل فيها أو نعدل؟ والأمر ذاته ينطبق على ما يسمى الأحوال الشخصية، والجهاد، والمعاملات، فى كل الظروف، والأحوال.

بيد أنه يمكن أن تتغير الوسائل، والظروف التى تتعلق بالأمور الحياتية اليومية، كما نرى مثلاً فى «نظام المصارف المالية» الذى أنشىء فى أوربة ونقله العالم بما فيه المسلمون، ولأن هذا النظام الجديد على المسلمين مثّل بالنسبة لهم خطوة غير مسبوقة فى المجال الاقتصادى، والمالى، فإن «علم الأصول» أو «علماء الأصول» الذين يملكون العلم، والمعرفة، والخبرة فى علم الفقه، أو الشريعة بصفة عامة، يقيسون ويجتهدون، ويرون ما يطابق الدين وما يغايره فى هذا النظام، ويطرحون الحلول الممكنة، ليكون نظامًا مصرفيًا متفقًا مع معتقدات المسلمين.

وإذا كان هذا المثال الواضح يكشف عن طبيعة الإسلام المتجددة فى ذاته، التى سبقت الآخرين فى التأصيل، والتقعيد لكل ما هو جديد فى الحياة والمجتمع، فإن تهمة القراءة بمنطق العصور الوسطى، وتحنيط النصوص، تصبح تهمة خاطئة، وغير خلقية، فضلاً عن كونها غير علمية. فالعصور الوسطى فى بلاد المسلمين كانت عصور علم، وأدب، وثقافة، وفكر وبحث، وترجمة ومعرفة شملت كل المجالات. وفى الوقت الذى كان فيه الإمبراطور «شارلمان» قائد الدولة البيزنطية لا يعرف كيف

يكتب اسمه، فإن «هارون الرشيد»، ومن بعده ابنه «المأمون»، كانا يحتفيان بالعلماء، وأهل الثقافة والأدب، والفقه، ويقدمات الذهب مقابلاً للمعرفة. إن العصور الوسطى فى بلاد المسلمين عرفت نشاطًا فكريًا، وفقهيًا، وثقافيًا غير مسبوق فى أى من بلاد العالم آنئذ، بينما كانت أوروبا تغط فى عصور الظلام والجهل، والخضوع لهيمنة الكنيسة ورجالها. . تحنيط النصوص(؟) إذًا لم يكن خصيصة إسلامية، ولن يكون، وبالتالى لم يغلق أحد باب الاجتهاد كما يزعم كتاب السلطة، ومثقفوها، ولم يحدث تواطؤ بين الفقهاء والحكام كما افترى هؤلاء الكتاب، والمثقفون.

إن الاجتهاد يرتبط دائمًا بحركة الفكر النشيطة، وحركة المجتمع الموازية، ويخمد الاجتهاد حين تتراجع حركة الفكر، والمجتمع، وتسود الأمية والاستبداد، والخرافة، وهو ما رأيناه فى عصور متفاوته، دون تواطؤ الفقهاء، والحكام، فالفقهاء فى كل الأحوال، حتى فى أشد المراحل تخلفًا واستبدادًا، كانوا طليعة المعارضة الحقيقية التى تنبع من روح الدين (وليس من روح الماسونية، ودخانها الأزرق!) ومواقفهم بعد القرن الثالث الهجرى كثيرة وشهيرة، حتى العصر الحديث. ويكفى أن نشير إلى مثالين فى عصرين مختلفين لعلماء الدين حين يستعلون على خدمة الاستبداد، ويحتقرون منافعه وعطاياه، ويفضلون الآخرة على الدنيا:

الأول: موقف العز بن عبد السلام (وهو أشهر أن يعرف) حين أصر على بيع حاكم مصر المملوكى فى المزاد، ثم يتم تحريره بعد البيع، حتى يكون حكمه شرعيًا، ولم ترهبه حراب الجند، ولا سطوة الحكم، بل جهر بالحق فى وجه الباطل، كما يذكر له التاريخ فتواه الشهيرة بألا تدفع العامة

من أموالها شيئًا لتمويل الجيش المحارب ضد التتار، حتى يتم نزع ممتلكات المماليك والأغنياء، وذهب نسائهم، وحليهن، فيتساوى الحكام، والأثرياء والشعب، وعندئذ يدفع الجميع. هل يستطيع «شيخ معاصر» أن يقوم بما قام به «العز بن عبد السلام» فى قرون التواطؤ كما أشار الكاتب البائس المنكود؟

الآخر: موقف علماء الأزهر الشريف وفى مقدمتهم السيد عمر مكرم، حين قاموا بإقالة الوالى العثمانى على مصر الذى عينته الآستانة عقب الحملة الفرنسية على مصر، وعينوا «محمد على» أميرًا، أو واليًا على البلاد، «وألبسوه الكرك» - الزى الرسمى للوالى - ورضخ السلطان العثمانى لإرادة الأمة ممثلة فى علماء الإسلام الذين لم يتواطؤوا مع الحكام!

إن علماء الإسلام لم يقدسوا التفسير القديم للقرآن الكريم، بدليل أنه ليس لدينا تفسير واحد فقط، بل تفسيرات متعددة، موسعة، وموجزة، قام بها علماء الإسلام على امتداد العصور، والقرون، جرت حولها، ودارت دراسات علمية جادة، وكاتب السلطة البائس المنكود يعلم أن من أفضل تفسيرات القرآن الكريم ما كتب فى العصر الحديث مثل: «الظلال» للشهيد سيد قطب، و«خواطر الشعراوى»، و«الوجيز» لشوقى ضيف، و«المنتخب» الصادر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية...

ترى هل يقتنع كتاب السلطة؛ ومثقفوها؟!

••••

١٠

يرى أنصــار الدعوة الـزائفة إلى «الفـقـه الجديد» من كُـتَّـاب السلطة ومثقفيها أن أول خطوة فى هذا الاتجـاه -أو الإجابة الأولى كما يسمونها- تكمن فى إبعاد الدين عن السياسة، أى العلمانية، والعلمانية فى مفهومهم شرط لقيـام الدولة الوطنية، حيث تكون الأمة مـصدر السلطات. . ولأن كتاب السلطة ومـثقفيها يوقنون أن الإسـلام لا يمكن أن يكون نظام حياة، وأن الإسلام فى مفهومهم غايات، وليس مجرد نصوص.

وهذا الخطوة الأولى أو الإجابة الأولى فى «الفقه الجديد» الذى يطالب به كتاب السلطة، ومثقفوها تعنى إبعاد الإسلام، وإقصاءه، ونفيه من حياة المسلمين، حتى لو كانت الدعوة محصورة فى إبعاد الإسلام عن السياسة. فالسيـاسة فى المفهوم الإسـلامى لا تنفصل عن حياة المجـتمع الإسلامى، لأنها لا تتعلق بمفـهوم الحكم، أو العلاقات الخارجيـة الدولية. إنها تعنى تحـقيق غـايات المجتـمع، وتوفيـر احـتيـاجاته، وعلى رأسـها الطعـام، والشراب، والأمن، وهذه مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالقيم الإسلامية من حيث الحلال والحرام، والبيع، والشراء، والربا، والجـهاد، وحفظ المقدسات. . فكيف يمكن إبعاد الإسـلام عن السياسة، والأمر كـما نرى محكوم برؤية الإسلام، ومفاهيمه؟

إذا قلنا مثلاً إن المسـجد الأقصى هو الحرم الثالث بالنسـبة للمسلمين، وأن الحفاظ عليـه من صلب العقيدة، والـدين. . فهل نبعد السـياسة عن الإسلام كى يتنازل عنه أحد الحكام لأعداء الإسلام، والمسلمين؟

وإذا قلنا مثلاً إن الدول الصليبية الاستعمارية الهمجية تريد السيطرة على بلاد المسلمين، والتحكم فى تفكيرهم، ومعتقداتهم عن طريق القروض الربوية التى تأكل الأخضر، واليابس، وتستنفد الدخل القومى للبلاد المقترضة بحكم تراكم الفوائد، وزيادة الديون، فهل يمكن أن نفصل تلك المسألة عن الإسلام؟ لا نستطيع طبعًا، لأن الإسلام يحرم الربا ويحرم فوائد القروض، والحق سبحانه يمحق الربا ويربى الصدقات، ويحرص على ألا يكون للكافرين على المؤمنين سبيلاً، ومن ثم، فتطبيق مبادئ الإسلام أمر لا مفر منه فى دولة إسلامية.

وإذا رأينا مثلاً دولة إسلامية تحرم الطلاق أو تحرِّم تعدد الزوجات أو تسوى فى الميراث بين الرجل، والمرأة، فهذا يخالف منهج القرآن، والسنة، ويحطم مبادئ ثابتة فى الدين الإسلامى، ويعد خروجًا صريحًا على صحيح الدين.. فهل نبعد الإسلام عن السياسة فى هذا المجال؟

القوم يطالبون بالعلمانية فى بلادنا العربية، والإسلامية، لأنها المنقذ من الضلال. وهى بمفهومهم الذى يريدونه تحت راية «الفقه الجديد» تعنى الانسلاخ عن الإسلام، وإقصائه، ونفيه، وأن نعيش كما يعيش الأوروبيون، فقد سبقونا إلى عزل الكنيسة عن شئون المجتمع، والدولة، وصارت مجرد قاعة لأداء الصلوات، وعقد قران الأزواج، وتأبين الموتى. وهذا غير صحيح بالطبع، لأن الغرب الصليبى مازال يخضع لرغبات الكنيسة والفاتيكان، وهناك صفقات تتم بين الطرفين الحكومات، والكنائس، لتنفيذ سياسات معينة على المستوى المحلى، والدولى، ويعلم الناس ما جرى لدول أوربة الشرقية (الشيوعية سابقًا) على يد الفاتيكان وحكومة ريجان فى الولايات

المتحدة، حيث تم تدعيم الحركات المناهضة للشيوعية (بدءًا من بولندا) حتى تم إسقاط الأنظمة الشيوعية وإعادة الدول الشرقية إلى حظيرة الكنيسة بعد مرور أكثر من نصف قرن على هيمنة الشيوعية، هناك.. وبالمناسبة فإن ملكة بريطانيا هى رئيس الكنيسة البروتستانتية!

ويبدو أن القوم تناسوا تجربة تركيا، التى طلقت الإسلام فى عهد «كمال أتاتورك»، وسارت على النهج العلمانى تمامًا، وحاصرت الإسلام فى المساجد، والكتاتيب، والجمعيات الخيرية، وغيَّرت اللغة العربية التى كان يتعامل بها الناس، وجعلت الأذان باللغة الجديدة (الطورانية)، وحرمت تدريس الإسلام فى المدارس الحكومية، فضلاً عن منع الحجاب فى الجامعات، والمدارس، والإدارات، والمؤسسات، والمجالس النيابية.. أين تركيا الآن من التقدم، والتحضر، والانطلاق، ومعايشة العصر؟

إنها دولة تنتج كثيرًا، ولكنها «مدينة إلى الركب» أى عليها ديون كثيرة تلتهم أكثر من ٨٠٪ من إنتاجها القومى، ولم ترض عنها أوربة ولا أمريكا، ومازالت تتسول الدخول إلى جنة الاتحاد الأوروبى، وسمعت من زعماء أوروبيين عديدين مؤثرين: أن الإتحاد الأوروبى ناد مسيحى لا مكان فيه لغير المسيحيين!!

ثم إن العلمانية لم تحقق مفهوم الدولة الوطنية فى تركيا، فقد برزت مشكلات طائفية، وعرقية خطيرة، مثل مشكلة الأكراد، ومشكلة العلويين (النصيريين)، وكان الإسلام يربط بين الجميع برباطه الإنسانى الذى حث عليه الوحى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا..﴾ [آل عمران: ١٠٣].

مفهوم الدولة الوطنية لا يزدهر إلا بالإسلام، لأن الإسلام هو الضمانة الوحيدة للعدالة، والمساواة، والإخاء. وما جرى فى تركيا، جرى فى البلاد العربية، والإسلامية التى حكمها العسكر، والانقلابيون الذين استبعدوا الإسلام من الوطن، والمجتمع، والحياة، حيث صرنا نسمع عن حروب وفتن وحوادث تجرى فى كثير من هذه البلاد بسبب الصراعات الطائفية، والعرقية والعنصرية..

إن الإسلام هو نظام الحياة الربانى الذى وضعه من يعرف طبيعة خلقه وأى النظم أصلح لهم، وأحق بالبقاء، وهو ليس مجرد نصوص ميتة، ولكنه وحىٌ، حىٌّ يُعْرَف قيمته الحقيقية من شرح الله صدره للإسلام. إن نصوص الإسلام لقيت حفاوة علمية كبيرة - ومازالت - ورأى العلماء من خلالها ما يسمى بمقاصد الشريعة، أى غاياتها وأهدافها، وهو أمر قديم، وليس بدعًا كما يتصور كتاب السلطة البائسون الذين تشوشت رؤيتهم بالدخان الأزرق، والفكر الماسونى الشرير.

••••

الفصل الثالث

تحرير الإسلام

١

هل نحن فى حاجة إلى تحرير الإسلام حقًا؟ وهل هناك ما يستوجب استعادته بزعم أنه متهم، وأسير، وسجين؟ إن أطرافًا عديدة تعتقد أن المشكلة ليست فى الإسلام بقدر ما هى فى أولئك الأصوليين المتطرفين الإرهابيين المتعصبين الذين لا يؤمنون إلا بلغة الدم، والعنف! ثم إن هذه الأطراف ترى أن الإسلام نفسه يجب أن يتحول إلى عنصر خارج الزمان، والمكان لا علاقة له بالناس، ولا بالمستقبل ومقطوعًا عن ماضيه وتاريخه وتراثه المضىء خاصة!

هذه الأطراف تملك القوة والهيمنة داخليًا، وخارجيًا، وتستطيع التأثير القوى، والفعال فى حركة الأحداث عن طريق وسائط عديدة مباشرة، وغير مباشرة... وتجعل القول بتحرير الإسلام أمرًا ضروريًا.

القوم يمارسون عمليًا استئصال الإسلام فى الحياة والمجتمع، وفى سبيل ذلك لا يتورعون عن قلب الحقائق، وتزييف الواقع لاستباحة الإسلام ومحاصرة المسلمين على أكثر من مستوى، ولم تكن التقليعة الجديدة بالحديث عن تجديد ما يسمى بالخطاب الدينى (يقصدون الإسلام وحده) إلا واحدة من تجليات الحصار والاستباحة تحت ذرائع مهادنة الغزو الصليبى الاستعمارى لعاصمة الخلافة الإسلامية فى بغداد، وإسقاطها وإذلال أهلها ومن يجاورونهم!

ومن المؤكد أن أطراف القوة، والهيمنة داخليًا، وخارجيًا تعلم جيدًا أن

الإسلام فى صورته الأصليـة النقية هو منبع السلام، والأمن، والبـهجة، وهم لا يحـبـون هذا المنبع الـذى يهـدد وجـودهم الإجـرامى، ويكشف منهجهم الشرير. فمنهج القوة أو وجود الغلبة لا يتناغم مع منبع السلام، والأمن والبهجة، لأنه يسعى دومًا إلى التسلط، والنهب، والغطرسة، ولا يتورع فى سبيـل تحقيق ذلك عن استخدام أحط الوسـائل، وأخسّها، بدءًا من الخـداع والنفاق، والمكر، والدهاء؛ حـتى الغزو، والسطو، والـغدر، والقـتل. والتـاريخ الطويل يشـهـد على مـا فـعله الأشـرار بالإسـلام، والمسلمين، ومـازالوا يفعـلونه ويمارسونه حـتى اليـوم، ويشيـر إلى أنهم مستمرون فى فعلهم وممارستهم غدًا، وإلى ما شاء الله..

إنهم حين يطرحون اليـوم تجديد ما يسـمى بالخطاب الدينى (الإسلامى وحده) يتناسون أنهم اعتقلوا الإسـلام وسجنوه طويلاً بعد أن قاموا بأسره فى العملية التى سموها «تجـفيف المنابع»، وهذه العملية يمكن أن نراها قد بدأت مع قدوم الهمجى المتوحش «نابليون بونابرت» لالتهام مصر، والشام فى حملته الشهيرة عام ١٧٩٨ مـيلادية، حيث تم - لأول مرة - استباحة الإسلام دينـًا، وتشريعـًا، وقانونًا، وثقـافة، وفكرًا، وتصـورًا، وتوالت المحن على الإسـلام والمسلمين بالاستبـداد السيـاسى لمحمد عـلى وأسرته والعسكر الذين حكموا بعدها، والاستعمار الإنجليزى والروسى والأمريكى واليهـودى، فانهـارت الحصون ودكت المعـاقل، وواصل الأشرار عـملية الاسـتبـاحة كـى لا يبقى أثر من آثار الإسـلام فى النفـوس أو الرءوس. وكانت النخبـة التى صنعها الأشرار على أعينهم مـن خلال مناهج التعليم العلمانية التى تحتقر الإسلام، وأهله، ثم الثـقافة الغربية فى أسوأ تجلياتها

العنصرية، والتعصبية؛ الذراع اليمنى التى ضربت الإسلام فى مقتل، وأسهمت فى تأسيس أمّية دينية تجاوزت نسبة السبعين فى المائة فى أفضل البلاد الإسلامية وعيًا بأوليات الإسلام!

ما بين حصار الإسلام والمسلمين، والأمّية الدينية المتفشية فى القاعدة العريضة من أبناء الأمة الإسلامية، صار تحرير الإسلام واجبًا وطنيًا وقوميًا ودينيًا لدى كل من يقول «لا إله إلا الله، محمد رسول الله». ذلك أن تخليص الإسلام من الحصار، وجعله حقًا مشاعًا للبشرية تتعرف عليه، وتعبد الله من خلاله دون قيود أو سدود، وبغير تشويه أو تزييف، أمر واجب، وتكليف ملزم لكل من يستطيع الإسهام فى عملية التحرير، ودعمها والنهوض بها. قال تعالى: ﴿ **قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي..** ﴾ [يوسف: ١٠٨].

إن دعوى إبعاد الإسلام عن الحياة باطلة، لأنها تعنى وضعه فى سجن محكم لا يخرج منه، لتخلو الساحة لأعداء الإنسانية كى يسرحوا، ويمرحوا ويمارسوا استعباد البشر، ونهب ممتلكاتهم، وسيادة العنصرية البغيضة، والهيمنة الظالمة، والاستبداد الفاجر.. ولم تكن الحروب الصليبية الاستعمارية إلا ذروة التعبير عن الرغبة الملعونة فى تقييد الإسلام تمهيدًا للقضاء عليه وإذلال أهله، ونهب خيراته.. وما تفعله الولايات المتحدة، والعالم الصليبى اليوم بالمسلمين فى مشارق الأرض، ومغاربها هو تكرار لصليبية الأمس، مع الفارق الذى يفرضه الزمان، وتطور آلات الخداع، والقتال، ومستوى المسلمين العلمى، والثقافى، والعسكرى، والاقتصادى.

وإذا كانت الطاقة الإسـلامية فى زمن الحروب الصليبيـة الأولى، أكثر فاعليـة منها فى زمننا بسـبب الاختراق الصليـبى الاستعـمارى لثقـافتنا، ووجود نخبة موالية للغرب فى بلادنا، فإن عملية تحرير الإسلام الآن أكثر وجوبًا وأهمية، ذلك أن الرغبة الصليبية الاستعمارية لم تعد محصورة فى مجرد الهـيمنة، والسيطرة على بلاد المسلمين، وإنما تجـاوزت إلى ما يمكن تسمـيتـه بالمحو، والإحلال على الـنسق الذى صنعه الأمريـكيون الأوائل (رعـاة البـقـر) مع الهنود الحـمـر، ولم يـكن الكيـان النازى اليـهـودى الاستعمارى فى فلسطين إلا طليعة الرغبة الاستعمارية بالمحو، والإحلال، فرأينـا معظم الشـعب الفلسطينى يُمحى من أرضـه، ليحل مكانـه شعب آخر، أو شعوب أخرى، وفى الوقت نفسـه يتم الإعداد لتنفيذ التجربة فى أماكن أخرى على الأرض الإسلاميـة من خلال المراحل المتدرّجة التى تبدأ فى إزاحـة الإسـلام من النفوس، والـرءوس بالاحتـلال العـسكرى، أو الثقافى، ليحلّ فكر آخر وثقافة أخرى، وينشأ شعب آخر، وأمة أخرى. . وقد استطاع الصليـبيـون الاستعماريون فى روسيا تنفـيذ ذلك مع الشعوب الإسلامية فى وسط آسيـا على عهد القيصرية والشيوعـية معًا، لولا عناية الله، وسقوط الإمبراطورية الروسية، ويمكن أن نرى شيئًا من ذلك بالنسبة لمسلمى الصين.

●●●●

٢

يظل الإسلام متهمًا، وسجينًا لدى قوى الشر الداخلية، والخارجية، ولو مشى المسلمـون بجانب الحائط، وسلموا ما فى أيـديهم للأشرار، وأخذوا على أنفسـهم عهـدًا أن يظلوا «أولادًا طيبين» يسـمعـون الكلام، وينفذون الأوامر، وينامون مبكرًا بعد أن يشـربوا لبن المساء! والمسألة فى النهاية قرار صليبى استـعمارى يشارك فيه اليـهود القتلة، وخدامهم من النخـبة الخائنة التى نقلت ولاءها للغـرب، واستـقوت به على أهلهـا وشعوبـها، وآثرت مصالحه ومصالحها على مصالح قـومها، ومستقبلهم.. ولم يكن غريبًا أو عجيبًا أن يسبق القرآن الكريم قبـل أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان إلى بيان العلاقة بين المـسلمين، وهؤلاء الأشرار، فيكشف عن طبيعـتها ويبين أبعادها فى إطار زمنى مستمر وقادم. قال تعالى: ﴿**وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ**﴾ [البقرة: ١٢٠].

أوضح الحق سبحـانه وتعالى فى سابق علمه أن العـلاقة بين المسلمين وهؤلاء لن تكون علاقة سوية، ولا طبيعية؛ لأن انحرافهم عن دينهم وتخليهم عن روحه، وإيمانهم بالشكل دون الجوهر، وتغليبهم الدنيا على الآخرة، سيجعلهم فى وضع الرافض للعلاقة السـوية الطبيعية، ولن تكون العلاقة كذلك إلا إذا اتبعهم المسلمون، وسـاروا على نهجهم، وآمنوا بملتهم التى يشوبها الانحراف، والشذوذ، والظلم، والاستعباد، والاستبداد!

وإنى لأعجب لبعض المسلمين حيـن يأملون، أو يحلمون بعلاقة سوية طبيعية مع الغرب الصليبى، وصنيعـته الصهيونية بعد أن أثبت لهم الواقع العملى على مدى القرون البعيدة، والقرون القريبة، والأيام الراهنة؛ أنهم يرفضون الإسـلام والمسلمين جملة وتفصيـلاً، وتجلى ذلك الرفض عمليًا فى تدمـير وحـدة المسلمـين وتمزيق بنيـانهم الفكرى، والثـقـافى، ونهب ثرواتهم المعدنيـة والاقتصادية، والهيـمنة على ديارهم سياسيًـا وعسكريًا، واحتلال بعض بلدانهم احـتلالاً عسكريًا مباشرًا، أو إخلاء بعـضها الآخر من سكانه وإحلال غرباء مكانهم.

لقد اسـتطاع الصليبـيون واليـهود أن يشوهوا الإسـلام، ولم يملوا أو يتعبوا من دعـوة المسلمين إلى خلعه، وإقصائه، ومحـوه، واستعانوا على ذلك بوسـائل عديدة منهـا: الإعلام - السـياسـة - الاقتصـاد - الكوادر الثقـافية - العـملاء الصرحـاء، والمستترين. . . وتمـكنوا فى بعض البلاد الإسلامية إلى تنحيـة الشريعة الإسلامية بقوانين رسمـية أصدرها حكامها ومشرعوها. . لدرجـة أن بلدًا عربيًا إسلاميًا حـرَّم تعدد الزوجات، وحرَّم الطلاق، وحـرَّم الحـجـاب فى المدارس، والجـامـعـات، والمؤسـسـات، والإدارات، وحرَّم اعتماد الأحزاب السيـاسية (الورقية) على الإسلام، أو الانطلاق من تصـــوراته، وحـرم تولى الوظائف العـامـــة، والعـمل فى الجامـعات، والقضاء، والنيـابة العامة، ودخول النوادى، والاشـتراك فى النقابات المـهنية، والعمـالية على الأشـخاص الذين يشك أن لهم مـيولاً إسلامية.

وكان النموذج التركى من أسبق النماذج، وأبشعها فى العالم الإسلامى، حيث أعلنت الدولة التركية فى ظل حكم «مصطفى كمال» إنهاء علاقتها بالإسلام: خلافة، وتشريعًا، وسياسة، واقتصادًا، وثقافة، ولغة (إلغاء اللغة العربية) مع تحريم التعليم الإسلامى فى المدارس، والجامعات الحكومية ، واعتماد المدنية الغربية، وثقافتها ولغتها وقوانينها، ونظمها بديلاً تقوم عليه تركيا الحديثة!

لقد مر أكثر من سبعين عامًا على التجربة التركية ، ولكن الشعب التركى لم يتوقف فى يوم ما عن محاولاته لتحرير الإسلام هناك، مع كل العنف، والجبروت، والقسوة التى بذلت لوقف هذه المحاولات. لقد كانت المشانق تعلق فى ميادين البلاد التركية - كالأراجيح - لإعدام علماء الإسلام والقابضين عليه، ولكنها ما أفلحت فى القضاء على محاولات التحرير التى حققت فى العقدين الأخيرين نتائج لا يُستَهان بها على مستوى الحياة العامة سياسيًا، واجتماعيًا، وثقافيًا.

فى داخل البلاد العربية، والإسلامية كانت النخبة الفاسدة من مثقفى التغريب على تعدد تياراتهم، واتجاهاتهم بدءًا من نفايات اليسار الشيوعى حتى اليسار المتأمرك مرورًا بالعلمانيين، وأشباه الليبراليين، يواصلون حملتهم ضد الإسلام، ومحاكمته بسلوك بعض المسلمين المعاصرين، وبعض حوادث التاريخ الذى يتقممونها من سلاَّت المهملات التاريخية، وعن طريقها يزيفون تاريخ الإسلام ويقدمونه للناس دمًا، وخلافات وتشوهات، وتخلفًا بشعًا غير مسبوق فى التاريخ. . ثم ينحرفون بالقضايا

المتعلقة بثوابت الإسلام - أنكر بعضهم أن تكون هنالك ثوابت فى الإسلام! - إلى قضايا فرعية هامشية لا تمثل جوهر الإسلام، ولا حقيقته، مع توجيه تهم غريبة إلى المسلمين منها: امتلاك الحقيقة المطلقة، وافتقاد التفكير العقلانى، والتحالف مع الاستبداد، وتكفير المخالفين، والتعصب، وإغلاق باب الاجتهاد ، ورفض التجديد... وغيرها، وفى الوقت ذاته يطرحون بديلاً علمانيًا غربيًا يؤسس للتبعية الكاملة للاستعمار الصليبى الصهيونى يتضمن تغيير مناهج التعليم العام، وما يسمى التعليم الدينى، والإعلام، والثقافة، والشباب..

لقد نتج عن اتهام الإسلام، وأسره، وسجنه كثير من الآلام، والأحزان والمضاعفات ، وكانت الأمية الدينية التى سبقت الإشارة إليها عنصراً خطيراً من عناصر تخلف العالم الإسلامى، وتمكن الأشرار وخدامهم من السيطرة عليه، واللعب به وفقًا لمصالحهم، وأمزجتهم.. ويكفى أن يكون معظم المسلمين اليوم فى أسوأ حالات العبودية، ولا يملكون شيئًا فى تقرير مصائرهم أو مصائر أوطانهم، وأن يكون الاستبداد هو سيد الساحة الإسلامية بلا منازع، لدرجة أن التعبير عن الغضب، والألم بسبب ما يجرى فى بلاد الإسلام من مذابح، وانتهاكات أمر صعب بالنسبة للشعوب الإسلامية!

إن الجهل بالإسلام جعل كثيراً من المسلمين طيبى النوايا - وخاصة فى النخبة المثقفة - يظنون أن الإسلام ضد العلم، فضلاً عن الحرية، والعدل والشورى، والتسامح، والتفاهم، والتفاعل، والحوار. وهذا الظن بالغ

الخطورة إذا عرفنا أن النخبة أو بعضها ترى فى الإسلام هذا الرأى ، فما بالك بعامة المسلمين وجمهرتهم؟

ولا شك أن المفاهيم المغلوطة عن الإسلام ثمرة لإقصائه عن التعليم والثقافة، والإعلام، والوعى العام. ولا أظن أن الحديث عن مقررات أو مناهج، أو برامج إسلامية فى هذه الحالات وغيره، أو حتى نصوص رسمية فى الدساتير التى تتبناها الدول الإسلامية شكليًا، يمكن أن ينفى حقيقة الأمية الدينية الإسلامية، وما يترتب عليها من نتائج خطيرة؟

إن الأمية الدينية الإسلامية تفرض النهوض بحركة واعية من أجل تحرير الإسلام!

●●●●

٣

فى جـريدة «الأهرام» الصـادرة يوم ٢٨/٩/٢٠٠٣، كـتب الأسـتـاذ «رجاء النقـاش» مقالاً بعنوان «مـا رأيكم فى هذا الرأى؟»، ويعرض فـيه مقـالاً قرأه فى مـجلة الرسالة القـديمة التى كان يـصدرها الأديب الكبـير الراحل «أحـمد حـسن الزيات». نُشر المقـال فى العدد ٨٠٩ الصـادر فى ٣/١/١٩٤٩ بعنوان: «العلوم الدينية بين الـقرآن وعلماء الإسلام» وكـتبه الأستاذ عطية الشيخ المفتش بوزارة المعارف آنئذ، ويقول فى مقاله: «علوم الإسلام هى الصناعة، والزراعة، والطب، والهندسة، وما يتصل بها. أما علوم الكلام، والفـقه، والأصول، ومـا جاراها فليـست من الإسلام فى شىء» ويختم المقـال بقوله: «وقد بَلَّغْتُ وما أنا إلا حـريص على نهوض المسلمين. والسلام على من اتبع الهدى».

وقد صادف المقال هوى فى نفس الأسـتاذ رجاء النقاش فلعل هذه أول مرة يصـادف مقالاً يكشف عن اهتـمام الإسلام بعلوم الدنيـا، لأن القرآن الكريم يحض على تعلمها، والتعمـق فيها. ثم يرتب على ذلك استنكاره لتصرفات بعض المسلمين مثل الزوج الذى منع زوجتـه من إكمال تعليمها فى كلية الـهندسة، وهى الطالبة المتـفوقـة، وحرّم على أبنائه التليـفزيون والفيديو وما شابه!

لا ريب أن مجلة «الرسالة» كانت تمثل جامعـة إسلامية عظيمة؛ أدارها باقتـدار أديب مسلم واعٍ، هو الأسـتاذ الزيات فـصنع منها حركـة ثقافـية

مثمرة، أخفقت وزارة الثقافة المصرية بهيلها وهليمانها، وإمكاناتها المادية الهائلة، فى إصدار مجلة ناجحة مثلها، ولعل نشر «الرسالة» لهذا المقال يكشف فى حد ذاته عن سماحة الإسلام الفكرية، وتحملها للرأى الآخر حتى لو بدا متجاوزًا ومخالفًا، وهو ما يعطى درسًا بليغًا لمثقفى الحكومات من أهل الهوى الذين انحدر بهم التعصب، ومخاصمة الإسلام إلى الدرجة التى يرفضون فيها نشر قصيدة فى مجلة تملكها الدولة، لأن الشاعرة صاحبة القصيدة ترتدى الحجاب!

ما نظر الزيات «صاحب الرسالة» يومًا إلى الزى الذى يرتديه الكاتب أو الشاعرة، لينشر له أو لها مع أن المجلة ملكه الخاص، ويصرف عليها من جيبه، ولكنه كان ينظر إلى الفكرة، وأصالتها، وإخلاص كاتبها، لذا نشر مقالة الأستاذ عطية الشيخ، المفتش بوزارة المعارف المصرية، ولم يصادرها مع أنها رأى جرىء، كما عده الأستاذ النقاش.

ويجب - للإنصاف - أن أشير إلى تأسى الأستاذ النقاش بخطى الأستاذ الزيات - إلى حد ما - عندما أُسند إليه تحرير مجلتى «الهلال» و«الدوحة»، فقد كان يحاول اختراق «التابو» الذى فرضه اليساريون وأشباههم على الفكر الإسلامى، والكتاب الذين ينطلقون من تصور إسلامى، فاستكتب بعضهم، وجعل للفكر الإسلامى مساحة ما على صفحات المجلتين فى عهده، ولا يضيره أن يكون ذلك بدافع حرفى أو مهنى كما يتصور البعض. المهم أنه حاول اختراق «التابو» و«صكوك الحرمان» التى يفرضها محررو المجلات، والصحف الثقافية الحكومية والعلمانية، ونظراؤهم فى بعض الصفحات الأدبية!

أعود إلى الرأى الجرىء الذى طرحه الأستاذ عطية الشيخ المفتش بوزارة المعارف على صفحات مجلة «الرسالة»، فأقول إنه ليس بمستغرب على مثل هذا المفتش أن يطرح قضية نهضة المسلمين بهذه الصورة فحلم النهضة مركوز على سن الأقلام المخلصة أيًا كان تعبيرها، أو تصورها. وفى ظنى أن صاحب المقال ما كان يعنى بدعوته إلغاء علم الكلام، أو الفقه، أو علم الأصول أو ما يطلق عليه علوم الشريعة، فهذه العلوم رسخت، ولها علماؤها الذين يرجع إليهم على امتداد العصور الإسلامية، والكتب والمخطوطات التى تمتلكها الأمة تقدّم زادًا وافرًا من التراث فى هذا السياق، كما أن معاهد العلم التى تعنى بدراسة الدين، وعلومه قائمة، وفيها علماؤها وطلابها. . وكأن الأمر فى تصور الرجل لا يحتاج إلى مزيد، وعليه فإن مطالبته بالطب، والهندسة، والعلوم الطبيعية، والزراعة، والصناعة تظل مسألة ملحة، ليس فى زمن الرسالة ، بل فى زمننا الذى صرنا فيه نمد اليد ونطأطئ الرأس من أجل رغيف الخبز المسموم الذى يأتينا من الدول الصليبية الاستعمارية الشريرة.

واقع الحال أن الإسلام ليس سبب تأخرنا أو تخلفنا، ولكن السبب فى مكان آخر، والمساءلة يجب أن تتم بالنسبة لظروف وعناصر أخرى جعلت «العوالم» أفضل حظًا من «العلماء»، وصيرت «الغوازى» أحسن مكانة من «الغزاة»!

كنت أتمنى من الأستاذ «رجاء النقاش» أن يأخذ المسألة من زاوية أكثر قربًا، فيبحث عن الأسباب الحقيقية التى تجعل العلم فى بلادنا، وراء

اهتمام من يعنيهم الأمر، ويدفع بأولادنا المتفوقين فى العلوم المختلفة من علوم الدنيا إلى الهجرة، أو الجلوس على قهوة النشاط، أو الموت كمداً وانتحاراً كما جرى للولد المتفوق الذى ألقى بنفسه فى النيل بعد أن رفضوه فى الوزارة السيادية لأنه «غير لائق اجتماعياً»!

الإسلام يحض على المعرفة والانفتاح والقوة، ولكنه - كما يعلم الأستاذ رجاء النقاش - متهم وأسير وسجين، ويحتاج إلى عملية تحرير واسعة، داخلياً وخارجياً، وكنت أتمنى أن يشارك «رجاء» بقلمه فى هذه العملية، فلديه المساحة الواسعة التى يطل من خلالها على الناس، ويستطيع بخبرته أن يدعو إلى تحرير الإسلام بذكاء لا يتوفر كثيراً لغيره، خاصة أنه ليس فى حاجة إلى مناصب صحفية أو سياسية!

أما أن يأخذ نموذج الشخص الذى أرغم زوجه على عدم إكمال تعليمها الهندسى، وحرَّم عليهم التلفزة وغيرها، بوصفه دليل إدانة على الفهم الإسلامى المعاصر، فهذا ما لم نتوقعه من كاتب فى مثل حجم «رجاء النقاش». لأنى لا أستطيع إرجاع موقفه إلى ما سميته بالأمية الدينية الإسلامية، ولا أظن أنه يجهل الواقع الاجتماعى الذى يدفع الناس دفعًا إلى الجانب الآخر. . ثم إن هذه النماذج على فرض وجودها لا تمثل تياراً زاحفًا يملأ حياتنا. إنها الاستثناء النادر الذى يمثل رد فعل لتيار الانحلال المتطرف والسفيه الذى تجاوز كل الحدود، وخاصة فى شرائح المجتمع الجديدة التى صعدت الهرم الاجتماعى دون جهد، ودون أخلاق أيضًا.

أما المسلمـون الأسوياء وهم الكثرة الكـاثرة فما زالوا يتـحملون العناء الذى فرضه خصوم الإسلام، ويـتعاملون مع التلفزيون والإنترنت بوعى، ويعلمون أبناءهم أدق التخصصات، ولعل بنات الشيخ القرضاوى، الداعية المعروف، خير مـثال على تفتح الإسلام.. فهن متخـصصات فى أحدث فـروع العلم التطـبيـقـى، وحصـلن على أعلى الشـهـادات بعـد درجـة البكالوريوس، وهن أمهات، عالمات مسلمات متفوقات أيضًا... تُرى ما رأى الأستاذ رجاء النقاش؟ وهل يشارك فى الدعوة إلى تحرير الإسلام؟

••••

٤

هناك اتفاق ضمني في المدرسة العلمانية العربية على أن الإسلام تعرض لكوارث كبرى، أي أن العلمانيين أو الدنيويين بمن فيهم كُتّاب السلطة ومثقفوها، يوقنون أن الإسلام يحتاج إلى تحرير، وإلى استقلال كامل، ولكنهم - للأسف الشديد - يرجعون أسباب هذه الكوارث التي تعرّض لها الإسلام إلى ما يسمى بالخطاب الديني الأصولي المتطرِّف الذي اقترن بالإرهاب المحلي، والدولي. وهذه مغالطة كبرى!

لأن الإسلام تعرض للأسْر وللكوارث الكبرى، قبل أن يظهر الإرهاب أو التطرف. فقد قام الاستعمار الصليبي، ثم الاستعمار اليهودي من بعده بالعمل المباشر، وغير المباشر، لتمزيق العالم الإسلامي، وحرمانه من ممارسة حقه في الإيمان بعقيدته الإسلامية، وعن طريق النخبة العلمانية استطاع المستعمر أن يعزل الإسلام في معزل ضيق لا يتجاوز جدران المساجد، وتشويه صورته في أذهان الطلاب المسلمين من خلال التعليم بوصفه قرينًا للتخلف والجهل والجمود، وقامت النخبة التي صنعها الصليبيون المستعمرون على أعينهم بإطلاق النعرات القومية والطائفية والعرقية بديلاً عن الإسلام وقيمه، ومفاهيمه. وفضلاً عن ذلك كانت مساندة الاستبداد السياسي، ودعمه صليبيًا سببًا مباشرًا في قمع الشعوب الإسلامية، وسيادة الأحكام العرفية المطلقة التي لا تعترف بحق الإنسان المسلم في الحرية، والكرامة، والتعبير عن العقيدة، والرأي، وجرت

انتهـاكات عريضة وكـبيرة لحقـوق المسلمين بأيدى النخب الحاكمـة مؤيدة بالنخب المثقـفة التى تماهت مع الفكر الاسـتعمارى الصليبى وذابت فـيه، فكانت خادمة له بطريقة مباشرة أو غير مباشرة وأمعنت فى تحريم الإسلام على المسلمين، حـتى أبسط حـقوق الإنســان فى ارتداء الزى الذى يستـر جسـده حُـرم منه الإنسان المـسلم ووجب عليه، بفـعل اسـتبـداد السلطة والنخبـة ،أن يقلّد الغرب الاسـتعـمارى الصليـبى فى الملابس والسلوك، والعادات، والتقاليد، دون الحرية ،والكرامة، والديمقراطية، والمساواة..

فى الفترة الماضـية طُرحت ومازالت؛ قضية الحجـاب فى كل من تركيا وفرنســا، وتدخّلت المسـتويات العليـا فى البلدين للوقوف ضـد المسلمين وحق نسائهم فى ارتداء الحجاب..

فى تركيا رفض الرئيس التـركى «أحمد قيصـر» أن يدعو نساء الوزراء والنّواب المحجبات لحضور حفل بمناسبة مـرور ثمانين عامًا على قيام تركيا العلمانية، ورأى الرئـيس التركى أن الحجاب ضد القـانون (!!) ويغيّر من طبيعة تركيا العلمانية، وعليـه فقد رفضت أغلبية النواب من حزب العدالة والتنمية (الإسلامى) الحـاكم حضور الحفل، واضطر رئيس الوزراء «رجب الطيب رضوان» وأركان وزراته إلى حضور الحفل بدون زوجاتهم، وجلس رئيس الجمهـورية وإلى جانبه رئيس الوزراء دون أن يتبـادل الرجلان كلمة طوال الحفل، بل إن كلاً منهما كان يتجنب النظر إلى الآخر. وبالطبع فإن المؤسسة العسكرية التركية المهيمنة أيدت رئيس الجمهورية فى موقفه!

وفى فرنسا، فإن رئيس الوزراء الفرنـسى تحدث عن مشروع يتم تقديمه

إلى الجمعية الوطنية الفرنسية، يتم بمقتضاه تحريم الحجاب على المسلمات، حفاظًا على مظهر الدولة «العلماني» الذى يعدّ «الحـجاب» رمزًا سياسيًا أو تعبيـرًا عن اتجاه سياسى. وقيل إن الرئيس الفـرنسى «جاك شيراك» تدخل لمنع إصدار قانون الحجـاب نظرًا لمواءامات سياسية! ومـازال الموضوع يثير جدلاً كبيرًا فى الأوساط السياسيـة، والثقافية بوصف الحجاب أمرًا خطيرًا يجب التصدى له والقضاء عليه! وإن كـانت الأنباء تشير إلى أن «شيراك» فى حقيقة الأمر يؤيد القانون المقترح لمنع الحجاب!(*)

وإذا كانت العلمانية لا تتدخل فيما هو دينى، أو عقدى، وتسمح بتعدد الأديان، والمعتـقدات، فإن الموقف من الحـجاب يؤكد أن الذين يحـرّمونه ويرفضونه، ليسوا عـلمانيين بل متعصبين دينيًا أو متـعصبين ضد الإسلام، فـمن المعروف أن تغطيـة الرأس لدى المرأة مـسألة غـير مـرتبطة بالأديان عمومًـا، وهناك شعوب وقبـائل ليست إسلامية تغطـى نساؤها رءوسهن. فغطاء الرأس ليس مسألة سياسية، وليس تعبيرًا عن موقف سياسى. ثم إن هناك آلاف الراهبات على امتداد أوروبا وأمريكا، وينتشرن فى أنحاء العالم دون أن يتهـمهن أحد بأن حـجابهن يمثل رمـزًا سياسـيًا، وهناك آلاف بل ملايين من النســاء الأوروبيات والأمريكيـات، وغيرهن يعـلقن «الصلبان» على صدورهن، ويجعلنه نوعًـا من الحلى، والزينة فى الأيدى أو المعاصم أو الآذان أو الملابس أو الحوائط أو الكتب، أو المكاتب دون أن يحـتج أحد على ذلك ويصفه بأنه تعبير سياسى أو تعبير تعصُّبى، حتى لو كان أصحابه بعيدين تمامًا عن روح المسيح -عليه السلام- وتسامحه ومحبته!

(*) صدر القرار بالفعل وبدأ تطبيقه فى بداية العام الدراسى الجديد ٢٠٠٤ - ٢٠٠٥م.

إن رفض الحجـاب بالنسبة للمسلمات هو رفض للإسـلام، وتعصّب ضده، ورمـز لما تختزنه الصـدور المعادية للإسـلام من حقد دفين ورغـبة شريرة فى القضاء عليه، ولو بذريعة أن الحجاب رمز سياسى.

وإذا كان أمـر الحجاب فى تركيـا وفرنسا يخـضع للمداولات، ويطرح بصورة صريحـة ومكشوفة، فإن الأمر بالنسبـة للنخبة الحاكمة والمثـقفة فى البلاد العربية والإسلامية يأتى فى صورة أشـدّ غضاضة وأكثر نفاقًا، حيث حوّلوا المسألة إلى مـوضوع استراتيجـى تفوق أهميته أهمـية تحرير الأرض المقدسة وتحرير الإنسان العـربى المسلم، ثم وهو الأخطر أنهم لبسوا عمائم الفتوى وأصدروا فتاواهم بأن الحجاب لم يرد فى القرآن الكريم، ولا السنة النبوية المطهرة. وراحوا يفسرون عودة النساء المسلمات إلى الحجاب بأسباب اقتصادية أو صحراوية (نسبـة إلى الصحراء حيث يسود مذهب الحنابلة فى الجزيرة العربية أو بسبب عادات أهلها وتقاليدهم فى تحبيذ الحجاب)!.

والشـاهد فى الأمر أن القـوم فى تحديهم للإسـلام، لا يتركـون ظاهرة صغـيرة أو كبيـرة تنتسب إليه إلا وعـدّوها تطرفًـا، وإرهابًا، دون أن تقوم المسلمات، أو المـسلمون بأىّ إرهاب، أو أى تطرّف. هل يسـتطيع أحد أن يخبرنا أن ألوف المحـجبات المسلمات فى أوروبا وأمريكا وتركيـا قد مارسن إرهابًا أو تطرفًـا ضـد أحد؟ لا شك أن واحـدة منهن لم ينسـب إليهـا أى سلوك إجـرامى ضد مواطنـيها أو الدولة الـتى تعيش فـيها. فلمـاذا نزلت الكوارث بالمحجبات ومن ينتمين إليهن، مع أن غطاء الرأس لا يؤذى أحدًا؟

••••

٥

إن إرجاع الكوارث التى حلت بالإسلام والمسلمين إلى ما يسمّى الخطاب الدينى الأصولى المتطرف، المقترن بالإرهاب محليًا وعالميًا، يخالف المنهج العلمى فى البحث، فالحروب الصليبية ضد المسلمين قديمًا، والحروب الاستعمارية حديثًا لم تكن من صناعة الخطاب الدينى الأصولى المتطرّف، بل إن هذا الخطاب إذا كان له وجود فعلى فهو صناعة صليبية استعمارية معاصرة. هل يمكن أن يقول أحد إن نابليون غزا مصر والشام بسبب هذا الخطاب؟ ثم إن غزو فرنسا للجزائر، وسوريا، ولبنان، والمغرب، وتونس، والصومال (چيبوتى) لم يكن أبدًا بسبب هذا الخطاب الذى تحوّل إلى شمّاعة تفسّر الإجرام الصليبى الاستعمارى، وخادمه النازى الصهيونى فى فلسطين.

والذين يتعلّلون بما جرى فى الولايات المتحدة يوم الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، يمكن أن نقول لهم إن أحدًا حتى الآن لم يعرف من اقترف جريمة تفجير البرجين والبنتاجون. فلم تجر تحقيقات محايدة أو لم يسفر تحقيق محايد عن اتهام محدد. ولكن القيادة الصليبية الاستعمارية فى الولايات المتحدة أصدرت اتهامها، وحكمها بمجرد وقوع الحدث. وهى لم تعاقب بحكمها من اتهمتهم، ولكنها عاقبت الإسلام والمسلمين، فأمرت قواتها بتدمير أفغانستان، ثم العراق، ولا أحد يعلم الآن من الذى سيأتى عليه الدور فى التدمير بعدهما، ثم فرضت على بلاد المسلمين إلغاء

كتاتيب تحفيظ القرآن الكريم (مصدر الإرهاب فى زعمها!)، وتغيير مناهج التعليم، بما يلغى الإسلام عمليًا، وتحريم العمل الخيرى الذى يسعى لمساعدة الفقراء والمحتاجين (بوصفه يدعم الإرهاب ماديًا!) وتعديل لغة الإعلام الإسلامى بما يحذف منه الكلام عن الجهاد وتحرير الأوطان، مع عدّ المقاومة المشروعة لقوات الاحتلال الأجنبى (الصليبى واليهودى) عملاً إرهابيًا ضد الإنسانية، وهو ما جعل أجهزة الدعاية فى العالم العربى لا تجرؤ على تسمية العمليات الاستشهادية ضد الاحتلال النازى اليهودى لفلسطين باسم المقاومة، (بعضها سمّاها انتحارية والآخر سمّاها تفجيرات!)، وهو ما يؤكد أن النيّة فى القضاء على الإسلام، والمسلمين لدى النخب الصليبية الاستعمارية، قديمة قدم عدوانها وإجرامها، وهو ما يعنى أن الخطاب الإسلامى ليس سبب الكوارث التى حلّت بالإسلام والمسلمين، وأن السبب يكمن فى مكان آخر أو موضع آخر.

إن الذين يروّجون لمسألة تجديد الخطاب الإسلامى لا يتمتعون بالنزاهة فى موقفهم، لأنهم بدلاً من تفسير الأحداث المؤلمة التى أصابت الإسلام والمسلمين فى مقتل، تفسيرًا علميًا صحيحًا يلقون الأمر ببساطة على كاهل الإرهاب والتطرف.

إننا لا نوافق على العنف ضد الأبرياء أو ضد السلطة مهما طغت وبغت، ولا نوافق على العنف بسبب الثأر من الحكومة التى اعتقلت أو عذبت، لأن العنف لا يولّد إلا عنفًا، ومع هذا فإن كُتاب السلطة ومثقفيها لم يحاولوا يومًا أن يقولوا إن العنف المحلى صناعة حكومية، وأن السجون والمعتقلات وما جرى فيها من تعذيب يفوق طاقة البشر والحجر،

خاصّة فى العصر الثورى، كان من وراء العنف الذى تمثّل فى الاحتراب مع السلطة واغتيال بعض رموزها، أضف إلى ذلك أن الإصرار على إلغاء الإسلام من التعليم العام، وإضعافه فى التعليم الأزهرى (المتخصص)، قد جعل الجهل يقود إلى العنف وإلى الممارسات المرفوضة الخاطئة. كُتّاب السلطة ومثقفوها يرددون أسطوانة مشروخة حول الإظلام والرجعية والأصولية دون تحديد علمى، أو تدقيق منهجى، لأنهم يريدون إرضاء السلطة وحسب، ولو أنهم أخلصوا القصد والنوايا، لنصحوا السلطة والحكومة فى كل عهد، أن تفرج عن الإسلام، وتطلق سراحه، لأنه يقوّى الدولة ويسندها، ويشجعها على تحقيق الاستقلال، ومواجهة خصوم الأمة، ولكنهم للأسف تشبّعوا بالتصوّر الغربى الاستعمارى الذى يحتقر الإسلام والمسلمين جميعًا، فقلدوه، وراحوا يلاحقون الإسلام بالتشويه فى كل مناسبة وكل مكان!

لو أن كُتّاب السلطة، ومثقفيها تعاملوا مع الإسلام والمسلمين بروح الإنصاف والعدل، لكانت نظرتهم غير النظرة السائدة، ومن المؤكد أنهم كانوا سيرون جوانب أخرى من الصورة لا تراها السلطة أو الجهات المعنية، ولكانت معالجة الأمور ستكون أكثر نجاعة وتوازنًا وفعالية.

إن جوهر الإسلام السمح قائم وموجود فى كل عصر ومكان حين يُطلق «سراح الإسلام» ويتم تحريره من الكيد الداخلى والخارجى، واستعادة هذا الجوهر فى أيامنا وأوطاننا ممكن وسهل، شريطة أن نفهمه أولاً، ونكفّ عن تشويهه، ونوقف عملية استئصاله من التعليم والإعلام والثقافة.

إن فهم الإسـلام أول شرط من شروط عـودة جوهره السـمح، وفهم الإسلام يبدأ من حفظ القرآن الكريم والاهتمام بالكتاتيب التى تقوم على تحفيظه، وبدلاً من إغلاق هذه الكتاتيب يجب التوسع فى نشرها، ودعمها رسميًا وشعبيًا. أما أن يقف مسئول قضى معظم عمره فى التنظيم الطليعى وكتابة التقارير ضد زملائه وتلامـيذه، بل أقرب المقربين إليه، ويقول: إن الكتاتيب مـفارخ للإرهاب، ويجب إغلاقـها، فهذا تجـاوز غير مقـبول، وافتئـات على الإسلام والمسلمين، وخدمة مبـاشرة أو غير مبـاشرة للعدو الاستعمارى، الصليبى والصهيونى.

ثم إن مدارس التعليم العام يجب أن تستعيـد ما كان موجوداً فى عهد الاستـعمار المباشـر (العشرينيـات والثلاثينيات والأربعـينيات) من تدريس للدين الإسلامى والقـرآن الكريم فى إطار جاد، يضع مادة التربيـة الدينية (إسلاميـة وغير إسلامـية) فى المناهج التعليمـية مادة أساسـيّة تضاف إلى المجمـوع العام، بالإضافة إلى تعـديل نظام التعليم الأزهرى ليعـود نظامًا متخصـصًا مثلما كان قبل صدور قـانون ١٩٦١، على النحو الذى سيأتى تفصيله - إن شاء الله تعالى -.

إننا لا نتوقع إسلامًـا متسامحًا ممن حُرِم التـعرف على الإسلام، ورأى دينه يُطارد فى المدرسـة وصندوق الدنيا (المسـمى بالتليفـزيون) ومؤسـسة الثقافة الرسمية بمجالسها ومطبوعاتها ومؤتمراتها وندواتها.

●●●●

٦

يضع المثقفون العلمانيون، من مثقفى السلطة وكتابها، فرضيات خاطئة يرتبون عليها نتائج خاطئة، وأول هذه الفرضيات الخاطئة - كما رأينا - الانطلاق من الإرهاب (العنف الذى تم تضخيمه وتدويله) سببًا أساسيًا فى تشويه صورة الإسلام وإفقاده جوهره السمح، وهو كلام بعيد عن الصواب؛ لأن الذى شوه الإسلام وأضاع جوهره هو الاستبداد، والحكم العرفى المطلق، والقمع الذى لم يتوقف منذ جلاء الاستعمار الصليبى اسمًا، وبقائه مضمونًا لدى النخب الحاكمة، والنخب المثقفة المتضامنة معها!

ومن الفرضيات الخاطئة التى تؤدى إلى نتائج خاطئة قول العلمانيين من مثقفى السلطة: إن انكسار تيار التجديد بعد محمد عبده الذى حاول فتح باب الاجتهاد الذى تحاول الأصوليات المتطرفة خنقه من خلال التعصب.. يعد من موجبات تجديد الخطاب الدينى!

هذه الفرضية تحمل مغالطات عديدة:

أولها: أن باب الاجتهاد مغلق، وأن الذى حاول فتحه هو الإمام محمد عبده، وهذا غير صحيح؛ لأن باب الاجتهاد مفتوح دائمًا، ولا يستطيع أحد غلقه، وأن المسألة تتعلق بشروط الاجتهاد والبيئة المساعدة على ذلك.. فإذا كان هناك علماء ناضجون واقتضى الأمر أن يقوموا بواجبهم تصحيحًا لأخطاء، أو مواجهة لانحرافات، أو قياسًا على قديم للاستفادة بالجديد، فلن يستطيع أحد أن يقف فى طريقهم، لأنهم صوت العلم

والعقل، وقبل ذلك صوت الشرع، وهو ما فعله علماء الإسلام بعد عصر النبوة حتى يومنا هذا ولم يتوقفوا، عملاً بمعنى الحديث الشريف **«من اجتهد فأخطأ فله أجر، ومن اجتهد فأصاب فله أجران»**.

وثانى هذه المغالطات: أن محمد عبده هو الذى حاول فتح باب الاجتهاد وأعتقد أن تيار تجديد الإسلام مستمر من قبل محمد عبده، ومن بعده وفقًا للظروف المتاحة، كما نرى مع رفاعة الطهطاوى حين حاول أن يكتشف قيم الإسلام فى التعامل والسلوك، والحكم، والشورى، والاختراع من خلال رحلته الباريسية، وعلاقته بالمستشرقين، ومع ما يؤخذ عليه من تأثر ببعض هؤلاء المستشرقين فهو يعد أول كاتب للسيرة النبوية من خلال أسلوب منهجى، ولا يقدح فى رفاعة ما وُجه إليه من محاولة إرضاء محمد على وأبنائه ذوى الاتجاه العلمانى، فقد كان فى كل الأحوال موظفًا لديهم، وكان مثقف سلطة يحركه الإخلاص لا المطامع، وكان له الأجر فى حالتى الخطأ والصواب، ويقاس على رفاعة، دور الشيخ حسن العطار والسيد جمال الدين الأفغانى، وكتابات عبد الله فكرى، وعبد الله النديم قبل محمد عبده، وقد امتد تيار التجديد - عن علم - ممثلاً فى الشيخ عبد العزيز جاويش، ومحمد فريد وجدى، ومحب الدين الخطيب، ومدرسة «المنار» (محمد رشيد رضا) والشيخ حسن البنا، ومدرسة الإخوان المسلمين والجمعية الشرعية (أقامت أول مصنع مصرى للنسيج كان ملهمًا لطلعت حرب فيما بعد) والشيخ دراز والشيخ المراغى ومدرسة «الرسالة» (مجلة الزيات)، والسنهورى، والشيخ شلتوت والغزالى والشعراوى والقرضاوى وغيرهم كثير. تيار التجديد لم

يتوقف، ولن يتوقف، وبشّر به الرسول - صلى الله عليه وسلم - عندما أشار إلى أن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد أمر دينه.

ثالث هذه المغالطات ما يتعلق بمفهوم الأصولية، فمعناها فى الغرب الاستعمارى، يرتبط بالجمود، والتحجر، والتخلف، ولكن معناها فى الإسلام قرين التفتح، والتطور، ومراعاة مصالح العباد، وإسقاط المعنى الغربى على المفهوم الإسلامى فيه خلل منهجى خطير.

ورابع هذه المغالطات وصم الإسلام والمسلمين بالتعصب، والحقيقة أن المسلمين ليسوا متعصبين، الإسلام لا يحمل أيًا من صفات التعصب، ولا يحضّ عليها، ولو كان المسلمون متعصبين لدينهم ما حلّت بهم الكوارث، وما صاروا قصعة الأمم. الصحيح فى الأمر أن المسلمين فرطوا فى دينهم، وتساهلوا فى التمسك به والتوحد معه، مما أغرى المستعمرين، والمستبدين معًا بمطاردته والسعى لاستئصاله وإذلال أتباعه. والمستعمرون، والمستبدون من أشد المتعصبين ضد الإسلام والمسلمين معًا، ولو عرفوا التسامح حقا - كما يلح على ذلك مثقفو السلطة - لتركوا المجال للإسلام كى يؤتى ثماره، وللمسلمين كى يعرفوا دينهم ويفقهوه، ويتحركوا على طريق التقدم والرخاء والعزة والاستقلال. ولكن التعصب الصليبى المستعمر، والتعصب الاستبدادى الأحمق لم يتركا شيئا يحسب لهما من باب «التسامح».

مثقفو السلطة وكتّابها من الدنيويين، حريصون على وصم الإسلام والمسلمين بالتعصب الذى يؤدى إلى رفض الآخر وإيذائه، ومن ثم جلب الكوارث على الأمة. والحقيقة أن «الآخر» هذا- وهو الصليبى المستعمر وتابعه الصهيونى الغازى - هو الذى يرفضنا نحن المسلمين، ويرفض الإسلام، ولا يريد بنا خيراً فى كل الأحوال، وتاريخه مسجل فى صفحات

يصعب حصرها، وهى مملوءة بالعدوان، والمذابح، والنهب، والمكر، والخداع والفتنة والتحريض، وكلما رأى المسلمين يسعون لالتقاط أنفاسهم أو التقطوها بالفعل. . صنع لهم أزمة أو محنة أو مأساة مما يجعلهم يدورون فى محلك سر، لا يبرءون من المرض ولا يموتون، وبعد ذلك يأتى خدامه للتغطية على إجرامه لاتهام الإسلام والمسلمين بالتعصب ورفض الآخر!.

إن هذا الآخر يمعن فى خداع العالم كله بمن فيه المسلمون، من خلال الحديث عما يسمى بالشرعية الدولية والقانون الدولى، والأخلاق الإنسانية، ولكن الواقع يثبت عكس هذا تمامًا. وقد كشفت الحرب الصليبية الاستعمارية على العراق فى العشرين من مارس ٢٠٠٣م، طبيعة هذا الآخر المخادع الكذاب الذى جيّش الجيوش الفتاكة بأحدث ما وصلت إليه الترسانة العسكرية لديه، وقام بتدمير العراق تحت ذرائع واهية، لم يثبت حتى الآن أنها صحيحة. فقد ادعى أنه - أى العراق - يملك أسلحة نووية وكيماوية، وبعد عام من الاحتلال الصليبى لم تعثر القوات الغازية على أثر لهذه الأسلحة. وادعى أنه يحرّر العراق من الحكم الاستبدادى، ولكنه استبدل استبدادًا باستبداد، وها هو العراق يعيش أيامًا مظلمة مليئة بالدم والدموع، وحظر التجوال. وادعى أن «صدام حسين» - الطاغية السابق - يتحالف مع تنظيم القاعدة، ولكن هذا التنظيم لم يدخل العراق إلا تحت ظلال قوات الاحتلال الصليبية. خداع الآخر قائم ومستمر منذ زمان، وما فعله نابليون يوم احتل القاهرة قبل قرنين من الزمان، فعله جورج بوش الابن يوم احتل بغداد، ولكن مثقفى السلطة فى بلادنا العربية يصرون على تغيير التاريخ والإسلام.

●●●●

٧

من المؤكد أن تحرير الإسلام يقتضى رد الدعاوى الكاذبة أو الناقصة التى يرددها من يسمون أنفسهم بالمثقفين المستنيرين، ويعطون أنفسهم أدوارًا أكبر من قدراتهم العلمية والبحثية، ويقحمون ذواتهم فيما ليس لهم به علم. وسبق القول إنهم يطرحون مقدمات خاطئة تؤدى إلى نتائج خاطئة. ومن ذلك إصرارهم على القيام بدور ما فى تجديد ما يسمى بالخطاب الدينى: والمقصود بالخطاب الدينى هنا هو الخطاب الإسلامى وحده، لأنهم لا يجرؤون على الاقتراب من الخطاب النصرانى أو الخطاب اليهودى، وإلا كانت العواقب بالنسبة لهم وخيمة!

إنهم يطرحون سؤالاً يقول: من الذى ينهض بمهمة تجديد الخطاب الدينى: المثقفون أم الأفراد؟ أم المؤسسات، والمعاهد الدينية؟ أم الاثنان معًا؟

وهم يقولون إجابة على ذلك: إن المثقفين المستنيرين يشعرون بأنه لابد من تجديد الخطاب الثقافى العام، من خلال تجديد أربعة خطابات هى:

١- الخطاب الدينى (يقصدون الإسلامى!).

٢- الخطاب السياسى.

٣- الخطاب الاجتماعى.

٤- الخطاب المعرفى.

ويرون تأسيسًا على ما سبق أن ما يسمى بالمؤسسة الدينية قد قصرت

فى تجـديد الخطاب الدينى وأنهـا تركت المجـال لما يسـمى مـجمـوعـات «التأسلم» السياسى الموازية لسلطة الدولة، والمعادية للدولة المدنية. وينتهون إلى أنه لا مبرر حقيقيًا للحجر(!) الذى يفرضه بعض المتعصبين من رجال الدين على المثقفين (المدنيين!) فى مجال تجديد الخطاب الدينى.

وهذا الكلام البرّاق الخادع يحمل كثيرًا من المغالطات يستشعرها القارئ الواعى الذى اطَّلع على حقائق الإسلام وعرف أباطيل خصومه..

والرد على هذا الكلام البـرّاق الخادع يـبدأ بتـحديد من هم المثـقفـون المستنيرون. وكمـا هو معلوم فإن الاستنارة بالمفهوم الغـربى تعنى الاعتماد على العلم والتجـربة والعقل، وعدم الاعتراف بما وراء الطبـيعة.. أى أن الاستنارة أو التنوير بالمفهوم الأوروبى يـعنى القطيعة مع الوحى ورسالات السماء، وهؤلاء المثقفون المستنيرون يرددون دائمًا مصطلحات العقل والعلم والتجربة، دون أن يقرروا ما إذا كانوا يعـتمدون الوحى أو ما وراء الطبيعة مدخلاً للاستنارة والمعرفة أم لا؟

وأغلب ما يقـدمه هؤلاء المثـقفون هو ضـد الوحى، وضد رب السـماء والأرض، وهم فى حيـاتهم اليومية والاجـتماعـية لا يمارسون العـبادات: الصلاة، والصوم، والحج، ولا يؤدون الزكاة، ولا يبشرون بقيم الإسلام من قريب أو بعيد، ولا يستشهدون بآية قرآنية ولا حديث شريف، ولا يتعاطفون بصورة من الصور مع أحوال المسلمين ومآسيهم فى شتى بقاع الأرض.

فهـل مثل هؤلاء المسـتنيرين يمكن أن ينهـضوا بالخطاب الإسـلامى، ويجذبوا إليـه جمـوع المسلمين وغـيرهم؟ بالطبع من الصـعب أن يصدق الناس أن من يعادى الإسـلام يستطيع أن ينهض بتـجديد خطابه اللهم إلا

إذا كـان يبغى أمـرًا آخر لا يمت إلى إنـهاض الخطاب الإسـلامى بصلة. كيف يثق الناس فى مثقف لا يصلى، ولا يصوم، ولا يزكى، ولا يحج، ولا يكف عن انتقاص الإسلام وهجائه؟ لقد اتخ ذ المثقفون المستنيرون من فكرة التأويل (الهـرمنيوطيقا) مـدخلاً خطأ وخبيـثًا لتفسيـر الإسلام على هواهم، ووضعـوا القرآن الكريم فى محـاذاة الكتاب المقدس عند اليـهود والنصـارى فى إطار فكرة التأويل التى نشـأت أساسًـا فى أوربة لمواجـهة تفسيرات رجـال الدين المتعصبين للكتاب المقـدس، وأفرطت فكرة التأويل فى تفـسيـر الكتاب المقـدس على هوى المفـسرين الجـدد الذين عارضـوا الكنيسة، وصار التأويل (الهرمنيوطيقا) اتجاهًا امتد لتفسير النصوص الأدبية الأخرى وفق مـا يراه المفسر، وقد دعـا الإفراط فى التأويل كاتبًـا أوروبيا مشهـورًا (أمبرتو إيكو) إلى انتقـاد فكرة التأويل المفرط فى كـتاب صدر، وترجمته هيئة قصور الثقافة المصرية بعنوان «التأويل والتأويل المفرط».

لقد عـرف المسلمون «التأويل» ولكن بأسسـه العلمية والمنهجـية، ولم يسحبـوه على كل النصوص، ولكنهم استـخدموه فيـما كان متـشابهًا أو ملتبسًـا، وفـقا للآية الكريمـة: ﴿ **هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾ [آل عمران: ٧].

المثقفون المستنيرون عندنا، يتبعون ماتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله بما يسيء إلى صـورته، أو يجعله مسـخًا مشوهًا يرضى السـادة الصليبـيين المستعـمرين. ولم يكتفوا بالمتشابـه بل ذهبوا إلى المحكم، وحاولوا تأويله

أيضا، وحاولوا إلزام طلابهم وتلاميذهم بفكرة «التأويل» لتعميمها فى التفسير والتقويم. وتأمل ما يقولونه عن فهمهم لتجديد الخطاب الإسلامى باختيار مكونات تراثية دون غيرها مضافًا إليها اجتهادات معاصرة فى الفهم والتأويل (الهرمنيوطيقا)!

ما هى هذه المكونات التراثية التى يبحثون عنها دون غيرها ليضيفوا إليها الفهم المعاصر، والتأويل (الهرمنيوطيقا)؟

بالطبع لم يقولوا لنا شيئًا عن هذه المكونات التراثية المختارة. ومن المرجح أنها تتطابق مع العناصر التى يريدها السادة الأمريكيون الصليبيون للترويج لما يسمى «الإسلام الأمريكانى». فهل هذا هو تجديد الخطاب الإسلامى؟

بعد ذلك تأتى قضية (الحجر) المزعومة التى تنسب إلى من يسميهم المثقفون المستنيرون رجال الدين المتعصبين، ويفرضها هؤلاء على المثقفين المدنيين..

أولى البدهيات التى يعرفها الناس، أن أهل العلم هم الأقدر والأولى فى مجال التخصص والمعرفة. فكيف نترك علماء الدين ونستفتى المثقفين المدنيين الذين لا علاقة لهم بالدين وعلومه، ولم يتخصصوا فيها، ولم يؤمنوا بمنطقها ومنهجها؟

إن علماء الدين -وليس رجال الدين- هم أصحاب الحق فى تجديد الخطاب الإسلامى إذا كانت هناك ضرورة لهذا التجديد. أما المثقفون المدنيون فلهم مجال آخر لا ينافسهم فيه أحد، وهو خدمة السلطة.. أى سلطة!

●●●●

٨

لا يوجد فى الإسلام رجال دين، ولا سلطة دينية، ولا مؤسسة دينية، ولا كهنوت. هذا من نعم الله على المسلمين ﴿فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات:٨].

لقد حبّب الله إلينا الإيمان وزيّنه فى قلوبنا، وكره إلينا الكفر، والفسوق والعصيان، وهذا هو الرشد أو الرشاد، ونحن -إن شاء الله- من الراشدين. ولقد حررنا الإسلام من كل سلطة عدا الله، فلا يملك أى مخلوق سلطة الغفران، أو سلطة الحرمان، والعلاقة بين المسلم وربه علاقة مباشرة، لأنه يعلم السر وأخفى، فلا وسيط يُدخل الجنة، ولا وسيط يُدخل النار، ولا يوجد إنسان يحمل وزر إنسان آخر فى الإسلام، فكل امرئ بما كسب رهين، ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣]، كما يخبرنا القرآن الكريم.

فالمسلم مسئول عن نفسه مباشرة، وهذه ذروة العدل، وقمة الإنصاف..

وأمام هذا فمازال نفر من مثقفى السلطات وكتابها، يصرّون على تشبيه علماء الإسلام برجال الدين غير المسلمين، ويشبّهون المؤسسات العلمية الإسلامية بالمؤسسات الدينية فى الشرائع المخالفة، ويتعاملون مع الإسلام بوصفه دينًا يخص الفرد، ولا يعنى المجتمع، وهذا موقف خاطئ، وغير سليم، ويتنافى مع الحقائق العلمية.

عالِم الإسلام أو علماء الإسلام بشرٌ مثلهم مثل بقية البشر، يجرى

عليهم ما يجرى على غيرهم، فلا حصانة لهم ولا امتياز ولا عصمة، لأن العصمة لنبى الإسلام ﷺ وحده، والقداسة لله وحده، وعلماء الإسلام يُحاسَبون أمام الله على أخطائهم وزلاتهم، ولا يشفع لهم علمهم بقدر ما يشفع لهم عملهم الصالح. ومن ثم، فلا يملك علماء الإسلام قدرة على الحجر أو التمييز ضد الناس سواء كانوا أميّين أو مثقفين. إنهم يدلون بآرائهم فى شئون الدين، والدنيا وفقًا لما عرفوه، ودرسوه، وعلى الناس أن يؤمنوا أو يكفروا، ومنطق الأشياء يقول: إذا تحدث أهل العلم فيجب أن يصغى إليهم الناس، ويمكنهم أن يناقشوهم حتى يقتنعوا. أما أن يأتى نفر من الناس، ويزعمون لأنفسهم الحق فى تجديد الخطاب الإسلامى، وعلاقتهم بالإسلام -علمًا وعملاً- أوهى من خيوط العنكبوت، فذلك هو الظلم الأكبر، وحين يُقال لهم: إننا فى عصر التخصص، لا يعجبهم القول، فكما تمكنوا من الهيمنة على أمخاخ الناس من خلال وسائط الثقافة والإعلام، يريدون الهيمنة على الفتوى، وعلوم الدين أيضًا!! وإذا راجعهم المعنيّون بشئون الإسلام وعلومه، قالوا: إن المتعصبين من رجال الدين يفرضون حجرًا على المثقفين المدنيين فى مجال تجديد الخطاب الإسلامى. لاحظ اقتران التعصب بعلماء الدين فى حديث هذا النفر الذين يسمون أنفسهم بالمثقفين المدنيين، وكأن الآخرين مثقفون عسكريون!؟

إن تأثر مثقفى السلطات وكتّابها بالمفاهيم الغربية الصليبية، جعلهم يرون فى أنفسهم نقيضًا لعلماء الإسلام، وأضفوا على أنفسهم صبغة «المدنية» المناقضة للصبغة «الدينية»، مع أن الإسلام لا يعرف هذه التفرقة، فلا فرق بين الدينى والدنيوى، فى الفكر أو السلوك، والمسلم محكوم فى

أفكاره وسلوكه بمنهج الإسلام، فى حياته اليومية، والاجتماعية، والاقتصادية والسياسية، فقد وضع الإسلام أسسًا عامة يلتزم بها المسلم فى كل ما يقول ويفعل، لا مجال هنا للتفرقة، وليس للدين رجاله، وللدنيا رجالها.. كل المسلمين رجال الإسلام فى كل الظروف، والأحوال، ومثلما يُطالَب عالم الدين الإسلامى بتطبيق الإسلام، فعامة المسلمين مطالبون بتطبيقه أيضًا، وحيث إن الأمر كذلك، فلا يوجد مثقفون مدنيون فى الإسلام، ولا مثقفون دينيون. كلهم فى الإسلام مثقفون، وإذا كان لابد من وصف، فالتخصص هو الفيصل، وكما نقول.. عالم دين، نقول أيضًا.. عالم هندسة، وعالم زراعة، وعالم طب، وعالم أدب، وعالم لغة.. وهكذا!

وإذا كان مثقفو السلطات، وكتابها يسبغون على أنفسهم ما يحلو لهم من أوصاف مثل الاستنارة، والمدنية، والتقدمية وغيرها، ويزعمون أنه لابد من تجديد الخطاب الإسلامى من خلال تجديد أربعة خطابات هى: الدينى والسياسى، والاجتماعى، والمعرفى -كما سبقت الإشارة- فإنهم فى حقيقة الأمر لم يستطيعوا الاقتراب من الخطابات الثلاثة الأخرى غير الخطاب الدينى (الإسلامى!)، وذلك لأنهم لا يجرءون على تناول هذه الخطابات تناولاً علميًا حقيقيًا يتفق مع ما يريده الشعب والأمة، لأنهم لو فعلوا فسوف تتم إقالتهم على الفور من وظيفة مثقفى السلطات وكتابها. فالسلطات لا تريد من يخالفها أو يزعجها أو يطرح حلولاً لا تريدها. قد يتناولون الهوامش أو القضايا الجزئية، والفرعية المسموح بالحديث عنها أما القضايا الأساسية والرئيسية فهى ممنوعة بالتأكيد عليهم، وإلا ما دخلوا جنة السلطة ونعيمها غير المقيم!

هل يمكنهم مثلاً أن يطرحوا مسألة تداول السلطة أو نزاهة الانتخابات أو الحكم العرفى أو سجناء الضمير أو نحو ذلك؟ بالطبع لا . . إن المسموح بالنسبة لهم هو الطعن فى الإسلام بحجة تجديد الخطاب الدينى، وفصل الدين عن الدولة، وعلمنة الدولة، وحذف كل ما يشير إلى الإسلام فى الدستور، وإلغاء الحجاب، ومنع الطلاق، وتحريم تعدد الزوجات، والإلحاح على قضايا بعيدة عن اهتمام الناس مثل الختان والزواج المبكر، وتحديد النسل. .

لقد استطاع هؤلاء من خلال أساتذتهم الذين وصلوا إلى مناصب المسئولية التنفيذية أن ينسفوا ما تبقى من آثار للتعليم الإسلامى، أو تعليم الإسلام فى مدارس التعليم العام، حتى صار التلميذ المصرى ينهى المرحلة الثانوية دون أن يعلم شيئًا عن دينه: عبادات، أو معاملات، أو قيمًا أو أخلاقًا. . وكان إخراج مادة التربية الدينية من مجموع الدرجات طريقًا عمليًا لإلغائها على أرض الواقع، وعندما تتحدث إليهم فى هذا الأمر يزعمون أن إضافة درجات التربية الدينية إلى المجموع ستخلق فتنة طائفية فى المجتمع! وإن قلت لهم: إن هذه المادة كانت تضاف إلى المجموع منذ نشأة التعليم النظامى إلى ما قبل ربع قرن دون أن تُحدث فتنة طائفية، قالوا: نحن نريد أن نلحق بالتكنولوجيا، ونعلم أولادنا الكمبيوتر، والبحث فى الإنترنت!! وهل يتعارض الدين مع العلم؟ يقولون: إن الدنيا تقدمت بالعلم، ويجب أن نلحق بها. . وهكذا لا تجد لديهم رغبة حقيقية فى القبول بالإسلام، بل إصرارًا عمليًا على استئصاله، أو استبعاده، أو إقصائه!

●●●●

٩

دعاوى السادة المستنيرين حول قدرتهم على تجديد الخطاب الإسلامى، لا تكتفى بالتعبير عن رغبتهم فى المشاركة فى تجديد هذا الخطاب، بل تسعى إلى تصفية المجال الدعوى الإسلامى من المتخصصين فى الدراسات الإسلامية، والمؤهلين علميًا، وعمليًا لتجديد الخطاب الإسلامى وفقًا لمقتضى الظروف.. فهم يسمّون علماء الدين الإسلامى، والدعاة بمجموعات «التأسلم» السياسى الموازية لسلطة الدولة، والمعادية للدولة المدنية!.

مثقفو السلطة وكتابها، يحرصون دائمًا على تسميم العلاقة بين السلطة والمهتمين بشئون الإسلام، أكثر مما هى مسمّمة وفاسدة! ويرون أن ربط الإسلام بالسياسة غير جائز فى عرفهم، ومنهجهم، ويصرون على أن الدولة المدنية نقيض للدولة الإسلامية!.

إنهم يعلمون جيدًا أن السلطة -لأسباب داخلية وخارجية لا تخفى- تقوم بقمع الحركة الإسلامية المعتدلة قبل المتطرفة، ولا تحتاج إلى مزيد من التحريض، وطبيعة الأحكام الشمولية والعرفية تقضى بأنها لا تريد صوتًا معارضًا حقيقيًا، ولا تؤمن بتداول السلطة، ولا تقبل شريكًا فى كل الأحوال، لأنها ترى نفسها صاحبة القول الفصل فى الأمور الصغيرة والكبيرة على السواء. وما يسميه كتاب السلطة «مجموعات التأسلم السياسى» هو فى حقيقة الأمر رأى عام يمثل جمهور الأمة الذى يرغب فى استعادة الإسلام، وتحريره من الأسر، ليؤدى دوره كاملاً فى حياة الناس السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، ولكن القوم «مثقفى

السلطة وكتابها» يحرصون على استمرار عزلة الإسلام وإقصائه بل استئصاله وهذه جريمة كبرى بكل المقاييس. ولا يقولن أحد إن السياسة تعنى المناورة والمداورة، وهذا لا يتفق مع مفاهيم الإسلام التى تجعل «المقدس» يختلط «بالمدنس»! والحقيقة أن مفاهيم الإسلام لا تعرف المناورة أو المداورة. إنها مفاهيم الاستقامة والوضوح، التى تؤسس لمفهوم حقيقى للسياسة.

يعنى أن تكون قويًا وكفؤًا، ومؤهلاً للعمل السياسى داخليًا وخارجيًا. أما الالتواء والانتهازية، والكذب، والرياء، فهذه ليست من خصائص السياسة فى الإسلام، بل هى من الصفات التى لا تليق بمسلم فى تعاملاته أو سلوكه. وفى النهاية، فإن السياسة هى تحقيق مصالح المسلمين المشروعة، وفقًا لما أوضحته الشريعة وقررته العقيدة. . وما يسميه خدام السلطة من المثقفين والكتاب بـ«مجموعات التأسلم السياسى» يصب فى هذا المفهوم. فعلماء الدين والمهتمون بشئون الإسلام حين يشاركون فى قضايا المجتمع ويطرحون الحلول الإسلامية، يجب أن نوجه إليهم التحية والتقدير، لأنهم يشاركون من ناحية فى خدمة المجتمع والناس، ومن ناحية أخرى يسعون بطريقة سلمية إلى تحرير الإسلام، وإخراجه من الزنزانة التى وُضع فيها بحكم عوامل عديدة. وأعتقد أن هذه المجموعات تمارس حقًا من حقوق الإنسان تقره القوانين الدولية، فضلاً عن تعاليم الإسلام، والدستور الذى تسير عليه الدولة، أو يُفترض أنها تعمل به.

أما وصف هذه المجموعات «بالتأسلم» فهو وصف غريب وشاذ، ويصب فى خانة «التكفير» التى نسبت إلى بعض الجماعات الإسلامية الصغيرة التى قُبض على أفرادها، وحوكموا فى عهد الرئيس السادات. إن

اتهام علماء الإسلام، ودعاته، وجماعاته «بالتأسلم» هو اتهام «بالكفر» ونحن لا ندرى بأى حق يحق لمثقفى السلطة وكتابها أن «يكفّروا» عامة الناس الذين يشهدون أن لا إله إلا الله، محمد رسول الله، وخاصتهم وهم العلماء والدعاة وأنصار الدين!.

إنهم - أى مثقفى السلطة وكتابها - لا يكتفون «بالتكفير» والاتهام بالخروج عن الملّة، ولكنهم - فى سياق التحريض على الحركة الإسلامية - يصرون على الخطأ الفادح بوضع الإسلام فى حالة عداء مع ما يسمى «الدولة المدنية»، ويقولون إن الحركة الإسلامية معادية لهذه الدولة!.

ومن البدهيات أن «الدولة المدنية» توضع فى مقابل «الدولة العسكرية» أى الدولة التى يحكمها العسكر، أو النظام العسكرى. والدولة العسكرية لا تعترف بالقانون العام، ولا بالمحاكم المدنية، وإجراءاتها التى تمنح المتهم حق الدفاع عن نفسه وفق تدرج مراحل التقاضى، وتقدم الضمانات الاجتماعية والإنسانية للمتهم حتى يكون الحكم عليه سليمًا وبعيدًا عن الخطأ. وهذه الدولة لا تعرف غير الأوامر التى يجب تنفيذها دون معارضة أو احتجاج، وإلا فالعصا الغليظة هى وسيلة التفاهم المتاحة!.

الدولة الإسلامية ليست دولة عسكرية، ولا يمكن أن تكون لأنها سبقت العالم الغربى المعاصر الذى يتباهى بالديمقراطية، والحرية، والمساواة، وعرفت مفهوم الشورى (أوسع من مفهوم الديمقراطية) والحرية بأعرض معانيها، والمساواة فى أجلى صورها، وكانت الآية الكريمة: ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ** ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، عمود هذه الدولة التى عرفت ما يسمى الآن بالجمعيات المدنية أو مؤسسات

المجتمع المدنى، وكانت أسبق من الأمم المعاصرة فى الدعوة إلى خدمة المجتمع وبث روح التعاون والإيثار والمروءة وتطهير المجتمع من عناصر الفساد والإفساد بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا أظنها فى هذه الصورة تمثل الدولة العسكرية من قريب أو بعيد، وإن كان أفرادها يؤمنون بالجهاد ضد الأعداء، ليعيشوا أعزة كرامًا، وليسوا أذلة بائسين.

ومن ناحية أخرى، فإن الدولة الإسلامية ليست مقابلاً لما يسمى بالدولة الدينية، فالدولة الدينية التى أقامتها الكنيسة فى أوروبة، كانت تحكم بمنطق صكوك الغفران، وصكوك الحرمان.

أنصارها لهم كل الامتيازات، ومعارضوها لهم كل اللعنات. ولكن الدولة الإسلامية عرفت حاكمًا اسمه أبوبكر يقول: أطيعونى ما أطعت الله فيكم، وإن أسأت فقومونى، وعرفت حاكمًا اسمه عمر يقول: أصابت امرأة وأخطأ عمر، ويقول لمن قال له لا سمع ولا طاعة ياعمر: لماذا - أصلحك الله - يا أخا العرب؟ فيكشف الرجل عن السبب، ويتمثل فى أن عمر ارتدى ثوبًا أطول من ثياب الناس فى عام الرمادة، ولم تأخذ عمر العزة بالإثم، ولكنه يطلب من ابنه عبد الله بن عمر أن يشرح للرجل، فيقول له: يا عمى، إن أبى رجل طويل، وقد ضم ثوبى إلى ثوبه. فيقول الرجل: الآن نسمع، ونطيع يا عمر! هل هذه دولة دينية أو ثيوقراطية ياتلامذة هنرى كوريل؟ هل هذه دولة صكوك حرمان، وغفران يا كتاب السلطة؟ إن الدولة الإسلامية أول دولة مدنية فى التاريخ -فيما أعتقد- لأنها منحت شعوبها الحرية وحق المعارضة فضلاً عن حق خدمة المجتمع. بئس ما يأفك مثقفو السلطة وكتابها من جلادى الإسلام والمسلمين.

●●●●

١٠

أحيانًا يلجأ مثقفو السلطة وكتابها إلى التغطية على مواقفهم الخبيثة، ورغبتهم الشريرة تجاه الإسلام؛ فى استمراره سجينًا وأسيرًا وغائبًا، إلى بعض العبارات العائمة التى توحى أنهم مخلصون فى دعاواهم ومنطقهم الخاطئ، فيقولون مثلاً: إن التفكير فى التجديد لا يعنى التنكر للقديم أو تجاهل محاولات التجديد السابقة. وهذا كلام حسن فى مجمله وظاهره. ولكن المرء حين يصطدم بما يقال بعدئذ حول ما يسمى اضطهاد التفكير العقلانى من جانب علماء الإسلام حماية لسطوة التقليد والاتباع وتحالفًا مع أنظمة الحكم المستبدة على امتداد التاريخ، أو إن الدعوة إلى استعادة الإسلام، ودوره فى بناء الشعوب الإسلامية، ومجتمعاتها هى محاولات إظلام، وردّة، ورجوع إلى الخلف، أو إن الفقه الجديد الذى يدعون إليه هو ثورة على عقول التقليد الجامد التى لا تعرف سوى تراث الاتباع، أو تعرية كل المحاولات التى تهدف إلى توظيف الدين سياسيًّا انقلابًا على الدولة المدنية، أو يستشهدون ببعض الحوادث الفردية - على فرض صحتها - لإثبات أن علماء الدين متعصبون وقتلة.. حين يصطدم المرء بكل هذا الكلام يوقن تمامًا أن ما قالوه فى البداية حول عدم التنكر للقديم أو محاولات التجديد السابقة، هو محض تغطية، وخداع، ولا يعبّر عن إيمان حقيقى بهذا القديم الذى لا ينوون التنكر له، أو محاولات التجديد التى سبقت عصرنا.

ومع كل الظروف التاريخية الصعبة، والقاسية التى مرت بها الأمة

الإسلامية، فإنها كانت الدولة الوحيدة على ظهر الأرض التى أتاحت لكل مدارس الفكر أن تنمو، وتترعرع، وتتحاور، وتتفاعل، ويشهد التراث العربى على أرقى محاورات جرت بين المثقفين الحقيقيين - وليس مثقفو السلطة وكُتابها - حول أدق القضايا، وأخطرها، ولعل أبرز الأمثلة، وأقربها، وأكثرها سطوعًا ما جرى بين حجة الإسلام «أبى حامد الغزالى» حين كتب «تهافت الفلاسفة»، وابن رشد الذى ردّ عليه بكتابه «تهافت التهافت» وكانت أسلحتهما هى العلم، والمنهج، والإخلاص، وخدمة الحقيقة، وقس على ذلك كثيراً من الحكايات التى يرويها التاريخ عن اجتماع أهل العلم فى مجالس الخلفاء على اختلاف مذاهبهم، وتوجهاتهم، ليتحاوروا ويدلى كل منهم بدلوه فى هذه القضية، أو تلك مدافعًا، أو معارضًا، بل إن مجلس الخليفة المأمون كان يضم «الزنادقة» أى: الملحدين الذين جاءوا، ليعرضوا دعاواهم الفكرية، ويردّ عليهم أهل العلم، بما يفحمهم، ويدحض حججهم.. أضف إلى ذلك أن علماء الدين وقفوا على مرّ التاريخ الإسلامى ضد التسلط والطغيان، ولم يتحالفوا معهما، وعرف التاريخ شهداء، وأبطالاً سجلهم على صفحاته بمداد من نور، بدءًا من الإمام مالك، والإمام أبى حنيفة، وأحمد بن حنبل، وسعيد بن جبير، وابن تيمية، والعز بن عبد السلام حتى الشيخ جمال الدين الأفغانى، ومحمد عبده، وعبد العزيز جاويش، وحسن البنا، والشيخ المراغى، وسيد قطب، والغزالى وغيرهم كثير.. كثير.. ومازالت أجيالهم تتوالى فى التصدّى للجبروت والظلم دون أن تتحالف معهما أو تهادن، كما يفعل مثقفو السلطة وكُتابها!

صحيح أنه كان هناك بعض العلماء المنافقين، الذين يقولون ما لا

يفعلون، ولكن أمرهم كان مفضوحًا فى زمنهم، وزمننا، وكل زمان. لقد كان الشقاق بين الأغلبية من علماء الدين الأبطال، وأنظمة الحكم المستبدة هو السمة الغالبة، فيما عدا الفترة التى أعقبت وصول الحملة الفرنسية (الصليبية) بقيادة نابليون إلى مصر، فقد كان هدفها إفساد الدين، والدنيا عن طريق العملاء والعلماء، وقد تحدث الجبرتى وأفاض فى الحديث عما أحدثه الفرنسيون فى مصر من مفاسد، وما أشاعوه من أفعال مخالفة للدين، مثل التبرج، والاختلاط، والرقص، والهزل، والمجون، والحشيش، وتقليد الفرنسيين فى ألفاظهم، وكلامهم.. وتناول الجبرتى إفساد الفرنسيين لعلماء الدين الذين ظلوا على مدى عمر الإسلام حُراسًا للدين، ولكنهم هجروا العلم، واهتموا بالدنيا وشراء الحصص من المحتاجين واهتموا بالدنيا، والفايظ (الربا) وحساب الميرى، والمضاف، والمراية، والمرافعات، والمراسلات والتشكى والتطلّع للأكل فى ولائم الأغنياء، والفقراء، والمعاتبة عليها إن لم يُدعوا إليها.. وارتكابهم الأمور المخلّة بالمروءة المسقطة للهمة، والعدالة كالاجتماع فى الملاهى، وسماع المغانى، والقيان، والآلات المطربة، وإعطاء الجوائز والنقوط وعدم الاحتشام، أو المبالاة والتضاحك، والقهقهة..

فساد علماء الدين كان بفعل فاعل، فى المرحلة الاستثنائية، ولم يكن تحالفًا مع أنظمة الحكم المستبدة على امتداد التاريخ. ومع ذلك، فقد كان هناك من علماء الدين، من تصدى للفساد، وانتقد أسبابه وبواعثه، وحمل على العلماء الفاسدين، ولا غرو أن يكون الجبرتى واحدًا من علماء الدين الذين تصدّوا لجبروت نابليون، وسلوكه الشرير، ورغبته الشيطانية فى حرمان المسلمين من تطبيق شريعتهم، كما كان على وعى بطبيعة ما أصاب

الدين فى زمانه بفعل المستعمر الفرنسى، من جمود العلماء، وازدياد الدين بعدًا عن الناس. وقد دفع الجبرتى ثمنًا فادحًا لموقفه الرافض للاستعمار وفساد العلماء وفقدان الوعى الإسلامى لدى العامة، حيث قُتل ابنه فى حادث مدبّر يُعزى إلى الفرنسيين الغزاة.

القول بأن علماء الدين (المقلّدين) تحالفوا مع أنظمة الحكم المستبدة على مدى التاريخ، فيه ظلم لعلماء الدين وامتهان للتاريخ فى آن؛ لأن التاريخ يتحدث عن معظم علماء الإسلام على مدى العصور المختلفة باعتزاز وفخار، لأنهم يرفضون الاستبداد من الطغاة، والاستسلام للغزاة.. أما ارتداء زى البطولة على حسابهم اليوم، واتهامهم - عامة - بالتحالف مع الاستبداد، فهو أمر غير مقبول، لسبب بسيط، وهو أن أصحاب هذا الاتهام أنفسهم، هم المستبدون فى مجال مسئوليتهم، وهم أعوان الاستبداد خارج هذا المجال!

ولا ريب أن مثقفى السلطة وكُتابها - وهم يرتعون فى خيراتها ونعيمها - يتناسون أنهم أقبح صور الاستبداد والإقصاء، بدليل ما يجرى على الساحة، فحين هيمنوا على وسائط النشر والتعبير استبعدوا كل من يخالفهم الرأى وحاصروه، وجعلوا من أنفسهم وحدهم أصحاب القول الفصل فى كل شىء، حتى علوم الدين أو الشريعة، لم تسلم من تطفّلهم وتبجحهم بإصدار الفتاوى دون علم والافتراء على علماء الدين والتاريخ، واتهام الإسلام بما ليس فيه.

ومع هذا فقد سمحوا لأنفسهم أن يقولوا إن علماء الدين يفرضون حجرًا على المثقفين «المدنيين» كى لا ينهضوا بتجديد ما يسمى الخطاب الدينى!!.

●●●●

١١

هل يمكن أن تكون الدعوة إلى تحرير الإسلام واستعادته، ليلعب دوره فى الحياة والمجتمع إظلامًا وردّة، ورجوعًا إلى الخلف كما يدعى مثقفو السلطة وكتابها؟

إن الإظلام فى أدبياتهم هو الاسم الكودى (الرمزى) للإسلام من خلال مقولاتهم؛ فالإسلام عندهم هو الإظلام! أى جريمة! وأى ظلم يرتكبونه فى حق الأمة ومعتقدها!.

إنهم يلحّون باستمرار على نفى التفكير العقلانى عن الإسلام وعلمائه، ويربطون ذلك بحماية سطوة التقليد، والاتباع، كما سبقت الإشارة..

ويبدو أنهم تناسوا أن الإسلام هو الدين الوحيد الذى أعلى من شأن العقل، وجاءت عقيدته قائمة على مخاطبة العقل، وأولى الألباب، والقرآن الكريم يتضمن العديد من الآيات التى تتحدث عن أصحاب العقل أو الذين يعقلون، ويتفكرون، وينظرون (بمعنى يفكرون)، وفى المقابل ذمّ القرآن الكريم التقليد، والمقلدين، والذين يتبعون آباءهم، ويقتدون بهم فى عبادة الأصنام، والأوثان، ولا بأس أن نعيد ونذكر بعض الآيات التى تذم المقلدين والذين لا يستخدمون عقولهم فى التأمل والتدبر، ليصلوا إلى الحقيقة:

﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ،

آثارهم مُّقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢- ٢٤]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠- ٢٢].

إن الإسلام هو دين العقل بلا منازع. وفى الوقت الذى كان فيه العالم حائرًا وتائهًا فى دياجير الظلمات كان نوره يشرق على الناس جميعًا من خلال منهج عقلانى يخاطب الناس بالدليل والبرهان، ويحثهم على الانضواء تحت لوائه عن طريق العقل والتفكير العقلانى. قال تعالى: ﴿حم (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ١-٥].

وهناك سورة كاملة فى القرآن الكريم تخاطب العقل، وتحثه على العمل واستخلاص العبر، ويتكرر فيها الاستفهام الإنكارى توبيخًا لمن يكذبون بآيات الله، ونعمه الظاهرة والباطنة، وهى سورة «الرحمن».. فأى حماية لسطوة التقليد والاتباع؟ ومن الذى يملك هذه السطوة يا مثقفى السلطة؟ لقد عرفنا أن الإسلام يرفض الكهنوت، ويرفض الوساطة بين العبد وربّه، وأن كل امرئ بما كسب رهين.. فمن هذا الذى يحمى سطوة التقليد والاتّباع؟

ثم ما المقصود بالتقليد والاتّباع؟ وفى أى مجال يتحدث مثقفو السلطة وكتابها عن التقليد والاتّباع؟

لا ريب أن التقليد والاتباع مطلوبان فى مجالات أساسية، ولابد منهما، لأن الابتداع فيها مرفوض، ومخالف للعقيدة والشريعة. ففى الصلاة مثلاً لابد من احترام النسق الذى وصلت به إلينا، الأخلاف يقلدون الأسلاف ويتبعونهم. هل يمكن أن نقول يجب تقصير صلاة المغرب إلى ركعتين أو زيادتها إلى أربع؟ هل يمكن أن نصلى صلاة الجمعة يوم الأحد مثلاً كما اقترح بعض خدام الغرب الصليبى؟ هل يمكن أن نكتفى بصلاة المغرب والعشاء دون بقية الصلوات؟ التقليد هنا، والاتباع ضروريان، ولا يجوز لكائن من كان أن يغير ذلك؛ لأنه من الثوابت التى أجمعت عليها الأمة. والأمر نفسه بالنسبة للزكاة، والصيام، والحج. هذه مسائل توقيفية، علينا أن نأخذها كما هى، دون أن نقحم التقليد، والاتباع والابتداع فيها.

لقد أنتج علماء الإسلام على مدى تاريخه الممتد تراثًا ضخمًا من البحث والتنقيب فى القضايا التى واجهت الإسلام والمسلمين من خلال «علم الأصول». وهو العلم العريق فى التراث الإسلامى الذى يمكن أن نسميه بحق «علم التجديد والتحديث» لأنه يُعنى بتحقيق مصالح المسلمين فيما لم يرد فيه نصّ أو طرأ على المجتمع دون أن يكون للمسلمين به علم، ناهيك عن بشارة الرسول -صلى الله عليه وسلم- حول تجديد الإسلام كل مائة عام عن طريق من يهيئه الله تعالى لهذه المهمة الجليلة.

ليست هنالك، سلطة لحماية التقليد والاتباع، سواء فى الأمور التوقيفية أو الأمور الاجتهادية، وبالتالى فلم يكن هنالك تحالف بين علماء الدين وسلطة الاستبداد، ولكن الصحيح الذى يعلمه مثقفو السلطة وكتّابها، ويتجاهلونه، هو الصراع المستمر بين الاستبداد الذى انتمى فكريًا إلى التصورّ الغربى الصليبى، واحتقر الإسلام فى معظم سنوات القرن العشرين والقرن السابق عليه؛ فضرب الجمعيات الإسلامية، وضيق عليها، وصادر أنشطتها خاصة ما يتعلق بالجانب الفكرى، والثقافى، وسنّ القوانين الظالمة لإغلاق صحفها، ومنعها من إصدار صحف بديلة، وفى الوقت نفسه ضرب الأزهر الشريف- آخر معاقل مقاومة الاستبداد والاستعمار- وبالقانون ١١٣ لسنة ١٩٦١، تحوّل الأزهر إلى مجرد هيئة من هيئات الحكومة أو مصلحة من مصالحها يرأسها شيخ يتبع وزيراً اسمه «وزير شئون الأزهر»، وقد عشنا حتى رأينا أحد شيوخ الأزهر يقول: إنه موظف فى الحكومة!!! إذًا فالتحالف بين علماء الدين، والسلطة المستبدة، لا أساس له من الصحة، لأن علماء الدين مطاردون، أو مكبلون، أو مجرد موظفين تابعين للسلطة يسميهم الناس: علماء السلطة وفقهاء الشرطة.

إن الناس يبحثون عن الحرية من أجل الإبداع فى الحياة تحت مظلة الإسلام، ولكن الحرية عندنا لها هامش، وليس لها متن، وهو ما يتجاهله مثقفو السلطة وكتابها، ولا يتناولونه فى كتاباتهم وأدبياتهم، ولعل ذلك يثير أكثر من علامة استفهام تُوجّه إليهم قبل غيرهم.

●●●●

١٢

فى معرض تناوله لرواية كتبها أحد الشبان، أشاد ناقد من مثقفى السلطة بالرواية والشاب، لأنه تعرض فى ثنايا روايته لتصوير فتاة محجبة تلبس «بنطلون جينز» التصقت ببطل الرواية فى زحام مترو الانفاق فبدت فى نصفها الأعلى محافظة، ونصفها الأسفل متحرّرة.. الفتاة تحولت إلى رمز للفصام النكد بين الشكل، والمضمون لدى بعض المحسوبين على الإسلام، وكأن المنتمين إلى الإسلام لابد أن يكونوا فصاميين! الشاهد فى الأمر، أن الناقد السلطوى بدا فرحان جذلان، لأن الفتى الشاب استطاع أن ينتقد صورة «إسلامية» ويشوّهها، ويقول للناس: ها هم المتديّنون الإسلاميون شكلهم غير مضمونهم، وظاهرهم غير باطنهم.. إنهم رجعيون وظلاميّون وفاسدون!

وهذا هو الوتر الذى يلحّ عليه مثقفو السلطة وكتابها بصفة عامة. يرون العودة إلى الإسلام أو استعادة الإسلام ردّة وظلامية أو إظلامًا!

وإذا كان الجهل بالإسلام يقود بعض مثقفى السلطة إلى هجائه وتشويهه دون وعى، فإن من درسوا الإسلام، وحفظوا القرآن وكان يفترض فيهم الدفاع عنه فى مواجهة الاستئصال، والحصار، والأسر، حين يقومون بدور الجهلاء فى هجائه وتشويهه تكون الجريمة أشد ضراوة، وفحشًا!

وفى كل الأحوال، فإن وصف استعادة الإسلام، أو تحريره بأنّه ردة وظلامية وإظلام، يمثل نوعًا من الوقاحة، والفجور يتجاوز حرية الرأى وحق التعبير!

الردّة فى علوم الشـريعـة تعنى الرجوع عـن الإسلام، والكفـر به، أو جحـود أحد أركانه الخمـسة، وعدم الإيمـان به. وفى تاريخنا الإسلامى حروب تسـمى «حروب الردّة» قـادها الخليفـة الأول أبو بكر -رضى الله عنه- ضد المرتدين الذين أعلنوا خروجهم على الإسلام، أو منعوا الزكاة، وقال قولته الشهيرة: «والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونها إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لقاتلتهم علـيها». ورأى الصحابة فى الرجل الهادئ الحليم «أبو بـكر» شخصيـة جديدة تثور وتـغضب من أجل الله، ودين الله، ويصرّ على مـواصلة القتال حـتى يخضع المرتدون لدين الله، ولدولة الإسلام.. وقد خضـعوا وتوطدت أركان الدولة تحت راية «لا إله إلا الله محـمد رسول الله»، وتم القضـاء على الأنبياء الكذبة من أشـباه «مسيلمة الكذاب»، و«سجاح التميمية» وغيرهما..

الآية انعكست فى عصرنا.

مثـقفو السلطة وكتـابها، يقلبون الأمـور ويدّعون ان استعـادة الإسلام وتحريره من الأسر والحصار والمطاردة ردّة!!

وتسألهم: ردّة عن ماذا؟

فلا يجـيبون بـصراحة، ولكن مـضمون كـلامهم يشـير إلى أن الردّة المقـصـودة هى التـحـوّل عن العلمـانيـة، والتـصـوّر الغـربى الصليـبى الاستعمارى. فالعلمانية تعنى ضمنا اسـتبعاد الإسلام ومحاصرته وأسره، واستئصاله من الحياة والمجتمع. كان الأمر كذلك تحت الحكم الاستعمارى المباشر.

وجاءت الحكومات الوطنية لتواصل سياسة الاستعمار فى استبعاد الإسلام ومحاصرته وأسره واستئصاله.. فإذا بزغت فى الأفق رغبة شعبية عارمة فى استعادة الإسلام، والعمل به داخل الحياة والمجتمع، تحركت فلول اليسار المتأمرك والنخبة المتغربة لمهاجمة هذه الرغبة الشعبية العارمة ووصف الصحوة الإسلامية، بالغفوة، وتشويه كل عمل إسلامى، أو مظهر إسلامى وملاحقته بالتهم الكاذبة، واستخدام الأسلوب اليهودى المعروف فى إلباس الحق بالباطل، أو قليل من الحقيقة مع كثير من الأكاذيب. وهكذا يستخدمون المصطلحات فى غير موضعها، ويطلقون على استعادة الإسلام اسم الردّة، والظلامية، أو الإظلام!

إذا كانت استعادة الإسلام ردّة فأهلاً بها، لأنها ردّة حميدة ومطلوبة، ولا أظن مسلمًا حقيقيًا لا يرحب بعودة الإسلام إلى الحياة والمجتمع. ولكن يظل من الإجرام الفاحش أن توصم استعادة الإسلام بهذا المصطلح الكريه الذى يقلب الحقائق ويسميها باسم نقيضها. إن الردّة عنوان على الكفر، وليست عنوانًا على الإسلام!

الأكثر إجرامًا، أن يوصف الإسلام بالظلامية أو الإظلام ويعلم الناس -حتى أعداء الإسلام- أن الإسلام جاء، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور فقد كانت قضيته الأولى هى القضاء على الظلام الذى يعيش فيه الناس بعبادة الأصنام، والأوثان، والعبودية للأقوياء، والطغاة، والاستسلام للهوى والشهوات، والخضوع للكهنة والكهنوت، ووأد البنات وأكل الربا، وسحق الضعفاء، واحتقار الفقراء... قضية الإسلام الأولى: نقل العباد إلى عبادة رب العباد، وليس إلى عبادة بعضهم بعضًا، وكانت

«لا إله إلا الله محمد رسول الله» كفيلة بتحويل العبيد إلى أحرار، وتحويل المجتمع الذى يسوده التمييز، والعنصرية إلى مجتمع يتساوى فيه جميع الناس، لا فرق بين العربى والعجمى، ولا بين الأبيض، والأسود، ولا بين الفقير والغنى.. إنه مجتمع النور الغامر الذى حوّل القبائل المتنافرة المتناحرة إلى أمة ذات حضارة، تفوق الأمم القائمة، وتتجاوزها بل تستوعبها وتحتويها حتى تصير جزءًا منها، وتنعم بنور الإسلام وتستضىء به. وفى أقل من مائة عام كانت دولة الإسلام أقوى دولة على ظهر الأرض تغصّ بالعلم والعلماء، وتصنع مجتمعًا فريدًا فى بنائه وتكوينه، وتصبح نقطة جذب مبهرة للعالم كله.. بعد ذلك كله نسمى الإسلام بالإظلام أو الظلامية؟

لا يمكن أن يكون الإسلام إلا نورًا يهدى الضالين، والحائرين، ويحلّ مشكلات الأفراد والمجتمعات على أسس العدل، والحرية، والمساواة، والأمل، وهو ما بدا فى العصور التى تمسكت به عملاً، وقولاً، ومضمونًا، وشكلاً، ولم تخجل منه أمام أصحاب الحضارات الأخرى، بل فاخرت به، وقدمته لهم وعاءً للعقيدة الصحيحة والعزيمة القوية والدأب الذى لا يلين.. الظلامية هى معاداة الإسلام واستئصاله.. يقول تعالى: ﴿ **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

••••

١٣

يردّد مثقفو السلطة، وكُتّابها ما تقوله الدول الصليبية الاستعمارية حول أسباب ما يسمّى بالإرهاب وإرجاعه إلى نظام التعليم، الذى يلقّن الطلاب مناهج إسلامية خاطئة فى المفـاهيم، والتعاءل مع (الآخر)، وهو ما يؤدى بهم إلى الإرهاب، والتطرف، والتشدّد، والتخلّف أيضًا! وهذه هى الرؤية التى تتبناها الولايات المتـحدة الأمريكية، وتطلب على أسـاسها من الدول العربية والإسلامية تغيير المناهج التعليمية وإلغاء بعض الجامعات، والمعاهد التى تخصصت منذ زمـان بعيد فى العلوم الإسلامية واللغـة العربية، مثل جـامعـة الأزهر، والجـامعـات المناظرة فى الدول الـعربيـة والإسـلاميـة الأخرى!!.

والحق أن هذا الطلب قـديم، وإن لم تجـاهر به الولايات المتـحـدة إلا مؤخـرًا بعد إسقاط عـاصمة الخـلافة الإسلاميـة فى العراق، واحتـلالها بالجيوش الصليبية الاستعمـارية، وانكشاف الحكومات العربية، والإسلامية انكشافًا مـريعًا، أظهر ضعـفها وعجـزها وخيبتهـا الكبرى، واستسـلامها الكامل والشامل أمام قوات الغزو الصليبى الاستعمارى.

كانت بعض الدول العربيـة والإسلامية، قد سـبقت إلى اتخاذ بعض الإجراءات التى تلبّى جـانبًا من المطالب الأمريكيـة، وذلك بتغيـير مناهج التعليم فى بعض الجـامعات، والمدارس، وإفراغها عـمليًا من تعليم الدين الإسلامى، وتهميش اللغة العربية لحساب اللغات الأجنبية ومواد أخرى.

فى تونس مثلاً، تولى اليساريون وزارة التعليم، فغيّروا مناهج جامعة الزيتونة العريقة؛ وحرّكوا وجهتها من التعليم الإسلامى المتخصّص إلى وجهة أخرى تخدم التغريب والتبعية للدول الاستعمارية، وقاموا بتهميش التربية الإسلامية فى المدارس، وأصدرت الحكومة المنشور رقم ١٠٨ الذى يحظر على المدرّسات والطالبات ارتداء الحجاب فى الجامعة، والمدارس، وامتد هذا القرار، ليشمل العاملات فى المكاتب والإدارات. واتبعت الحكومة ما عُرف بسياسة «تجفيف منابع الإسلام» بملاحقة المتدينين واعتقالهم، وتعذيبهم، مع تشجيع مظاهر التغريب، والتفرنج، بحيث لا يبقى أثر للإسلام فى المدرسة، أو الجامعة، أو الشارع. فضلاً عن إصدار قوانين وتشريعات على المستوى الوطنى لتحريم الطلاق، وتعدّد الزوجات وعدم توظيف المحجبات، لتُظاهر عملية استئصال الإسلام فى المدارس والجامعات.

وفى مصر، فإن تهميش التربية الدينية الإسلامية صار حقيقة واقعة، حيث لا تضاف درجات هذه المادة إلى مجموع الدرجات التى يحصل عليها الطالب، مما أدَّى إلى إهمالها، وشجع المدرّسين على تحويل حصة التربية الدينية إلى حصص العلوم، والرياضيات، والتقوية (الدروس الخصوصية الرسمية). وفضلاً عن ذلك فإن وزير التربية والتعليم(*) على مدى اثنى عشر عامًا مضت يحارب الحجاب والمحجبات، ويطارد المعلمين المتدينين بنقلهم إلى وظائف إدارية، أو مناطق نائية بعيدة عن مناطق سكنهم، مما يعرّضهم لمتاعب اقتصادية واجتماعية. كما أقرّ تدريس مادة تسمى «الأخلاق» تتناول قيمًا عامة من خلال تصوّر دينى مشترك

(*) تم خلعه فى التشكيل الوزارى الذى جرى فى أغسطس ٢٠٠٤م.

(يهودى، مسيحى، إسلامى)، وعدّها البعض بديلاً عن التربية الإسلامية! ولاحظ المراقبـون أن المدارس التى تُبنى حديثًا تخلو من وجود مساجد، كما كانت العادة فى الماضى ببناء مسجد فى كل مدرسة!

وهناك دول أخرى عديدة أخذت فى إحكام السيطرة على المعاهد والمدارس التى كانت خارج إطار وزارات التربية والمعارف، لتطبق عليها المناهج الرسمية التى تهمش التربية الإسلامية، وتجفف منابع الإسلام تحت ذريعة محاربة «الإرهاب»!

لقد ألغت دول إسلامية عديدة «مكاتب تحفيظ القرآن الكريم»، وخاصة تلك التى كانت تلقى دعمًا حكوميًا بعد المطالبة الأمريكية لهذه الدول بعدّ هذه المكاتب «معامل تفريخ للإرهاب!»، وقد كافأتها الولايات المتحدة ببعض المعونات لدعم المدارس التى تكرس التوجهات التغريبية. وتم ذلك بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ التى يشوبها الغموض، واتخذت منها الحكومة الأمريكية ذريعة لشنّ حرب ضارية على الإسلام والمسلمين انتهت حتى الآن باحتلال أفغانستان، والعراق، وقتل أكثر من عشرة آلاف مسلم فى كل من الدولتين! فضلاً عن تدمير الأولى تمامًا، وتدمير البنية الأساسية فى الأخرى!

ويتكئ مثقفو السلطة وكُتّابها فى سعيهم لتجفيف منابع الإسلام على أن التربية الإسلامية تنفى الآخر، من غير المسلمين، وتحوّله إلى مواطن من الدرجة الثانية، مما يهدد الوحدة الوطنية، ويعرّض البلاد لخطر الفتنة والحرب الأهلية.

إن مثقفى السلطة وكُتابها - وخاصة من اليساريّين السابقين والدنيويين - يتناسون بدهية معروفة فى الدين الإسلامى، وهى الإيمان بالرسل جميعًا، والكتب السماوية السابقة، وأن ذلك أصل من أصول الإيمان لدى المسلم، بدونها أو بدون بعضها لا يكون مؤمنًا أو مسلمًا. قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. وفى الحديث الشريف إجابة على أركان الإيمان: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره».

معنى هذا أن المسلم يؤمن بموسى وعيسى عليهما السلام، ويؤمن بالتوراة والإنجيل، لأن ذلك من أساس الإيمان، وإن لم يؤمن بذلك فقد خرج من الملّة، وصار غير مسلم.

واقع الحال، يقول: إن غير المسلم فى الدول الإسلامية أفضل حظًا من المسلمين، فهم آمنون على أنفسهم، لا يزعجهم أحد، يعبدون ربهم فى الكنائس والكُنس دون قيود أو سدود، ويبقون فيها دون أن تتهددهم تعليمات الأمن، أو وزارة الأوقاف بضرورة الإغلاق عقب الصلوات، أو عدم ممارسة أنشطة دعوية أو تثقيفية، أو إلقاء خطبة محددة الموضوع والوقت.. كما أن أحدًا من زوار الفجر لا يستطيع أن يلقى القبض على غير مسلم - ولو بقانون الطوارئ - فضلاً عن إلقائه فى المعتقل دون محاكمة وإلى ما شاء الله. أو يجدد اعتقاله كلما أفرجت عنه المحكمة،

بل إن رجل أعمال غير مسلم سرق أكثر من ثلاثة مليارات دولار من البنوك المصرية، ويعيش الآن فى باريس ولندن، يخرج لسانه للحكومة المصرية دون أن تستطيع أن تقول له كلمة واحدة، ناهيك أن تطلبه بالإنتربول لتحاكمه.

إن غير المسلم فى بلادنا - أيها اليساريون المتأمركون - أسعد حظًا من المسلم، فكيف يكون درجة ثانية؟ وكيف يكون التعليم الدينى الهش فى وزارة التربية والتعليم سببًا لصناعة فتنة طائفية، وتهديد للوحدة الوطنية، والتلميذ المسلم يعلم أن اليهودية، والمسيحية من الشرائع السماوية التى لابد أن يؤمن بها؟ إن دعوى اليساريين المتأمركين غلط!

●●●●

١٤

قضـية نفى (الآخر) غـير المسلم من القضـايا التى يلح عليهـا مثقـفو السلطة وكتّابها من اليساريين المتأمركين، وأشباههم من الدنيويّين والمفتونين بثقافة الغرب الصليبى الاستعمارى. وهى كما رأينا قضية غالطة وفاسدة. فالمسلم الذى يؤمن بالأنبياء، والرسل السابقين، والشرائع التى جاءوا بها، لا يمكن أن ينفى اتّباع هذه الشـرائع والمؤمنين برسلها، وأنبيـائها. ومع أن مثقفى السـلطة وكتّابها يعلمون هذه الحقـيقة جيداً، كما يـعلمون أن غير المسلمين فى بلاد الإسـلام أقوى شـوكـة، وأكبـر فى بعض الأحيـان من حكومات دولهم الإسلامية؛ فإن إلحاحهم على موضوع نفى (الآخر) غير المسلم، يهدف فى النهـاية إلى استـئصال الإسلام من المجتـمع الإسلامى سعيًا لتغريبه تمامًا، وإلحاقه بالمنظومـة الصليبية الاستعمارية فكرًا، وتصوراً وسلوكًا، وتطبيـقًا. إن فزّاعة نفى (الآخر) غيـر المسلم يستخدمها مـثقفو السلطة وكـتـابها لتـحـقيـق أكثـر من هدف فى وقت واحـد، ومن هذه الأهداف:

– تخـويف السلطة من تعليم الإسـلام على وجهـه الصحـيح، وبث معتقداته وقيمه، وتشريعـاته فى نفوس التلاميذ حتى لا ينشأوا على ثقافة إسلامـية تحرض على العـدل، والمساواة، والشورى، ومـقاومة الفـساد، والبؤس. إنهم ينفون الإسلام، والمسلمين فى حقيقة الأمر.

– تحـقيق مـوقع يقـرّب هؤلاء المثقـفين، والكتـاب من دائرة القبـول

الصليبى الاستعمارى، بوصفهم يقفون جوار الأقليات النصرانية، واليهودية فى البلاد الإسلامية ويدعمونها فى مواجهة «التعصّب الإسلامى»، و«التمييز الطائفى» الذى يمارسه المسلمون المتطرّفون. وقد استطاعت مراكز البحوث الممولة أمريكيًا وأوروبيًا فى مصر - على سبيل المثال - أن تصنع قضية وهمية اسمها (الآخر) المضطهد المظلوم الذى يعانى من المسلم المتعصّب المتشدّد!

- عزل قضية الوطن كلها، ومن ثم تهميشها، فى الوقت الذى تبرز فيه قضية (الآخر) المحروم من المشاركة السياسية، والاجتماعية، أو الذى لا يستطيع أن يعبّر عن نفسه فى المجالس النيابية، والمحلية، وأجهزة الإعلام والثقافة، وغيرها.. فى حين أن المسألة ليست كذلك. فالحرمان من المشاركة ينسحب على المسلمين قبل غيرهم، إذ إن السلطات الشمولية لا تعترف بالآخر أصلاً، سواء كان مسلمًا أو غير مسلم.. إنها حريصة على الاستئثار بكل شىء، فتنفى الجميع إلا نفسها، وتحرم الجميع إلا ذاتها، فلا ديمقراطية ولا مساواة ولا عدل.. رجال السلطة وحدهم يملكون كل شىء، ويحتكرون كل شىء، ويسوسون كل شىء! وهو ما يعنى أن قضية (الآخر) المزعومة لا محلّ لها فى سياق هذا الواقع المأساوى!

إن قضية (الآخر) المفتعلة نشأت فى ظل ظروف امتُهنت فيها الأمة والأوطان الإسلامية، وكان أبرز هذه الظروف هزيمة ١٩٦٧م، ومضاعفاتها، فقد تمدّدت الدولة النازية اليهودية الغاصبة، وتضاعفت مساحتها سبع مرات بعد هزيمة العرب، وكان التحريض الصليبى الاستعمارى من وراء تقوية

التطرف لدى بعض الطوائف، لإلغاء الإسلام واستئصاله، وإنهاء هيمنته على الثقافة، والفكر، والمجتمع، والحياة، وإحلال الثقافة الغربية الاستعمارية مكانه. . ومن ثمّ، بدأت الاستفزازات لبناء كنائس دون حاجة، أو تراخيص، وظهور مطبوعات طائفية تهاجم الإسلام والمسلمين، وتقديم مطالب غريبة لتولى مناصب سيادية ووزارية. وفى الوقت ذاته، كان بعض الطائفيين الذين تبناهم الغرب الاستعمارى والصهاينة، يقومون بدور دعائى خطير عبر الصحف العالمية الكبرى وشبكات التلفزة الشهيرة، للتشهير ببلادهم الإسلامية، والحديث عن اضطهادات وملاحقات لا أساس لها فى الواقع، مع التحضير لحملات ومظاهرات معادية لدى زيارة الحكام للعواصم الغربية الكبرى مثل واشنطن ولندن، وباريس؛ مع تحريك جهات الضغط فى هذه العواصم لاستصدار قرارات، وتشريعات، وتعيينات تمثل إذعانًا لإرادتهم، ورضوخًا لمشيئتهم!

وعقب حرب رمضان ١٣٩٣هـ - أكتوبر ١٩٧٣م التى أثبتت فيها مصر قدرتها على الفعل العسكرى الظافر المنتصر، وضع «هنرى كيسنجر» وزير خارجية أمريكا الأسبق؛ خطته الشهيرة لتمزيق المنطقة أو عبرنتها - على وزن بلقنتها - على أسس طائفية، وعرقية، ودينية، كى لا تقوم للعرب قائمة، ولا يتمكنوا من مواجهة دولة العدوان الصهيونى مرة أخرى، وبدأ تطبيق هذه الخطة عام ١٩٧٥ بإشعال الحرب الأهلية فى لبنان التى استمرت خمسة عشر عامًا، تخلّلتها عمليات غزو نازية يهودية وإقامة منطقة عازلة يقودها طائفيون من المارون، وتلا لبنان فى تنفيذ المخطط

السودان وتم إشعال النار فى جنوبه، وشرقه، وغربه ومازالت النار مشتعلة حتى الآن بدعوى اضطهاد (الآخر) غير المسلم، ثم كانت الحرب الضروس التى استمرت ثمانى سنوات بين العراق وإيران، وانتقلت لتكون بين العراق والكويت، وبين حكومة العراق، والأكراد فى الشمال، وحكومة العراق والشيعة فى الجنوب، وليبيا وتشاد، واليمن الشمالى مع اليمن الجنوبى، والحكومات العربية فى معظمها مع الحركة الإسلامية، معتدلة وغير معتدلة، وأبرزها المأساة الدامية التى قادها عسكر الجزائر ضد الشعب الجزائرى المسلم، حيث زاد عدد الضحايا على ربع مليون جزائرى سقطوا بفعل المخطط الإجرامى الاستعمارى الذى حرّك بعض القيادات العربية والإسلامية مثلما يحرّك الدُمى، ولا ننسى بالطبع صواع الجزائر مع المغرب من خلال ما يسمى جبهة «البوليساريو»..

قضية نفى (الآخر) المزعومة، بسبب مناهج التعليم الإسلامى لا أساس لها فى واقع الأمر، بقدر ما هى مفتعلة، ومصطنعة، وأسهم فيها التخطيط الاستعمارى الشرير، الذى وافقه مثقفو السلطة وصاروا يردّدون مزاعمه، دون نظر علمى، أو موضوعى لطبيعة ما يحدث ويجرى، مع أنهم يعلمون جيدًا طبيعة ما يحدث، ويجرى! إن بعض الطائفيين فى العالم العربى عامة، ومصر خاصة، صاروا يستقوون بالغرب الاستعمارى، ولا يخجلون من دعوته إلى التدخل فى شئون بلادهم العربية سياسيًا واقتصاديًا، بل والتدخل عسكريًا، وتلك آية الخيانة فى أجلى معانيها، إذ إنه من المعروف أن غير المسلمين، وكما قلت من قبل،

يعيشون فى ظروف أفضل بكثير من إخوانهم المسلمين، حيث لا يتعرضون للاستبداد وتجلياته كما يتعـرض المسلمون، ثم إنهم يتمتعون غالبًا بظروف اقتصـادية واجتماعية تفـوق ما يتمتع به المسلمون، وقـد عرفنا من قبل أن ٦٥٪ من تجـارة القطاع الخاص فى مـصر يملكـها غـير المسلمين، وعـرفنا طبيعة ما يتمتع به هؤلاء فى المجتمع الإسلامى.

نفى (الآخر) ليس مسوّغًا بحال من الأحوال كى ننفى الإسلام ونأسره ونسجنه، ونستأصله من الحياة والمجتمع، لأن تحرير الإسلام، وفاعليته فى الثقافة، والسياسة، والاقتصاد يعنى تحرير (الآخر) أيضًا وتأمينه.

••••

١٥

كانت أكذوبة نفى (الآخر) غير المسلم، وإذاعتها، وإشاعتها، وتعميقها عبر وسائل الدعـاية، ووسائط الثقافة، واحدة من الأكـاذيب الكثيرة التى ردّدها مثقفو السلطة وكُتابها، لاستئصال الإسلام وإبعاده عن الحياة والمجتمع، ومع أن هذه الأكذوبة لا تنهض على دليل علمى أو واقعى، فقد ألحّ هؤلاء المثقفون، والكُتاب على جعلها قضية رئيسة أو مشكلة قومية، يقيمون الدنيا من أجلها ولا يقعدونها: مؤتمرات، وندوات، وبحوث ومقالات، وأحاديث تلفازية، وإذاعية، حتى صار الاقتراب من هذا (الآخر) ولو بكلمة، أمرًا محرمًا لا يجوز، ووصلت المسألة إلى حد الرعب لدى بعض الجهات السيادية، والإدارية، والعلمية لدرجة إضاعه حق الطرف (الأول) خوفًا، وهلعًا من (الآخر) إذا اقتضى الأمر!

لقد صار (الآخر) دولة داخل الدولة، بل وصل فى بعض الأحيان إلى أن يكون هو الدولة الكبرى، والمسلمون الأغلبية الساحقة الدولة الصغرى، وكم رأينا من تهافت رجال كبار، وصحفيين، ومثقفين، وغيرهم للاقتراب من زعماء بعض الطوائف الدينية حتى يثبتوا ولاءهم وحسن سلوكهم، وعظيم امتنانهم، لأن هؤلاء الزعماء صارت لهم كلمة نافذة لا تردّ، فصار من يريد منصبًا، أو ترقية، أو شهرة يسعى إليهم واثقًا مطمئنًا إلى أنه سيحقق مراده وغايته!.

والمفارقة أن المطالب التى كان يطرحها البعض لبناء كنائس جديدة دون داعٍ، صار المسلمون اليوم -وهم الأغلبية الساحقة- يطرحونها لبناء مساجد تقتضيها الضـرورة. وفى الوقت الذى يصرح فيه ببناء الكنائس من جانب المحافظين مباشرة، فإن بناء المساجد، ووفقًا لتعليمات وزارة الأوقاف، يتطلب تحقيق عشرة شروط تعجيزية، كل شرط أصعب من الآخر، وقد كانت هناك خطة لتأميم العمارات التى يجعل أصحابها الدور الأرضى مسجدًا، لولا أن اللّه سلّم، وتم تجميد الخطة، ولا أحد يدرى هل سيستمر التجميد أم يلغى بعد حين!.

لقد فرضت وزارة الأوقاف هيمنة مطلقة على جميع المساجد فى مصر، بحجة مقاومة الإرهاب، مع أن المساجد للّه، فى حين لا تستطيع الدولة بهيلها وهيلمانها أن تقترب من أية كنيسة إلا من خلال كشك الحراسة الذى يقبع فيه جنود الأمن الذين يحرسونها من الخارج على مدى اليوم والليلة، أما ما يحدث بداخلها فهو شأن خاص حتى لو كان تحريضًا طائفيًا، أو طعنًا فى الدين الخاتم، ونبيه ﷺ.

ويذكر القراء حادثة نشر قصة «الراهب المشلوح» فى جريدة «النبأ» الأسبوعية، وملخصها أن راهبًا مارس الزنا مع إحدى السيدات واستولى على بعض ممتلكاتها، وصوّر ممارسته الجنسية على شريط فيديو وتسرب الشريط إلى آخرين، واستطاعت الجريدة - النبأ - أن تنشر بعض الصور للراهب، والسيدة فى أثناء الممارسة، مما عدّه القانون جريمة، وعوقب صاحب الجريدة، ورئيس تحريرها بالسجن عدة سنوات، حتى اختاره

الله. كانت الكنيسة قد أصدرت قرارها بفصل الراهب لسوء سلوكه، وصار شخصًا مدنيًا لا علاقة له بسلك الكهنوت.. ولكن مئات الشبان النصارى، رجالاً ونساءً، تجمعوا فى البطريركية بالعباسية وتجمهروا متظاهرين ضد الجريدة، وضد الدولة، وعدّوا ذلك اضطهادًا لهم، وحين اقتربت قوات الأمن من البطريركية، قابلهم المتظاهرون بالحجارة، وأُصيب عدد غير قليل من الضباط والجنود، وظل المتظاهرون معتصمين عدة أيام، حتى تمَّ تهدئة الأمر من خلال الاتصالات بين السلطة ورجال الكنيسة.. لم تستطع الحكومة أن تقدم واحدًا من المتظاهرين غير المسلمين إلى المحاكمة، أو تحاسبه على ما اقترف ضد رجال الأمن.. تصوّر لو أن هذا الأمر حدث فى الجامع الأزهر مثلاً، واشتبك المتظاهرون مع الشرطة.. ماذا كان سيحدث؟ الذى كان سيحدث هو القبض على العشرات بل المئات، وتطبيق قوانين الطوارئ عليهم، وإلقائهم فى السجون، والمعتقلات إلى وقت مجهول!

المفارقات لا تتوقف، ولا تنتهى، وكلها تؤكد أن (الآخر) غير المسلم يتمتع بما لا يتمتع به (الأول) المسلم، وأنه -أى (الآخر) غير المسلم- يحظى بحصانة واقعية، ونظرية لا يتمتع بها من ينتمى إلى الأغلبية الساحقة، وهو ما يؤكد أن أكذوبة نفى (الآخر) غير المسلم، تظل أكذوبة اخترعها اليساريون المتأمركون وفقًا للخطط الاستعمارية الغربية، أو توافقًا معها.. وقد أفضت هذه الأكذوبة إلى تأجيج مشاعر بعض الأفراد لدى (الآخر) غير المسلم، لتكون سلبية وغير طبيعية، فى مجتمع لا يفرق بين

أفراده، ولا يميّز بينهم، ودين الأغلبية يحتم حماية الأقلية وفقًا لأسس عقدية وتشريعية، وتعاليم الدين الإسلامى تؤكد على ذلك، ويقرأ الطلاب فى القرآن الكريم: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣]. وفى الأحاديث الشريفة فيض كثير يتحدث عن وجوب حماية الذمى، وعدم إيذائه، واحترام آدميته، وقيام الرسول -صلى الله عليه وسلم- عند مرور جنازة يهودى، وحين سئل: لماذا قام؟ رد بسؤال «أليست نفسًا إنسانية»؟ وفى القرآن الكريم ما يؤكد تكريم الإنسان من حيث هو إنسان بصرف النظر عن دينه، وجنسه، ولونه: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وفيه أيضًا حث على مخالطة أهل الكتاب (النصارى واليهود) ومشاركتهم: ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ ﴾ [المائدة: ٥]، وفيه كذلك توجيه بالبرّ والقسط إليهم: ﴿ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة: ٨].

ألم يكن من الواجب تعليم أبنائنا التربية الإسلامية ليتشربوا هذه المبادئ الراقية، والقيم الرفيعة بدلاً من تهميشها، وإلغائها عملياً، وإلغاء كل ما يمتّ بصلة للصراع بين اليهود، والمسلمين فى المدينة المنورة؟ إن الصراع بين

الطرفين يكشف عن سماحة الإسلام وعظمته فى مقابل الغدر والخسة والخيانة، كما يكشف عن اهتداء أصحاب الفطرة السليمة إلى الحق والصواب، وهو ما يجب أن نجلّيه لأبنائنا وأجيالنا القادمة.

أما نفى الإسلام بحجة أنه ينفى (الآخر) غير المسلم، فهو علامة على ضعف المثقفين الرسميين، والدولة أيضًا، وهو ما لا نريده لأحد. وخير لأبنائنا أن يتعلموا الإسلام على وجهه الصحيح، بدلاً من تعلّمه على يد من يجهلونه، أو يفهمونه بطريقة خاطئة، فنجنّبهم، ونجنب غيرهم، ونجنب الدولة مضاعفات لا مصلحة لأحد فيها، لأن الخاسر الوحيد عندئذ - لا قدر الله - هو الوطن.

••••

١٦

تعليم الإسلام على وجهه الصحيح، هو الضمانة الأولى لاستقرار المجتمع، والعدل بين فئاته وطوائفه، فضلاً عن إثبات هيبة الدولة، وكيانها واستقلالها وقوتها. أما نفى الإسلام فهو علامة ضعف، وهوان، وذل، وضياع. . ونحن لا نريد لأمتنا الإسلامية، ودولها إلا الخير، والعزة، والكرامة، والمنعة، ونتمنى ألا ترضخ لإرادة الدول الصليبية الاستعمارية، ولا رغبة المثقفين المأجورين وأشباههم، لأن فى ذلك خطراً عظيمًا على الدول والمواطنين جميعًا!

فى مصر الملكية (قبل يوليو ١٩٥٢) كان التعليم -وفقًا لما أحدثه اللورد كرومر المندوب السامى البريطانى- ينقسم إلى نوعين: التعليم الإسلامى فى الأزهر الشريف، والتعليم العام فى المدارس والجامعات. وكان التعليم الأزهرى يختص بعلوم الشريعة والعقيدة، واللغة العربية وآدابها، وكان خريجو الأزهر يعملون فى ميادين الإمامة، والوعظ، والتدريس، والصحافة، والإذاعة، وبعضهم يتجه إلى «الصرافة» -وهى نظام حكومى يهدف إلى جمع مستحقات الحكومة من الفلاحين. والتعليم العام كان يركز على المواد العلمية إلى جانب شىء من الدين، واللغة العربية، فضلا عن اللغات الأجنبية، ولكن الطالب كان يدرس هذا الشىء من الدين، واللغة العربية دراسة جادة لأن درجته كانت تضاف إلى مجموع الدرجات. وكان التعليم بصفة عامة آنئذ جادًا، وكان مجال غرس القيم الدينية، والأخلاق الإسلامية فى نفوس الطلاب هدفًا حيويًا بالنسبة

للمعلمين وآبائهم، والمجتمع كله. . ويلاحظ أن هذا الشيء من الدين، واللغة العربية الذى أشرت إليه، كان يقتضى فى المدارس الابتدائية، وقد عاصرتها فى الخمسينيات، وجود محفّظ ممتاز للقرآن الكريم، وكان الطلاب الصغار يحفظون على يديه مقرّرًا سنويًا يتكون من عدة أجزاء، وكانت الحصة الأولى عادةً فى الصف السادس تبدأ يوميًا بحصة القرآن الكريم التى كانت منفصلة تمامًا عن التربية الدينية، وكان الطالب غير المسلم - إذا وُجد - لا يجد غضاضة فى حفظ القرآن مثل زملائه المسلمين، فيكتسب تقويمًا للسانه ونطقه، ويتذوق التعبير المعجز بأدائه وعطائه، ويكوّن ثروة لغوية، وتعبيرية تدفع به إلى الأمام، ولعل كثيراً ممن عاصروا هذه الأيام ويعيشون بيننا الآن من إخواننا غير المسلمين، يدركون قيمة حفظ القرآن الكريم فى حياتهم، ولن أتكلم عن الزعيم الوفدى «مكرم عبيد» الذى كان يحفظ القرآن عن ظهر قلب، ويستشهد به فى خطبه، وندواته، ويفخر بأنه مسلم وطنًا، وإن كان مسيحيًا ديانة.

لم تحدث فتنة طائفية ولا نفى للآخر، بسبب التعليم الجاد والعميق للإسلام، والقرآن الكريم فى الأزهر، ومدارس التعليم العام، أيضًا لم يحدث تطرّف، ولا إرهاب، ولا تشدد، ولا ما يسمى أصولية كما يردد الكتاب المأجورون وأشباههم، ولكن هذا حدث مع نفى الإسلام وإقصائه، ومع ذلك فالقوم مستمرون فى نفى الإسلام وإقصائه. . وجاءت إرادة الدول الصليبية الاستعمارية لتؤكد هذا النفى وذلك الإقصاء.

أمام تدهور التعليم العام والأزهرى، أخذت الغيرة على الإسلام نفراً من الدعاة، وأعضاء الجمعيات الإسلامية، فأنشأوا بعض المدارس الأهلية

لتغطى القصور فى الجانب الإسلامى الذى ساد المدارس. وشهدت بعض المحافظات قيام مدارس أهلية ناجحة تضم المراحل الثلاث: الابتدائى، الإعدادى، الثانوى، وحققت نجاحًا باهرًا، جعل التدفق عليها يزداد والإقبال يستمر، لدرجة أن القبول كان يتم بشروط صعبة نظرًا لعدم قدرتها على استيعاب جميع المتقدمين. كانت هذه المدارس مثالاً للانضباط الذى يشمل المعلمين، والطلاب، والعمال، والإداريين، وكان المعلمون فيها على درجة عالية من الخبرة والمهارة، وبعضهم كان يحمل درجة الدكتوراه.. ولكن الوزير الذى دمر التعليم فى مصر، وهبط به إلى درك سحيق، أبى إلا أن تلحق به هذه المدارس الناجحة، وزعم أن بها فسادًا إداريًا، وعن طريق المحافظين تم استبدال إدارتها، وعُين أتباع الوزير بدلا عنها، فكانت صدمة للناس، وكان انهيار، وكانت مأساة!

فى مدارس «الجيل المسلم» بمدينة طنطا -على سبيل المثال- حققت العملية التعليمية نجاحًا غير مسبوق، شهد به أنصار الوزير قبل خصومه، ووصلت سمعتها إلى بقية مدن القطر، ولكن الوزير، والمحافظ وغيرهما -سامحهم الله- أبوا إلا أن يحطموا المثال الرائع، ويمرّغوه فى التراب -لماذا؟ لأنه يهتم بالجانب الدينى- أو بمعنى أصح الجانب الإسلامى- فى حين أن الوزير، أو غيره، لا يستطيع أن يقترب من مدرسة غير إسلامية، أو يصنع ما صنعه بمدرسة «الجيل المسلم» وسواها.

ويعلم الناس، أو المتخصصون منهم، أن العدوّ النازى اليهودى الغاصب فى فلسطين المحتلة، يقيم بناءه التعليمى على التوراة والتلمود سواء فى المدارس الدينية أو المدارس العامة. المدارس الدينية لها امتيازات، منها الإعفاء من التجنيد فى جيش الدفاع، مع المكافأة المالية، والتيسيرات

فى مراحل التعليم المختلفة، أما المدارس العامة فالتاريخ، والجغرافيا، واللغة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالشريعة اليهودية . . لم يجدوا فى ذلك حرجًا أو خجلاً أو غضاضةً، ومع أن تعليمهم الدينى يحض على كراهية المسلمين (الأغيار) ويخبرهم أن أرضهم الموعودة من النيل إلى الفرات، فلم يحذفوا آية واحدة، ولم يطاردوا مدرسًا متدينًا، ولم يعتقلوا معلمًا ينتمى إلى جماعة (كاخ) الإرهابية!!

إن الدين الإسلامى هو هوية الأمة كلها بما فيها غير المسلمين، فهو عقيدة الأغلبية الساحقة، وثقافة الأقلية المحدودة، ولا يستطيع مواطن فى الدول العربية مهما كان وضعه أن ينفكّ عن الثقافة الإسلامية، وتراثها، وتاريخها. إن من العار على تعليم وطنى أيًا كان أن يدرس تاريخ أوروبا الحديث، والقديم إجباريًا، وفى الوقت نفسه يجعل دراسة تاريخ بلاده أمرًا اختياريًا! لقد حدث هذا فى بلادنا، والأدهى من ذلك أن درجة اللغة الأجنبية كانت تزيد على درجة اللغة العربية، لولا صراخ الوطنيين وأصحاب الضمائر، فتساوت العربية بالأجنبية!! أرأيتم كيف يحتقر التعليم الوطنى لغة الأمة ودينها؟

إن «تحرير الإسلام» يبدأ من المدرسة، ففيها يجب أن يتعلم الطفل أو التلميذ أو الطالب، دينه، ولغته، ويفخر بهما، وينافح عنهما، لأنهما جلده العارى الذى يجب أن يحفظه بأغلى الثياب وأرقاها. .

إننا نتحسّر على زمن «كرومر»، فقد كان أكثر رحمة، وشفقة بالإسلام واللغة العربية من بعض المسئولين المعاصرين الذين برعوا فى العدوان على الإسلام، واللغة العربية إرضاءً للشيطان الأكبر!.

●●●●

١٧

إذا كان التعليم العام قد أنهى عمليًا وجود الإسلام فى مناهجه بتهميش التـربية الدينيـة، واللغة العـربية، والتـاريخ الإسلامى، وفـقدان الـقدوة الإسلامـية الحسنة بمطـاردة المعلمين المتديّنين، والمحـجبـات من المعلمات والطالبـات، وعـدم بناء المسـاجـد فى المدارس الجـديدة. . فـإن التـعليم الأزهرى أصابه شر مسـتطير، أباح قلعته الحصينة للإهـمال، والسطحية، وفقدان الهويّة التى توارثها الأزهر على مدى ألف عام!

فى العـصـر الحـديث كان للأزهـر- علمـاء وطلابًا - دور عظيم فى استمرار ثقافة الأمة الإسلامية ونهـضتها، فى ظل ظروف عاصفة وعاتية، بالإضافة إلى دوره الـوطنى، والقومى، والإسلامى فى مواجـهة الطغاة، والمستبدين، والغزاة من الصليبيين.

عندمـا غزا الصليبـى المتوحش «نابليـون بونابرت» مصـر، فإن الأزهر وعلماءه، تصدّوا لحملته العسكرية الهمجـية بقيادة الجماهير، والمقاومة فى الإسكندرية، ورشيد، والقاهرة، ومع أنه حاول استمالة أعداد كبيرة منهم بالخداع، والمكر، والأعـراض الزائلة، فقـد كان الأزهريون - أو من بقى منهم - مصدر الخطر الحقيقى عليه وعلى الاحـتلال، وكان مصرع خليفته الجنرال «كليبر» على يد الطالب الأزهرى «سليمان الحلبى»!

وقام علماء الأزهر بقيـادة «عمر مكرم» بتعيين «مـحمد على» واليًا على مصـر، وألبسوه الكرك، بدلاً من الـوالى العثمـانى «خورشيـد باشا» الذى

أرسله السلطان من الأستانة إلى القاهرة المحروسة. وإن كان «محمد على» قد تنكر بعدئذ لعلماء الأزهر، وقام بنفيهم، وتشريدهم بعيدًا عن العاصمة، خوفا من نفوذهم، وآرائهم الرافضة للاستبداد، والطغيان، والظلم.

وعندما جاء الغزاة الصليبيون الإنجليز، فإن علماء الأزهر، كانوا فى مقدمة المقاومة، وطليعة الزعامة للثورة العرابية ضد الخديو، والإنجليز معًا، وكان الإمام «محمد عبده» ممن حُكم عليه بالإعدام وتم تخفيفه إلى السجن ثم النفى.

وكان الأزهر عماد ثورة ١٩١٩ ومنطلقها، واستقطب منبره جميع القوى السياسية بما فيها غير المسلمين الذين صعدوا المنبر، لدعم الثوار والثورة.

وإلى ما قبل يولية ١٩٥٢، وما بعدها بقليل، فإن الأزهر كان القوة التى يعمل لها المحتلون الغزاة وأتباعهم من السياسيين العملاء ألف حساب، لأنه كان الأقدر على تحريك الشارع، وتوجيه الأمة نحو الثورة والمقاومة، ورفض الظلم، والتبعية.

علماء الأزهر كانوا ضمير الأمة، وكانوا الطليعة دائما للحفاظ على مقدسات الأمة، وكرامتها، واستقلالها، وحقوقها، لذا كان الهدف الأساسى لانقلاب يولية ١٩٥٢، هو تصفية الأزهر بوصفه معقل المقاومة الأخير ضد الحكم الفردى، والاستبداد الحكومى، وذلك بعد أن تخلص الانقلابيون من الأحزاب، والقوى المعارضة وإيداع كثير من الرموز فى قيعان السجون والمعتقلات. . كانت عملية التصفية للأزهر تتم تحت مسمى

«تطوير الأزهر». وكلمة التطوير لها رنين وجاذبية، وقد شدّت إليها عددً من علماء الأزهر المرموقين الذين انخدعوا بالتطوير، وتصوّروا أنه سينقل الأزهر إلى عالم آخر أكثر رحابةً، واتساعًا، وتميّزًا، وقوةً. ولكن القانون ١٠٣ لسنة ١٩٦١، خيّب ظن الجميع، وحوّل الأزهر إلى مسخ شائه، فلم يبق على وضعه السابق يقدم علماء الدين، والمعلمين، ورجال الصحافة، والإذاعة، ولم ينتقل إلى مستوى التعليم المدنى السائد فى مدارس الحكومة. فقد صار الطالب الأزهرى يدرس العلوم القديمة (التقليدية) إلى جانب العلوم الحديثة (التى يدرسها طلاب المدارس العامة)، وجاء ذلك فى وقت لم تتوافر فيه كوادر المعلمين اللازمة، مما أضاف عبئًا ثقيلاً على الطلاب، وخلق حالة هروب عظيمة من جانبهم، وخروجهم من الأزهر إلى المدارس العامة، وبقيت أعداد قليلة، وبالتالى لم يُقْبل طلابٌ جدد على الدراسة الأزهرية، مما اضطر المسئولين إلى معالجة الوضع الجديد السيئ بطريقة أسوأ؛ إذ فتحوا المجال أمام طلاب التعليم العام، ممن تدنّت درجاتهم العلمية، ومستواهم العقلى كى يدخلوا الأزهر، ويعالجوا الخلل فى نقص الطلاب! ورافق ذلك تساهل فى «العمود الفقرى» للتعليم الأزهرى، وهو «حفظ القرآن الكريم».

هل يتصوّر أحد أن يكون الأزهر بلا قرآن؟ كلا!! ولكن الحقيقة الواقعة على الأرض تقول: إن الأزهر صار بلا قرآن!! كيف يتخرج عالم دين أو مدرس للغة العربية وهو لا يحفظ القرآن الكريم أساس الإسلام واللغة العربية؟ ناهيك عن الطبيب، والمهندس، والزراعى، والصيدلى الذى قيل إنه سيمارس الدعوة.

لقد نشأ وضع جديد على كل حال أزرى بالأزهر والأزهريين، وهو ما استوجب البحث عن حلول تعالج الخلل، وتسدّ الفجوة التى تتسع باستمرار، وتؤكد على تواضع مستوى الطالب الأزهرى الذى يتخرج فى كليات الأزهر النظرية، والعملية على حدّ سواء! أقول تواضع، بدلاً من كلمة أخرى أشد قسوة، ولكن الخطر كبير فى ساحة الأزهر المعمور إن شاء الله.

حاول فضيلة الإمام الراحل «عبدالحليم محمود» أن يعالج الوضع، بإنشاء مدارس تحفيظ القرآن الكريم (المرحلة الابتدائية من المعاهد الأزهرية) على امتداد أرض مصر، وأعلن كلمته المشهورة: سأزرع معهدًا فى كل قرية مصرية. وكان يشجع الأهالى على بناء المعاهد أو الجمعيات ولو فى صورة متواضعة، ثم يقوم - بناء على طلبهم - بضمها إلى الأزهر الذى يتولى بعدئذ استكمالها مبانى، وهيئة تدريس، وميزانية، وأثاثًا، وإداريين.. إلخ. كان الهدف من وراء إنشاء هذه الجمعيات أو المعاهد أو المدارس، التأسيس لطالب أزهرى يتخرج حافظًا للقرآن الكريم، بعد أن عزّ وجود طلاب يدخلون المرحلة الإعدادية، والمرحلة الثانوية يحفظون القرآن الكريم كما كان الأمر قبل قانون التطوير غير السعيد.

كان الشيخ عبدالحليم محمود- رضى الله عنه وأكرم مثواه- يدرك خطورة الوضع بالنسبة للأزهر الذى يمثل لمصر، والمسلمين فى جميع أنحاء العالم عقل الإسلام وحصنه المنيع، وكان الرجل- رحمه الله- يعيش الواقع الذى تمرّ به الأمة، والمؤامرات التى تُحاك ضد الإسلام

والمسلمين، وكان يؤمن بأن دور الأزهر فى إنهاض الأمة، وقيادتها، ليس دورًا ثانويًا أو هامشيًا، ولكنه دور رئيسى وأساسى.. لذا فإن استعادة الأزهر لكيانه وقوته أمر حتمى، وهو ما عمل من أجله الشيخ الراحل، وبعض المخلصين..

كان يمكن أن تتبلور جهود الشيخ، وتتم معالجة نواحٍ عديدة من القصور الناشئ عن قانون تطوير الأزهر ١٠٣ لسنة ١٩٦١، ولكن الشيخ ذهب إلى لقاء ربه، وخلفه من زاد الأمر سوءًا!

●●●●

١٨

أسهمت مدارس تحفيظ القرآن الكريم التابعة للأزهر -إلى حد ما- بتضنيق الفجوة بين واقع الطالب الأزهرى، وما ينبغى أن يكون عليه، فقد أتاحت حفظ شيء من القرآن الكريم، وهو إنجاز لا بأس به، ولكن يبقى الوضع الغريب الذى صار إليه التعليم فى الأزهر، فلم يعد تعليمًا متخصصًا، ولا تعليمًا عامًا، إنه بين بين، لم يعد الطالب الأزهرى خريج الكليات الأزهرية النظرية مؤهلاً لمواصلة دور أسلافه فى الدعوة، والإرشاد، والتدريس، والكتابة، والإذاعة؛ كما ينبغى. إن الأغلبية الساحقة من هؤلاء الخريجين متواضعة المستوى، وكذلك فى نظرائهم من خريجى الكليات الأزهرية العملية، فهم ليسوا على مستوى خريجى الجامعات الأخرى فى ممارسة الطب، والهندسة، والصيدلة، والزراعة..

الأسباب واضحة، فالطالب الأزهرى فى المرحلة الإعدادية، والمرحلة الثانوية، يدرس مقرّرين أو منهجين: العلوم الأزهرية القديمة، والعلوم المدنية الحديثة دون أن يجوّد فى أيّهما لأنه لا طاقة له بهما معًا، الطالب فى المرحلة الإعدادية، والمرحلة الثانوية، له قدرة استيعاب معينة، لا يستطيع أن يتعداها، إذا كانت العلوم القديمة تتطابق مع استيعابه، فهو لا يستطيع استيعاب العلوم الحديثة، والعكس صحيح.

رأى المسئولون فى الأزهر -مؤخرًا- أن المسألة تقتضى التخفيف عن الطلاب وقاموا فعلا بالتخفيف، ولم يكن فى الاتجاه الذى يؤصل هوية

الأزهر، ويعمق رسالته، ويدعمهـا، ولكنه جاء فى الاتجاه المعاكس تمامًا، فقد كان التخفيف متجهًـا إلى العلوم القديمة (الشريعة، والعقيدة، واللغة العـربية، وآدابهـا)، فقـد صار الأمـر إلى دمج بعض المواد لتكون مـادة واحدة، وانتهت بعض المواد إلـى مجرد ملخصات مـسطحة لا تسمن ولا تغنى، ثم تطوّر الأمر إلى إلغـاء بعض الكتب القديمة (العمدة) وتغـييرها إلى كتب مـؤلفة حديثًا ضـعيفة المـستوى، وبعد ذلك أُلغى فـقه المذاهب الأربعة، ليحلّ مكانه مـذهب ملفّق اسمه الفقه الميسّـر. المهم كان الحصاد هو مجـموعة مـواد هامشيـة فى الشريعة، والعـقيدة، واللغـة إلى جانب المقررات التى يدرسهـا طلاب التعليم العام. ولكى تكتمل المأسـاة فقد تم تخفـيض سنوات الدراسـة فى المرحلتين الإعـدادية والثانوية لتـتطابق مع سنوات مدارس التعليم العام، مما يجعل التحويل من مدارس وزارة التربية والتـعليم إلى المعـاهد الأزهرية -والعكس- سهـلاً بل أمـرًا عاديًا، وقـد استغل بعض أولياء الأمور هذه الناحية لتحويل أبنائهم إلى المعاهد الثانوية الأزهرية كى يتاح لهم دخول كليات الطب، والهندسة، والصيدلة، أو ما يعرف بكليات القمة، التى لا يستطيعون دخول نظائرها فى الجامعات الأخرى!

لقـد كان من الطريف فى الـتغـييـرات التى لحـقت بالمناهج، والكتب الدراسية الأزهرية أن بعض المسئولين استفاد من التغيير بتاليف كتب وضع عليها اسـمه، أو أسندها إلى مؤلفين مجـهولين كى يحشو جـيوبه ببعض الألوف من الجنيـهات نظير حق الـتأليف، ولـم يلتـفت إلى ما يمليـه عليه ضميره الإسلامى من مراعاة حق الأمـة فى تخريج أجيال قادرة على فهم الدين فهمًا صحيحًـا، وناضجًا يؤصل لزيادة الوعى بالإسلام بين الجمهور

العـريض من أمة الإسـلام، ويدرأ الشبـهات التى يحـاول خصـوم الأمة إلصاقها بديننا الحنيف..

قـابلنى قـبل سنوات طالب أزهـرى فى كليـة أزهرية تعنى بشـئـون العقـيدة والدعوة، وسـألنى: ما معنـى الماركسيـة؟ وأردف قائلاً: إننى أسمعهم - يقصد الناس- يردّدون هذه الكلمة ولا أفهم معناها!

ابتسمت وقلت له: ألم تدرسهـا فى كليتك؟ أظن المقررات فى كليتك تهتم بمثل هذه الكلمات، وتتناولها بالشرح، والتحليل من خلال النظريات المعادية للإسلام، أو من خلال المقرر المعروف بالثقافة الإسلامية!

نظر إلىّ حائراً، وقال: إننا لم ندرسها.

لم أعجب لسـؤال الطالب، وإن كنت أسفت لحيرته، فـهو مظلوم من أكثـر من جهة، ولكن الجـهة الأشد ظلماً لـه هى الأزهر! فهى لم تؤهله منذ البداية لـيعرف طريقـه، ويؤدى دوره المطلوب، ولكنها ألقـته فى اليم وحذّرته من الغرق وهو لا يجيد السباحة!

لقد دخل هذا الطالب إلى ساحة الأزهر وهو لا يحفظ القرآن، وانتقل فى سنوات المراحل المتتالية بطريقة شبه آلية، لم يُحاسب على مستواه كما ينبغى، سواء فى الامتـحانات التحريرية، أو الامتحانات الشـفهية، بل إن بعض المعاهد كانت تريح نفسها فـتكتب إجابات الامتحان على السبورة، أو تتـرك الطلاب (الذين سيـعلّمون الدين فـيمـا بعد) يغـشّون إجـابات بعـضهم، ومن المفـارقة أن بعـضهم لا يـعرف كـيف يكتب كتـابة يمكن قراءتهـا، وبعدئذ نجد أن سؤال الطالب المشـار إليه حول «الماركسـية» التى

سمع عنها ولم يدرسها أو درسها ولم يع مما قاله أساتذته شيئًا بحكم تواضع مستواه وخبراته، أمر طبيعي وغير مستهجن في ظروف تعمل كلها ضد وعيه، واستيعابه.

لقد ألغى الأزهر مؤخرًا دعمه لكتاتيب تحفيظ القرآن وهي المصدر المهم الذي يمد الأزهر بالطلاب المؤهلين لدراسة علوم الإسلام، واللغة العربية، وقيل في أسباب هذا الإلغاء ما لا أحب التعرّض له في هذا السياق، لأن غايتي هي الإشارة إلى محنة أصابت كبد الإسلام بإخراج الأزهر من ساحة المواجهة مع أعداء الدين، وخصوم المسلمين..

وإذا كان البعض يأخذ على الأزهر سلوك بعض علمائه المتدني، في الماضي أو الحاضر، ويتخذ من هذا السلوك ذريعة لإثبات جمود الأزهر وتخلّفه، وعدم عقلانيته وولائه للسلطة؛ فإننا نقول لهؤلاء إن الأزهر مازال يملك بعض الأساتذة الأصلاء الذين يرفضون الواقع الذي انتهى إليه الأزهر من وضع سيئ ومتهرئ، ويجاهدون لتغيير هذا الواقع بقدر طاقتهم، ودفع بعضهم -وما زال- ثمنًا باهظًا لموقفه الشجاع!

في كل الأحوال، فإن ما جرى ويجري للأزهر، لا يسوّغ لأحد أن يلغي مهمة الأزهر الأصيلة وهي تخريج المتخصصين في العلوم الإسلامية واللغة العربية، وينبغي تعديل القانون ١٠٣ لسنة ١٩٦١ كي يعود التعليم الأزهري إلى وضعه الطبيعي، وفصل الكليات العلمية (الطب والهندسة والصيدلة وما أشبه) في جامعة مستقلّة تتبنى التربية الإسلامية إلى جانب العلوم الحديثة، وتستقبل طلاب التعليم العام.

●●●●

١٩

إذا كانت محاولة تهميش الأزهر على المستوى المحلى، تبدو هدفًا سياسيًا يعنى تقليص نفوذه، وتمييع موقفه فى الدفاع عن الإسلام وقيمه العليا؛ فإن القضاء على الأزهر، والجامعات المماثلة له فى العالم العربى والإسلامى، صار هدفًا دوليًا تنادى به القيادة الصليبية الاستعمارية فى واشنطن التى أعلنت الحرب الصريحة المباشرة على الإسلام والمسلمين عقب أحداث الحادى عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١م، وهى الحرب التى تهدف إلى استئصال الإسلام تمامًا، والقضاء على مظاهره فى أرض الواقع: مناهج تربوية إسلامية، معاهد أو كليات إسلامية، جمعيات خيرية إسلامية، حجاب النساء المسلمات، اقتصاد إسلامى، سلوك إسلامى، حكم إسلامى..

وكان اختراق الأزهر وتدنيسه هدفًا يهوديًا مذ قامت دولة الكيان اليهودى الغاصب فى فلسطين، وقد استطاع اليهود التأثير على موقف الأزهر الذى ظل ثابتًا على مدى خمسين عامًا بعدم قبول هذا الكيان، أو الاعتراف به أو التصالح معه، فقد رأينا الحاخامات مع آخرين من اليهود يدخلون ساحة الأزهر ويستقبلهم شيخه، ويتحدث معهم، وهو يعلم أن فلسطين أرض إسلامية، والقدس العتيقة هى ثالث الحرمين، وقبلة المسلمين قبل الكعبة، ومسرى الرسول -صلى الله عليه وسلم- . وإذا قيل إن للسياسة ضروراتها، فإن للشعوب اختياراتها، وقد كان الأزهر، وسيظل تعبيرًا عن الإرادة الشعبية الإسلامية، ليس فى مصر وحدها، ولكن فى العالم

الإسلامى كله، حيث ينظر إليه المسلمون فى مشارق الأرض، ومغاربها بوصفه عقل الإسلام وصوته النقى ولسانه المبين. وحين يأتى الغزاة اليهود القتلة إلى ساحة الأزهر الشريف ويدنسونها بأقدامهم ليكون ذلك إقراراً على جرائمهم فى حق شعوب الأمة، واغتصابهم لأرض فلسطين، والقدس فهذا نجاح معنوى كبير انتظره القتلة طويلاً حتى تحقق لهم قبل سنوات، ولم يتحقق لهم قبل ذلك وإن كانت محاولاتهم لم تتوقف أبداً. ويذكر التاريخ أن الشيخ «جاد الحق على جاد الحق» شيخ الأزهر السابق، لم يمكّن الصهاينة الغزاة من تحقيق هذا النجاح أبداً، وقد حاول رئيس الصهاينة الغزاة السابق «عيزرا وايزمان» أن يلتقى بالشيخ فى إحدى زياراته إلى القاهرة، ولكن الشيخ -رحمه الله- ترك القاهرة كلها، وسافر إلى قريته حتى انتهت زيارة القاتل اليهودى، ورئيس الكيان الغاصب فى فلسطين!

إن الأزهر -منذ ألف عام- هو صمام الأمة، وميزان حركتها خاصة فيما يتعلق بالقضايا المصيرية على المستويين الداخلى، والعالمى؛ فلقد تصدّى الأزهر على امتداد تاريخه للغزاة، والطغاة، والمستبدين، وواجه علماؤه بشجاعة الرجال الدعوات الهدامة، والفلسفات الإلحادية بمنتهى القوة، والشجاعة، وحفظوا للإسلام وجهه المضىء، وجوهره السليم. ويذكر التاريخ أيضاً، لشيخ الأزهر الراحل الشيخ «عبد الحليم محمود» مواجهته الرائعة والباسلة للقوانين التى أراد البعض فرضها على الشعب المصرى، وتمسّ الإسلام فى الصميم، ومن ذلك ما سمّى بمناهج التربية الدينية الموحدة التى أريد تدريسها للمسلمين، وغير المسلمين من الطلاب، كما رفض أى مساس بالأزهر، ومكانته، وصلاحياته، وقدم استقالته من منصبه أكثر من مرة، وتمت ترضيته كى يعدل عنها، ثم إنه لم يتوقف فى

محاضراته، وندواته عن مواجهة العلمانيين، والشيوعيين، والملاحدة الذين يفسدون الثقافة، ويشوهون الفكر الإسلامى، وينشرون النظريات الغربية الخبيثة، مما أزعج هؤلاء وجعلهم يشنون عليه حملات ضارية، ولكنه بشجاعة المسلم الذى يخشى ربه وحده، تابع مسيرته فى شرح عظمة الإسلام، وفضح جرائم الثقافة الفاسدة وأنصارها. ونحن نفتقد أمثال الشيخ «عبد الحليم محمود» فى أيامنا التى يجاهر فيها البعض بالدعوة إلى فصل الدين عن الدولة، وعلمنة النظام المصرى، ورفض الحجاب، واقتلاع الإسلام من النفوس والرءوس بدعوى تجديد ما يسمى «الخطاب الدينى» مسايرة للدول الصليبية الاستعمارية التى تشن الحرب على الإسلام والمسلمين.

وكان الأزهر فى كل الأحوال مساندًا للشعوب العربية، والإسلامية فى قضاياها العادلة، وكان صوته يصل إلى أسماع العالم دفاعًا عن المظلومين، والمضطهدين، والمقهورين. وكانت قضية فلسطين واغتصابها من جانب العصابات اليهودية الغازية، فى مقدمة المواقف التى أعلن فيها الأزهر رأيه الصريح بوصف فلسطين وقفًا إسلاميًا لا يجوز لأحد التنازل عنه، ودعا المسلمين إلى تحريرها، وتحرير القدس، والمسجد الأقصى، وأصدر فتواه الشهيرة عام ١٩٥٥، وفتاوى أخرى فى سنوات لاحقة تؤكدها بتحريم التعامل، أو التفاوض، أو التصالح مع الغزاة الصهاينة الغاصبين. أيضًا كانت قضايا البوسنة والهرسك وكشمير ومسلمى الفلبين والشيشان، وأمثالها محل اهتمام الأزهر الذى أيّد المسلمين، ودعا إلى مناصرتهم، ومساعدتهم، والوقوف إلى جانبهم ماديًا ومعنويًا، فضلاً عن استقباله مبعوثى الدول الإسلامية من الطلاب، والباحثين، ورعايتهم حتى يتخرجوا فاقهين لدينهم، حاملين لرسالته الغرّاء، داعين لها فى بلادهم.

ولم يترك الأزهر القضايا المستحدثة التى تشغل العالم، أو يُشغل المستعمرون العالم بها دون أن يدلى بدلوه، ورأيه الذى يحدث صداه لدى من يعنيهم الأمر. كان له رأيه فى وصول الإنسان إلى القمر، والدوران فى الفضاء، وأعلن علماؤه رأيهم فى الاستنساخ، ونقل الأعضاء أو زراعتها، وكان له موقفه المشرف فى عهد الشيخ «جاد الحق على جاد الحق» فى مؤتمرات المرأة الدولية التى انعقدت فى القاهرة، وبكين وغيرهما وأراد المحركون لها تمرير قوانين دولية تتنافى مع الإسلام، مثل إباحة الشذوذ، وإباحة العلاقات الجنسية بين الرجال والنساء، وإباحة زواج المثليّين، والمساواة فى الميراث، وتحريم الختان، وتعدد الزوجات، والطلاق.. مما يروج له الغرب الاستعمارى، ويسعى إلى إشاعته بين الشعوب المسلمة لتدمير تماسكها، وتفتيت كيان الأسرة المسلمة.. كانت بيانات الأزهر صريحة وحاسمة..

إن الأزهر الصرح العلمى الذى يريد الأشرار فى الداخل والخارج محوه من صفحة الوجود الإسلامى، سيظل قلعة شامخة، وسيستعيد بإذنه تعالى دوره القديم الجديد، وسيأتى الوقت الذى يأخذ فيه زمام المبادرة ليعدّل مناهجه بما يؤهله لمواصلة عطائه فى تجديد وعى الأمة بدينها، وبمهمتها الإنسانية.. وقبل ذلك وبعده فى «تحرير الإسلام» من قبضة طالبى دمه، والمطاردين له، والمتآمرين عليه، والذين يظنون أنهم بقوتهم المادية يستطيعون محوه، أو استئصاله، أو تهميش دوره ورسالته، وصدق الله إذ يقول: ﴿**إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ**﴾ [البروج: ١٢- ١٦].

••••

٢٠

فى السبعينيات، ظهر على شاشة التلفزة المصرية والعربية، فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى -رحمه الله- يقدم خواطره حول القرآن الكريم. لفت الرجل انتباه الناس على اختلاف مشاربهم، ومستوياتهم، وشرائحهم؛ فقد رأوا فيه ظاهرة جديدة، تمثل السهل الممتنع، تفسر القرآن الكريم بصورة قريبة من أفق العامة، وتشبع الخاصة، مع قدرة على التواصل مع الجمهور الذى يجلس أمام الشاشة، سواء كان هذا الجمهور فى مصر، أو فى المغرب، أو فى إندونيسيا، بل إن غير المسلمين فى العالمين العربى والإسلامى وقفوا أمام الرجل الظاهرة باندهاش كبير، وتساؤل أكبر يتلخص فى: كيف خفيت عظمة الإسلام علينا حتى جاء هذا الرجل ليجلّيها، ويبسطها بأسلوبه السهل الممتنع؟

امتدّ الاهتمام بالشيخ الشعراوى إلى كل مكان فى العالم، وراحت محطات الدول العربية، والإسلامية تتنافس فى إذاعة حلقاته على الشاشة وعبر الأثير.

وقبل ظهور الشيخ الشعراوى، كانت كلمة «الرجعية» هى الاسم الكودى الذى يطلق على الإسلام، والمطالبين بإطلاق سراحه، وكان المقابل لكلمة «الرجعية» كلمات أخرى أكثر شيوعًا فى وسائط الإعلام، من صحافة، وإذاعة، وتلفزة، ومحاضرات، وندوات.. إلخ، من هذه الكلمات: «التقدمية» و«الاشتراكية» و«التحررية» و«الثورية».. وكأن الإسلام لا يحمل مضامين التقدم، والعدالة، والحرية، والثورة على كل ظلم وطغيان. وصل الأمر فى الأدبيات السابقة على فترة السبعينيات أن

خلت الخطب، والاحتفالات، والندوات وغيرها من البدء باسم الله أو «البسملة»، ونادرًا ما تجد خطيبًا أو متحدثًا يستشهد بآية قرآنية أو حديث شريف، وشاع في الأوساط الثقافية والإعلامية -وكان معظمه دنيوى الاتجاه- أن الدين «موضة» قديمة..

بعد حرب رمضان واستعادة المعجم الإسلامى، وظهور الشعراوى وآخرين، شعر الناس بأنهم عادوا إلى هويّتهم الحقيقية الأصيلة، وأخذ برنامج الشعراوى فى التلفزة، والإذاعة يجذب الكثيرين، ويقدم لهم دينهم بطريقة تتجاوز الخطب الميتة، والإنشائيات الجوفاء، وأخذ الكثير من البشر يعودون إلى قراءة القرآن الكريم، واكتشاف معطياته التى غُيّبت عنهم طويلاً بفعل ظروف عديدة لا مجال للخوض فيها هنا، ولكنها فى نهاية الأمر أحدثت انقلابًا كبيرًا، وعظيمًا فى الساحة الثقافية والإعلامية. وهو ما جعل «الدنيويين» من ماركسيين، وعلمانيين، وملاحدة وأفاقين، يشتعلون غضبًا، ويتنادون لمواجهة الظاهرة الإسلامية عمومًا، والشعراوى خصوصًا، وبدأت حملة التشويش الدنيوية تتخذ أساليب متعددة، تتجاوز الهجوم الصحفى والإعلامى إلى تحريك موعد البرنامج تليفزيونيًا، وكان الناس قد اعتادوا على انتظاره أسبوعيًا فى المساء فى وقت تجمع الأسرة، وعودة الناس من العمل، ويسمى إعلاميًا وقت الذروة، وتم تحويل الموعد الأسبوعى إلى وقت الظهيرة يوم الجمعة الذى ينصرف فيه الناس إلى زيارة أقاربهم، أو التسوق، أو التنزه، أو تناول طعام الغداء والانشغال به. ومن المفارقات أن الناس لم يتأثروا بهذا التعديل فى وقت إذاعة البرنامج، فبعد أسابيع قليلة تعودوا الوقت الجديد، وتكيّفوا معه، ولكن مذيعة قديمة لها

برنامج إذاعى أسبوعى، صرخت من أجل تحويل برنامج الشعراوى إلى وقت آخر لأنه استقطب مستمعى برنامجها، أو أفقدها جمهورها، ولكن القوم لم يكن أمامهم غير الرضوخ أو التراضخ للأمر الواقع.. وظل البرنامج فى موعده حتى رحيل صاحبه إلى رحمة الله.

الشاهد فى الأمر أن الإعلام العربى عمومًا، والمصرى خصوصًا، وكذا الثقافة الراهنة فى مجموعها، تأخذ موقفًا غير منصف من الإسلام والتعريف به. فمنذ تم تقييد الأزهر وإضعافه بالقانون ١٠٣ لسنة ١٩٦١، وتركيز أجهزة الدعاية على الدعوات الثورية، والاشتراكية، والقومية، والماركسية، والعلمانية، فقد تراجع وجود الإسلام فى هذه الأجهزة إلى مستوى غير مقبول فى بلاد يُفترض فيها أنها إسلامية فكرًا وثقافةً وسلوكًا وتطبيقًا. ولكن الحاصل أن الاهتمام بأمر الإسلام انحصر فى «مراقبات دينية» بالإذاعة، والتلفزة، وصفحات دينية أسبوعية فى بعض الصحف اليومية، وما يُبث أو يُنشر فى هذه المرافق يدور فى فلك المواعظ الإنشائية حول بعض القيم الخلقية، ولا يدخل إلى صميم معطيات الإسلام وارتباطه بحركة الناس والمجتمع والمستقبل، فضلاً عن الدعاية لبعض المسئولين..

كان هناك شبه اتفاق بين الدول العربية على جعل فترات البث فيما يخص مفاهيم الإسلام فى أوقات ميتة لا يتابعها أو يشاهدها أحد؛ فترات الصباح الباكر أو الليل المتأخر، حيث يكون الناس فى أعمالهم، أو فى غرف نومهم يحلمون!

وما زال هذا الاتفاق أو شبه الاتفاق قائمًا، حتى فى شهر رمضان المبارك من كل عام، حيث تكتظ التلفزة، والإذاعة بالبرامج، والمسلسلات، والندوات، ويكون نصيب الترفيه الردىء، والفكر السطحى، وتجار الفن

الهابط وسماسرة الكرة معظم هذه الندوات، والمسلسلات، والبرامج، أما نصيب الإسلام ومفاهيمه وقيمه فهو ضئيل للغاية، ويتم ترحيل ما يخصه إلى الأوقات الميّتة التي لا تحظى بالمشاهدة، أو لا يكون فيها مشاهدون إلا أفرادًا قلائل، قد لا تكون المادة الإسلامية أساسًا بعيدة عن اهتمامهم!

وقبل أن أتناول طبيعة المادة الإسلامية التي تقدم عبر أجهزة الإعلام، أود أن أشير إلى إيجابية مهمة في هذه الأجهزة، وهي إذاعة القرآن الكريم من القاهرة، التي أسسها رجل فاضل اسمه الدكتور محمد عبد القادر حاتم الذي كان وزيراً للإرشاد القومي والثقافة، ثم صار نائبًا لرئيس الوزراء في مرحلة حرب رمضان ضد العدو اليهودي، وقد كانت مبادرته لإنشاء إذاعة القرآن الكريم في النصف الأول من الستينيات في القرن الماضي، على عهد الرئيس الأسبق «جمال عبد الناصر». ومع أن الموجة التي كانت سائدة في ذلك الوقت هي الاشتراكية والارتباط بالاتحاد السوفيتي الذي كان يقود الشيوعية الدولية وسقط مع بداية التسعينيات، فإن إنشاء هذه الإذاعة كان نقطة بيضاء في أيام سوداء، يرجع فيها الفضل بعد الله، لهذا الرجل المسمى الدكتور حاتم، ولا يقلل من هذه الإيجابية كون النظام الناصري يحاول أن يدفع بها عن نفسه تهمة الإلحاد والشيوعية، فقد يؤجر المرء أو يثاب رغم أنفه، وقد أثيب النظام الناصري رغم أنفه حيث صارت إذاعة القرآن الكريم نموذجًا تحتذيه دول عربية أخرى؛ فهناك إذاعات للقرآن الكريم في السعودية، والكويت، والإمارات، وتزمع السلطة الفلسطينية في الضفة الغربية إنشاء إذاعة جديدة للقرآن الكريم، وهذا من فضل الله على المسلمين، وسط الحصار الاستعماري العلماني الخانق.

●●●●

٢١

يكفى أن تقدم إذاعة القرآن الكريم تلاوة، وتجويداً بأصوات مشاهير القراء، فتحفظ دستور المسلمين من الضياع، وتنبه الناس إلى حفظه وفهمه، ولو كان ذلك على المدى الطويل. بيد أن ما يحدث فى الإذاعات وقنوات التلفزة والصحافة، يحول الإسلام إلى شىء جامد بارد، لا يقبل عليه الصغار أو الكبار، فالمساحة الزمنية والورقية المتاحة للمادة الإسلامية ضئيلة لا تتجاوز نصف ساعة يوميًا فى التلفزة، وساعة وعشر دقائق فى الإذاعة على أحسن الفروض، وربع صفحة فى بعض الجرائد اليومية. أما المادة نفسها فهى محصورة فى إطار إنشائى بعيد عن تناول قضايا الواقع والأمة من خلال منظور إسلامى، وهناك محاذير عديدة تنسحب على الإذاعات والتلفزة والصحافة، يجب عدم الاقتراب منها، لأن ذلك يوقع المتحدث أو الكاتب مع المسئول تحت طائلة المساءلة والحساب. . .

لا مجال للحديث عن السياسة، أو الاقتصاد، أو التعليم، أو التجارة أو المصارف، أو الزراعة، أو الثقافة، أو غيرها من منظور إسلامى. الدخول إلى هذا السياق، خاصة بعدما ظهرت تقليعة «تجديد الخطاب الدينى»، صار أمرًا صعبًا بل مستحيلاً، لأن الإسلام بمعناه الإلهى محظور، والمطلوب فى هذه الآونة أن يكون الإسلام على النمط الأمريكى، أى: النمط الذى ترتضيه أمريكا وتوافق عليه. وأمريكا لا توافق على سياسة إسلامية ولا اقتصاد إسلامى، ولا تعليم إسلامى، ولا تجارة إسلامية، ولا زراعة إسلامية، ولا مصارف إسلامية ولا ثقافة

إسلامية . . . إنها تريد إسلامًا أمريكيًا يوافق على التبعية والتغريب، وينبذ الجهـاد ويفرط فى الأوطان والثروات، ويقـبل بضيـاع القدس وفلسطين، ويسـتـسلم لإرادة الأعـداء، والغـزاة، ويتناسى جـرائمـهم، وتاريخـهم الدموى، وحاضرهم الإرهابى الاستئصالى . . .

وسـائط الدعاية لا تمتلك حـرارة الاعتـزاز بالإسلام هوية، ومـاضيًـا وحاضرًا، ومـستقبـلاً، فضلاً عن كونه عـقيدة؛ لأنها وقـعت تحت تأثير سلطة ثقافية تشبعت بالتغريب وتصوراته، لذا فالإسلام عبر هذه الوسائط يبدو كيـانًا هلاميًا غريبًا بعيـدًا عن الواقع، بل يبدو أحيانًا مثـيرًا للخجل والسخرية بوصفه إطارًا جامدًا معاديًا للبهجة، والفرح، ويستوى فى ذلك ما يلـقيه العلمـاء، والمتحـدثون المسمـوح لهم، أو ما تتـضمنه الأعـمال الدرامية من إشارات أو ملامح إسلامية.

وعلينا فى هذا السـياق أن نشـير إلى أن القنوات التلفـزية الفضـائية، أخذت مؤخرًا تخرج على النمط السائد إلى حد ما فى القنوات الأرضية، فيمـا يتعلق بعرض الإسلام، وعلاقـته بالواقع، فقد استـضافت عددًا من الكُتّاب، والمفكرين الذين يخضعـون لمنهج الإسلام، ولا يخضعون لمنطق الحكومات، ويتناول هؤلاء الكتاب، والمفكرون ما يعرض عليهم من قضايا بحـرية ملحوظة، وجـرأة ملموسـة، بيـد أن القنوات الفضـائية لا تتـاح مشاهدتها إلا لفئات محدودة من جمهرة الناس، على العكس من القنوات الأرضية التى تتمـتع بنسبة مشاهدة عالية، نظرًا لأن الأغلبيـة الساحقة من الناس لا تملك أطباقًا لاقطة.

ومع هذا، فإن واقع الإسلام فى وسائط الدعاية يظل موضع تساؤلات

عديدة بسبب محدوديته، وإنشائيته، ودورانه فى دائرة ما يعرف بالقيم الفردية، بعيدًا عن دائرة القيم الاجتماعية، فيتصور من يتعاملون مع هذا الواقع الإعلامى أن الإسلام مجرد مسألة شخصية تتعلق بصاحبها، ولا تتجاوزه إلى جميع المجتمع، وما تعاينه من مشكلات وما تحلم به من آمال، وما يرتبط بها من تنظيم حضارى عام. إن واقع الإسلام فى المجال الإعلامى يطالع الناس على استحياء، فى أوقات النوم، أو الأوقات الميتة كما سبقت الإشارة، مما يعنى أن المشاهدين، والمستمعين، والقراء، لا يتعاملون أساسًا مع الإسلام فى المجال الإعلامى إلا فى نطاق ضيق للغاية، لا يُسْمِن، ولا يغنى من جوع!

إن الكوادر الإعلامية، والصحفية على امتداد الوطن العربى فى معظمها، نشأت على تراث ثقافى غربى معادٍ للإسلام، وجاهل به، وبعيد عن روحه، وبعض هذه الكوادر يخدم الثقافة الغربية الاستعمارية خدمة صريحة لا يخافت بها، وكثير من هذه الكوادر، بل كل هذه الكوادر تخضع شاءت أم أبت لأنظمة مستبدة فى معظم أرجاء بلاد العرب، تجعل الإسلام عدوها الأول، وتراه الخطر الحقيقى على ممارساتها القمعية الإرهابية ضد المواطنين العزل؛ لذا فإن هذه الكوادر إجمالاً لا تتعاطف مع الإسلام فى عطائه الإلهى؛ ولا تحبذ التعامل معه بوصفه تصورًا وتطبيقًا لحياة الناس، ومصير المجتمع، وتلك مأساة كبرى!

من ناحية أخرى؛ فإن الأعمال الدرامية التى تُقدَّم للناس، يميل معظمها إلى تقديم صورة جهمة وبشعة للإسلام، فى الماضى والحاضر، صورة يغلب عليها الصراخ والجهامة والتوحش. فى السينما مثلاً يظهر

المتدين بصورة مزرية، ومثيرة للسخرية، أو الرثاء، فالمأذون ومدرس اللغة العربيـة، وقارئ القرآن الكريم، ومحـفظه وغيرهم، يظهـرون فى صورة البله، أو المجانين، أو الدراويش، أو الجشـعين الذى يرتدون ملابس قذرة وغيـر لائقة، أو يمارسـون الفصـام النكد بين أقوالهـم وسلوكهم أو غيـر ذلك. . .

ما يحـدث فى السينما عـلى امتداد تاريخـها الطويل، فاقـمته مـوجة جـديدة على مدى السنـوات الماضيـة، بظهـور المتدين فى صـورة إرهابى دموى متوحش، يقتل من أجل القـتل، ويسرق، وينهب، ويستحل أموال الغير، ويسعى لإشباع شهواته وملـذاته، ويتخذ من الإسلام لافتة يتخفى وراءها، وفى المقابل فإن السينما لم تقدم الشخصية المتدينة التى تمثل النمط الإيجابى فى الفكر والسلوك. إنهـا تقدم إلى جانب صورة المتـدين الشاذ صورة الإنسان المتحلل المقلد للغـرب، لا يعبأ بدينه ولا بأخلاق الإسلام، بوصفه الصورة الجيدة، والمثالية التى يجب الترويج لها!.

وما يحدث فى السينما، يحـدث نظير له على المسرح، وفى المجالات الثقافـية الأخرى: الأدب، والشعـر، والرواية، وتحتفى مؤسـسات النشر والتثقـيف الجماهيرى، والأجهزة الثـقافية المختلفـة بالنموذج الغربى الذى تعد أوروبة منتـجًا له، وللأسف فالنموذج الغـربى الذى تحتفى به الثـقافة الرسـمية لا يمـثل هذا النموذج فى صـورته الفاعلة، والمؤثرة، والقـوية، ولكنه يمثل النمـوذج الغربى فى أحط تجلياته وأسـوأها: انحلالاً خلقـيًا، وانفلاتًا فكريًا، وخيبة شاملة فى العمل والإنتاج!

الإسلام لا وجود له بالمعنى الحقيقى فى المجال الثقافى، وإذا وجد فهو يأتى فى صورة مشوهة، ومشوشة، وكثير من النخبة الثقافية، يستنكفون أن ينتسبوا إلى الإسلام، وثقافته بحال، بل إن بعضهم يرفع راية العداء السافر له، ويطالب بالتخلى عن إسلامية الدولة والحكم، وإعلان علمانية النظام، وتحريم الحجاب، وتعدد الزوجات، وتقليد الغرب تقليداً تاماً والارتماء فى أحضانه!، على النحو الذى سبقت الإشارة إليه.

إن موقف الإعلام العربى من الإسلام سلبى فى مجموعه، فضلاً عن تقصيره فى مجال الدعوة إليه، والتعريف به وربطه بالواقع والحياة، وهو ما يستدعى إعادة النظر فى هذا الموقف جملة وتفصيلاً.

●●●●

٢٢

لم يتوقف الصليبيون الاستعماريون الغزاة للحظة واحدة عن العمل لإقصاء الإسلام ثم استئصاله بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة؛ عن طريق عملائهم، أو النخب التى دربوها واحتضنوها، وتشبعت بثقافتهم فى جانبهما المنحط، والمبتذل.

ولا أجدنى قادرًا على استعراض تاريخ الصراع الصليبى الاستعمارى مع الإسلام فى هذه المناسبة لضيق المجال، ولكنى أشير إلى مجمل ما فعله الصليبيون الاستعماريون المحدثون مذ وطئت أقدامهم بلاد المسلمين على عهد نابليون بونابرت حتى سقوط بغداد -عاصمة الخلافة الإسلامية- على يد «جورج بوش» الابن فى أبريل ٢٠٠٣م.

الاستعمار الصليبى المباشر يهدف إلى إخضاع المسلمين لمشيئته، مع إذلالهم فى كل الأحوال وحرمانهم من التعبير عن إرادتهم الإسلامية، فضلاً عن سلبهم حريتهم وثرواتهم، وكان يركز على تدمير أية مقاومة تواجهه، وخاصة المقاومة التى ترتكز على التصور الإسلامى، أى الجهاد ضد الغزاة. وكان ذلك دافعًا له كى يقضى على الإسلام أو يقصيه أو يستأصله بكل وسيلة متاحة.

فى عهد كرومر الذى حكم مصر فى ظل الاحتلال البريطانى، نحو عقدين من الزمان، أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين، فإنه وضع نظامًا للتعليم يبعد المصريين عن الإسلام، ويقربهم من الثقافة

الإنجليزية البروتستانتية، واستمر الوضع زمنًا بعد رحيله على يد مستشاره (دنلوب) وهو قسيس اسكتلندى من غلاة المستعمرين المتعجرفين المتغطرسين الذين يحتقرون الإسلام، والشعوب الإسلامية.

وسبق الفرنسيون كرومر على مدى القرن التاسع عشر فى تأسيس المدارس الفرنسية، وإرسال البعثات التبشيرية والعلمانية إلى مصر والشام لنشر لغتهم وثقافتهم، فقد عمدت فرنسا إلى بسط نفوذها الثقافى بمصر بتأسيس أول مدرسة فرنسية عام ١٨٤٤ على يد الآباء العزاريين، ثم جاء الفريريون وأسسوا أول مدرسة لهم عام ١٨٤٥، ثم جاءت راهبات المحبة «منشئات أخوية الراعى الصالح» وأسسن مدرسة لتربية البنات عام ١٨٤٦، وحذا حذوهن الراهبات الفرنسيكان وأنشأن مدرسة بالقاهرة عام ١٨٥٩ بالقرب من الأزبكية، وأخرى ببولاق سنة ١٨٦٨ وغيرها بالمنصورة سنة ١٨٧٢. وقد أمَّ هذه المدارس كثير من الطلبة، والطالبات من كل جنس حتى بلغ عددهم فى عهد إسماعيل ما يزيد على ثلاثة آلاف طالب، وطالبة وعلى الرغم من أن الغرض الرئيسى لهذه البعثات كان نشر الدين الكاثوليكى، وخدمة الاستعمار الفرنسى، والتمكين لنفوذ فرنسا الأدبى فى مصر.

وقد وصل عدد التلاميذ بالمدارس الفرنسية فى مصر حسب تقرير وزارة المعارف سنة ١٩٣١ - ١٩٣٢، أكثر من ٤٢ ألف تلميذ وتلميذة، ويزيد هذا العدد على ضعف مجموع الطلاب الذين يتعلمون فى المدارس الأجنبية بمصر سواء كانت إيطالية أو أمريكية أو إنجليزية أو يونانية، مما ترتب عليه انتشار الفرنسية فى مصر، وتمسك الأجانب بها عامة، وجعلها

لغتهم الأولى فى التعامل، وساعد ذلك على انتشار الأدب الفرنسى، وبراعة بعض المصرين فى النظم بالفرنسية! ما حدث فى مصر حدث على نطاق أوسع فى الجزائر حين «تفرنس» المجتمع تمامًا على مدى ثلاثين ومائة عام، وقد شاركت الولايات المتحدة الأمريكية فى هذا الميدان بإنشاء المدرسة الأمريكية (الجامعة الأمريكية فيما بعد) فى لبنان ومصر، لتكون مركزًا للتبشير فى العالم العربى، ومازالت المدارس والجامعات الفرنسية والإنجليزية، والأمريكية تقوم بدورها فى إقصاء الإسلام، والأرثوذكسية أيضًا، لحساب الكاثوليكية والبروتستانتية!

المدارس والجامعات الأجنبية خَرَّجت نخبًا ولاؤها للثقافة الاستعمارية الصليبية، وهذه النخب انعقد لها على مدى القرن الماضى حتى الآن قيادة الفكر، والثقافة، والأدب، والسياسة فى عالمنا العربى، تحت رايات مختلفة، وأحزاب متعددة. وعبرت هذه الرايات عن توجهات قومية أو قطرية أو طائفية أو شعوبية...

وبدا فى القرن الماضى يتردد سؤال: من نحن؟ طرح هذا السؤال فى مصر، وفى غيرها من البلاد العربية.. هل نحن عرب؟ هل نحن فراعنة أو فينيقيون أو بابليون أو سبئيون، أو زنوج، أو بربر، أو أفارقة..؟ هل نحن مسلمون؟ هل نحن متوسطيون (نسبة إلى البحر المتوسط)؟ هل نحن اشتراكيون؟ هل نحن رأسماليون؟ هل نحن عالم ثالث؟ هل...

السؤال يأخذ أشكالاً متعددة، ومتنوعة، ولكنه فى معظم الأحوال، سعى لتخطى الانتماء الإسلامى، وخاصة فى فترة «المد القومى» بعد

الاستقلال عن الدول الصليبية الاستعمارية، انطلاقًا من كون العالم العربى يضم مواطنين غير مسلمين، مما يرتب على الأغلبية الإسلامية أن تنحى الإسلام جانبًا لصالح القومية العربية. . . أى إن الإسلام يصبح مجرد عبادة شخصية، لا علاقة لها بحركة المجتمع، أو الأمة. وتصير القومية هى الإطار الذى يجمع الأقلية مع الأكثرية. . . وكانت ثورة ١٩١٦ التى قادها الشريف حسين، وسميت بالثورة العربية، ضد الخلافة العثمانية بتحريض من الدول الصليبية الاستعمارية (إنجلترا وفرنسا خاصة) ودعمها، إيذانًا بانطلاق فكرة القومية العربية التى تبلورت فيما بعد بإنشاء أحزاب وتنظيمات قومية أبرزها: حزب البعث فى سورية والعراق، والاتحاد الاشتراكى العربى فى مصر على عهد الرئيس السابق «جمال عبد الناصر»، وقد امتدت هذه التنظيمات والأحزاب إلى العديد من الدول العربية بصورة وأخرى.

بيد أن الفكرة القومية، وخاصة بعد هزيمة ١٩٦٧، أصيبت بانتكاسة كبيرة، حيث اختلف البعثيون فى دمشق وبغداد، وبدأت تظهر فى الدول العربية دعوات لإحلال الوطنية محل القومية، وبعث الهويات القديمة ورموزها: الفرعونية، الفينيقية، البابلية، السبئية، البربرية، الزنوجة. . . إلخ، ولم تجد الدعوات الانعزالية، ونبذ فكرة القومية، أو العروبة غضاضة فى المجاهرة بآرائها وأفكارها، بل صار هناك مثلاً من ينكر أن مصر ليست عربية ولا تمت إلى العروبة بصلة، وظهرت كتب، وصحف، ومقالات وأحزاب تؤكد على ذلك، وتدعو إلى نبذ اللغة العربية، والكتابة باللهجة العامية، وبعث اللغات المصرية القديمة، مثل الهيروغليفية. . .

لم يتوقف الأمر عند هذه الحدود، بل تعداه إلى بروز دعوات طائفية، تَدَّعِى مثلاً أن المسلمين فى مصر هم عرب غزاة ومحتلون، جاءوا مع الاستعمار العربى الذى احتل مصر منذ عام ٢٣هـ!! بل صور بعضهم أن «عمرو بن العاص» الصحابى الجليل هو مجرد قائد استعمارى غزا مصر بالقوة واحتلها! مما يعنى أنه يجب على المسلمين أن يرحلوا عن مصر، ويتركوها لأهلها غير المسلمين!

بدأت الفكرة الاستعمارية بتفكيك الخلافة الإسلامية عن طريق القومية، ثم تفكيك القومية عن طريق الإقليمية، وتفكيك هذه عن طريق الطائفية، والعرقية، وهلم جراً. . .

●●●●

٢٣

كانت الحلقـة الأولى التى ينبغى تفكيكها فى إطـار المواجهة الصليبيـة الاستعمار للإسلام هى حلقة الخلافـة الإسلامية بقصد القضاء على النظام العام الذى يجـمع المسلمين تحت راية واحدة، ويصنع منهم كتلة جـامعة، تتصدى للعدوان الصليبى الاستعمارى.

وكانت الخلافة العثمانية هى آخـر نظام للخلافة الإسلامية، استطاعت عند قيامها أن تحـقق حلمًا إسلاميًا قديمًا بإسقاط الهيـمنة الأوروبية المتمثلة فى الدولة الرومانية، والبـيزنطية من بعدها، فقد اصطلـت شعوب الشرق قبل الإسلام وبعـده بحروب بشعة شنهـا الأوروبيون دون هوادة، وبلغت ذروتها فى الحروب الصليبية التى استمرت قرونا، ومازالت حتى اليوم.

فتح العثمانيون القسطنطينية، وتوغلوا فى قلب أوروبة، وكان ذلك ردًا معنويًا على الهزيمة القاتلة التى لقيها المسلمون فى الأندلس، حيث سقطت فى يد الصليبـيين الهمج بقيادة «فرديناند» و«إيزابـلا»، وتبع ذلك السقوط الداوى وحشية غيـر مسبوقة حيث قام الصليبيـون المنتصرون بمذابح بشعة ضد المسلمين، وأقـاموا محاكم التـفتيش، وأرغـموا من بقى من المسلمين على أرض الأندلس إلى نفى دينهم، ولغـتهم، ومـلابسهم، وعـاداتهم، وتقاليدهم ليكونوا صليبيين تمامًا، وأطلقوا عليهم اسم «الموريسكيين» تمييزًا لهم عن الصليبيين الغزاة!

ولا ريب أن الدولة العـثمـانيـة قامت بدور مـهم فى الدفـاع عن بلاد

الإسلام على مدى أربعة قرون، ولكنها لم تأخذ بأسباب التقدم، والتفوق الأساسية، وهى العدل، والمساواة، والشورى، والحرية، والوعى بروح الإسلام وقيمه وأخلاقه، وسادت المظالم فى شتى أرجاء الولايات العثمانية، فغزاها الضعف، والوهن، والعجز، وطمع فيها الأعداء المتربصون من قادة الاستعمار الصليبى الجدد (إنجلترا وفرنسا خاصة)، واستطاع هؤلاء استعمار الشواطئ الإسلامية فى البحر الأبيض، والمحيط الأطلسى وبحر الهند والبحر العربى، ثم تغلغلوا إلى داخل الدول العربية، والإسلامية وفرضوا على مدى القرنين الثامن عشر، والتاسع عشر هيمنتهم على معظم أراضى الخلافة العثمانية، وفى الوقت ذاته تغلغل النفوذ اليهودى والصليبى داخل دوائر الحكم فى استانبول (الآستانة سابقًا)، فاهتز البنيان، وترنح، وسقط مع هزيمة تركيا فى الحرب العالمية الأولى، وقام نظام علمانى عميل يقوده «مصطفى كمال أتاتورك» ينبذ الإسلام، واللغة العربية، والشريعة، ويؤسس لقومية طورانية تنعزل عن بلاد الإسلام، وتكرس التبعية للعالم الصليبى الاستعمارى، إلى الدرجة التى جعلته -وهو يحتضر- يفكر فى إقامة السفير البريطانى فى أنقرة حاكمًا لتركيا!

على الساحة العربية، أقنعت بريطانيا وفرنسا بعض الحكام العرب بإعلان الثورة ضد الدولة العثمانية عام ١٩١٦ وإعلان الانفصال عن الدولة العثمانية، تمهيدًا لإعادة الخلافة الإسلامية إلى العرب، مع وعد باستقلال العرب عن الدول المستعمرة لبلادهم، ولكنه وعد المكر والخديعة، فما كادت الخلافة تنفصم عراها، وتتفكك إلى دويلات وإمارات، حتى أحكم الصليبيون المستعمرون قبضتهم على جميع الدول

الإسلامية المحتلة، وأشعلوا فيها صراع القوميات، والأعراق، وصار العرب دولاً شتى، وإمارات متعددة، لا يجمعها جامع، ولا يربطها رابط إلا رابط الذل، والتبعية للصليبيين الغزاة...

انهدم البنيان الإسلامى الذى كان يجمع الألوان والأعراق والطوائف فى تناغم باهر تحت راية «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وفى الخرائب نمت الجراثيم الفتاكة، والحشائش الضارة، والزواحف القاتلة، وكانت ثورات وانقلابات ودماء، وتعذيب وسجون وإهدار أموال وطاقات، والعدو الصليبى الاستعمارى يستمتع بالمشاهد الدامية الحزينة التى تعرض عليه، فهو ينزح ثروات المسلمين الضعفاء، ويسوق منتجاته فى بلادهم، ويهيمن على حاضر المسلمين ومستقبلهم، ويصنع على عينه نخبة ثقافية موالية له ومتيمة به، كارهة لإسلامها، رافضة لتراثها المضئ، تردد ما يقوله العدو الصليبى الاستعمارى كما الببغاء، لا تتوقف بعين العقل والنقد عن مقولاته أو تصوراته، بل تأخذها وحيًا مقدسًا، فى الوقت الذى لا تكف فيه عن السخرية من قيم الإسلام ومقاصده وتشريعاته.. هذه النخبة الثقافية كانت الظهير الذى يحمى الفكر الصليبى الاستعمارى فى بلاد المسلمين، وكانت الطليعة التى بيدها مقاليد الإدارة والتوجيه والقيادة فى ربوع الإسلام!

هناك من يقول، ومتى اتحد المسلمون على مدى التاريخ؟ إن الفترات التى توصف بالوحدة، أو الاتحاد كانت محدودة زمنيًا، وتمت فى ظروف استثنائية. أما الأصل أو القاعدة، فهى حروب دائمة وصراعات مستمرة بين الدويلات، والإمارات، والولايات التى كانت تضمها الدولة الإسلامية

ويستشهدون بالصراع على الخلافة بعد وفاة الرسول ﷺ، وصراع الأمويين والعلويين أو العباسيين، وثورات الزنج والقرامطة، والخوارج قبل هؤلاء وأولاء، ثم حركات الاستقلال التى قام بها الولاة فى شرق الخلافة وغربها على عهد الدولة العباسية وما بعدها.. إنهم يرون أن فكرة الخلافة لم تتحقق عمليًا على أرض الواقع تاريخيًا، وبالتالى لن يكون لها مستقبل.

وهذا كلام فيه تخليط وفساد، فالدولة الإسلامية كانت قائمة، وكانت وحدتها حقيقية راسخة، ولعلها أول من عرف ما يسمى الآن بالنظام الفيدرالى، الذى يمنح الولايات حرية العيش وفق الظروف المحلية والعادات، والتقاليد التى لا تتناقض مع مفاهيم الإسلام وقيمه، ولكنها جميعًا، تخضع لقانون عام ونظام شامل، يركز على أمن الدولة وسيادتها وقدرتها الاقتصادية والثقافية، وهو ما جرى عليه العرف فى الخلافة الراشدة، والأموية، والعباسية، والفاطمية، والعثمانية، وما كانت الثورات أو الصراعات من أجل الاستقلال على أساس قومى، أو عرقى، أو وطنى، ولكنها قامت بسبب خلل سياسى، أو اقتصادى، أو فكرى، أو قضائى أصاب الولاية أو أصاب جماعة من الناس، على النحو الذى فصلته كتب التاريخ..

إن تفكيك الخلافة وفقًا للأسس القومية والقطرية، كان ترتيبًا صليبيًا استعماريًا هدفه استباحة الأمة الإسلامية، والإسلام، والدليل على ذلك، أنه منذ انفراط عقد الخلافة؛ والدول الإسلامية التى تخلفت عنها عربًا وفرسًا، وهنودًا، وبنغالاً، وبلوشًا، وغيرهم لم يحققوا نجاحًا يذكر، وعاشوا هزائم غير مسبوقة عسكريًا واقتصاديًا وحضاريًا.

٢٤

شـهد العـالم الإسلامى نكسـات، وهزائم مـروعة منذ سـقوط آخـر سلاطين الدولة العثمـانية. كان المنتظر بعد السقوط، أن يقوم الهـاشميون الذين قـادوا ثورة ١٩١٦ بـقـيـادة العـالم الإسـلامـى، بدلاً من الدولة العثمانية، ولكن بريطانيا وفرنسا أعطوهم الإذلال، والمهانة، وتقسيم البلاد العربية فيما بيـنهما وفقًا لاتفاقات سرية، وعلنية عرفـها الناس فيما بعد. ووقع العالم العربى بأجـمعه تقريبًا تحت الهـيمنة الصليبية الاستـعمارية، وذرًا للرماد فى العيون مُنِحَ بعض الأمراء الهاشـميين إمارة صُغيرة «ولدت قيـصرية» اسمهـا إمارة شرق الأردن، التى تحـولت فيمـا بَعد إلى المملكة الأردنية الهاشمية، وعاث الصليبيـون الاستعماريون فى أرجاء بلاد العرب فسادًا، وإذلالاً، واستـعبادًا.. وسقطت الثورة العربية فى أول اخـتبار لها فى مواجهة العثمانيين والصليبيين جميعًا.

الكارثة الكبرى التى حلت بالعرب، والمسلمين، والإسـلام بعد سقوط الخلافة واحتلال البلاد العربية، كانت قيام أو إنشاء الكيان النازى اليهودى على أرض فلسطين فى وضح النهار بمعرفة الدولة الصليبيـة الاستعمارية، وتراخى الدول العـربية، وخـيانة بعض الـعرب، والفلسطينيين! صـدرت قرارات الأمم المتحدة والهيئات الدولية تستنكر قيام الكيان النازى، وتطالب بحقوق الشعب الفلسطينى الذى تحول مـعظمه إلى لاجئين، ومشردين فى أقطار الأرض... ولكن عـام ١٩٤٨ الذى شـهـد مـولد الكيـان النازى

اليهودى. وتشريد الفلسطينيين كان علامة فارقة على انهيار شامل أصاب الأمة العربية التى انسلخت عن الأمة الإسلامية، ولم تستطع الجامعة العربية التى قامت عقب الحرب العالمية الثانية أن تحقق هدفًا واحدًا حقيقيًا فى توحيد العرب ولَم شملهم لمقاومة العدو الصليبى الاستعمارى، أو العدو النازى اليهودى الذى أخذ يقوى ويتمدد، ويهزم العرب هزيمة أشد وأقسى فى عام ١٩٦٧، ويضاعف مساحته التى أقام عليها كيانه الإرهابى الدموى سبع مرات باحتلال سيناء، والجولان، وقطاع غزة والضفة الغربية والقدس الشريف!

وكلما علا الضجيج بالحديث عن القومية العربية، ازداد المد القطرى ترسخًا فى النفوس، والقلوب بسبب الهزائم المتلاحقة، واستشراء الاستبداد والقمع، فضلاً عن ظهور النفط وإنتاجه بكميات كبيرة، مما جعل أرباب النفط يستشعرون طمع الآخرين من بنى جلدتهم، فساد الخوف والتوجس، ومع أن العرب قاوموا الاستعمار الصليبى، وبذلوا العديد من آلاف الأرواح - وصلت أو تجاوزت المليون فى الجزائر - فإن المستعمرين الغزاة، جلوا عن الأراضى العربية تاركين وراءهم نخبًا تحكم باسم القومية العربية، والثورية، ولكنها موالية لهم فى حقيقة الأمر، أو تخدم مصالحهم وسياساتهم بطريقة ما.

أخفقت الفكرة القومية فى تكوين بناء موحد، أو اتحادى أو فيدرالى بسبب غياب الإسلام وركيزته الأولى - أعنى الحرية والعدل والمساواة - وكانت هناك تجربة للوحدة العربية بين مصر، وسورية لم تتجاوز ثلاث

سنوات ثم أخفقت إخفاقًا ذريعًا بسبب الاستبداد والقهر واستبعاد رأى الناس، وكان فترة الوحدة من ١٩٥٨ إلى ١٩٦١ من الفترات التى تصور الناس فيها نجاحًا مطردًا لفكرة القومية العربية، ولكن الانفصال كرس الفكرة القطرية بصورة أعمق من ذى قبل، بل إن الحزب الواحد فى العراق وسورية (أقصد حزب البعث) انشق على نفسه، وتبادل الطرفان سيل الاتهامات والتخوين بشكل غير مسبوق، مما ترتب عليه قطع العلاقات بين دمشق وبغداد لعدة عقود (ثلاثين عامًا تقريبًا) وكأن البلدين عدوان لدودان بينهما دماء وثارات!

وباسم القومية العربية تدخل الجيش المصرى فى اليمن لمساندة الانقلاب الذى قام به (عبد الله السلال)، وكانت الفكرة السائدة آنئذ أن الأنظمة الانقلابية، أو الثورية كما كانت تسمى، أكثر تحررًا وعدلاً ومساواة من الأنظمة الملكية، أو الرجعية كما كانت تسمى، ورأى جمال عبد الناصر - الرئيس المصرى آنئذ- أن دعم الانقلاب اليمنى ضرورة لتحقيق الحرية للشعب اليمنى. وقس على ذلك بقية الانقلابات العسكرية فى سورية والعراق، والسودان، وليبيا، وتونس، والجزائر، وغيرها، فقد صعد العسكر على ظهور الدبابات إلى كراسى الحكم باسم القومية العربية، والإعداد لحرب التحرير فى فلسطين وطرد الصهاينة الغزاة، ولكن واقع الحال، أثبت أن فكرة القومية العربية قادت العرب إلى حكم عسكرى شرس، أفقد العرب كرامتهم، وشرفهم، وعزتهم، وألحق بهم العار، والشنار، وجعل من الكيان النازى اليهودى الغاصب الإمبراطورية الأولى

فى المنطقة العربية التى سميت بالشرق الأوسط اعترافًا بوجوده، واستسلامًا له، ولم تتحقق فكرة الوحدة أبدًا.

كانت هنالك مشروعات لإقامة أنظمة اتحادية (كونفيدرالية أو فيدرالية) بين مصر وسورية والعراق واليمن، وبين مصر، وليبيا، والسودان، أطلق عليها مسميات من قبيل اتحاد الجمهوريات العربية، ولكنها لم تظهر إلى الوجود أبدًا، ولم تتجاوز الورق الذى كتبت عليه، وإن كان لها أحيانًا مقر رفع عليه علم يرمز إلى هذا الاتحاد المستحيل!

وبعد حرب رمضان ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م، نُشر إن الولايات المتحدة، عن طريق وزير خارجيتها الأسبق، هنرى كيسنجر، وضعت خطة لتجمعات إقليمية تهدف إلى السيطرة عليها من ناحية، وإثارة الحساسية بينها وبين بعضها من ناحية أخرى، ليسهل انقياد العرب جميعًا للإرادة الأمريكية، فأقيم مجلس التعاون الخليجى الذى يضم دول الخليج عدا العراق، وأعلن عن الاتحاد المغاربى بالإضافة إلى اتحاد الجمهوريات العربية الذى سبقت الإشارة إليه.. ولكن هذه الاتحادات لم تحقق نتيجة مثمرة؛ سياسيًا أو اقتصاديًا أو ثقافيًا، بل إن بعضها يجد صعوبة فى عقد مؤتمراته السنوية، فتؤجل إلى أجل غير مسمى... وفشلت هذه التجمعات فى حل المشكلات بين أعضائها (قطر والبحرين لم يحلا مشكلة الجزر الصغيرة بينهما إلا عن طريق محكمة العدل الدولية، ووزير خارجية قطر «حمد بن جاسم» قال فى حديث لقناة الجزيرة مساء ٢٠٠٣/١٢/٣١ إن بعض أعضاء مجلس التعاون الخليجى يتسابقون فى الوشاية بأعضاء آخرين فى المجلس للولايات المتحدة من أجل إثبات الولاء، وظلت العلاقات

مقطوعة بين مصر والسودان لعشر سنوات تقريبًا، والجزائر لم تتصالح مع المغرب بسبب البوليساريو وتأجل مؤتمر القمة المغاربي الذى كان مقرراً عقده فى الجزائر فى ديسمبر ٢٠٠٣م إلى أجل غير مسمى، وليبيا بينها وبين موريتانيا ما يطرق الحداد..).

عصر القومية العربية - بغض النظر عن صحة الفكرة أو خطئها - لم يحقق إنجازًا للعرب، أو خطوة إلى الأمام، على مستوى الوطن العربى، أو مستوى الشعوب، أو مستوى الأفراد.. فقد كان عصر بؤس وهوان بامتياز!

●●●●

٢٥

لكى نكون منصفين فإن العـرب يملكون شعوراً واحداً بالنسبـة للقضايا الكبرى التى يمرون بها فرادى أو جمـاعات، ولكن هذا الشعور الواحد لم يترجم عمليًا إلا فى مرات نادرة. منهـا موقفهم من العدوان الثلاثى على مصر، حيث كـانت مشاعرهم ضد الغزاة، ومع الشـعب المصرى المعتدى عليه، ومنها مـوقفهم عقب الهـزيمة الساحقة عام ١٩٦٧، حـيث اجتمع القادة العـرب فى الخرطوم، وقـرروا دعمًا مـاديًا للدول الثلاث المتـضررة بالهزيمة، فضلاً عن منظمة التحرير الـفلسطينية، وأصدروا قرارهم الشهير باللاءات الثلاث: لا تفاوض، لا صلح، ولا اعتراف بالعدو الصهيونى!

ثم كانت هناك وقفة جادة قـبل حرب رمضان وبعدها من بعض الدول العـربية لدعم الجـيشين المصـرى، والسـورى، وقطع البتـرول عن الدول الداعمة للعدو النازى اليهودى..

وتظل هذه الوقفـات تعبيـرًا عن موقف خلقى تفرضـه طبيعة الانتـماء الدينى الإسلامى، أكثر منه تعبيرًا عمـا يسمى القومية العربية، التى وضع المبشرون بها أسـسًا تستبعد الإسلام من عناصـرها، أو تضعه على أحسن الفروض فى مرتبة ثانوية!

الذين نقلوا فكرة القوميـة إلى البلاد العربية تنظيرًا وتأصيـلاً، اعتمدوا على الفكرة القـومية الأوروبيـة، وهذه أساسًا تسـتبعـد الدين من عناصر

تكوينهـا، وتجعل للـعرق واللغـة والتاريخ والأرض أسـبقيـة على بقيـة العناصر. وهذا بالضبط ما جعل فكرة القومية العربية تحقق خسائر أكبر مما تحقق من أرباح، فقد تصور واضعوها والمنافحون عنها أن اعتماد الإسلام فى حركة التوحد العربى سيلحق ضرراً بشركاء الوطن من النصارى أو غير المسلمين. ولكنهم أهـملوا فى الوقت نفسـه، شـركاء آخـرين فى الوطن والعـقيـدة وهم أبناء الأعـراق غيـر العـربية، مـثل: البـربر، والنوبيين، والأكـراد، والزنوج والتـركمـان وغـيرهم، وعـدد هؤلاء يزيد عن عـدد النصارى أو غيـر المسلمين، فضلاً عن دورهم العريق، والبارز فى مـسيرة الإسلام والمسلمين. . .

نفى الإسلام عن القـومية العربية مـع تأكيد الاستبـداد والديكتاتورية، كان من وراء هزيمة العرب هزيمة ساحـقة فى الداخل والخارج. لم يلتفت المنظرون إلى طبيعة الشعوب العربيـة، فهى شعوب لا تتحرك ولا تتفاعل ولا تنتصر إلا بالديـن. . هو طاقتها وهو الوقود الذى يجـعلها تعطى بلا حـدود، وتتفـوق أيما تفـوق بدونه لا تنجح فكرة ولا تـتحقق، ربما تجـد الشعوب الأخرى نفسها فى مشروع مادى ما، وتعمل من ورائه حتى يصير أمراً واقعـًا، ولكن العرب الذين كانوا قبـائل متناثرة ومتناحـرة، وعاشوا البـداوة والتنقل، لـم يزدهروا إلا بالإسـلام، لأنه هو الذى وحـدَّهم واستخرج مكنون طاقاتهم، فسادوا الأرض وهزموا أعظم إمبراطوريتين فى القرن الأول الهجرى، وفتحوا - بالإسلام وليس بالسيف - ما بين المحيط الأطلسى والسند والهند. أما القـومية العربية بالمفـهوم الأوروبى فلم تحقق شيئًا إلا الهزائم الساحقة.

لقد انتهت القومية العربية بهذا المفهوم بسقوط العراق وليبيا فى حجر الاستعمار الصليبى الأمريكى، فى مشهد من أشد المشاهد التى عرفها العرب قهرًا، وكمدًا، وانهيارًا. جاء الأمريكيون وحلفاؤهم بطائراتهم ودباباتهم وأسلحتهم المتقدمة، ودمروا بغداد -عاصمة الخلافة الإسلامية- وجلس حاكم صليبى استعمارى على كرسى «هارون الرشيد»، و«المعتصم» يأمر وينهى، ويمارس إذلال العراقيين والعرب والمسلمين كل صباح ومساء. وعلى الجانب الآخر فإن أمين القومية العربية العقيد «معمر القذافى» أعلن استسلامه الكامل، والشامل للإرادة الصليبية الأمريكية، متبرئًا من القومية العربية، والعرب، والعروبة أجمعين، حتى لا يلقى مصير صاحبه «صدام حسين» الذى عثروا عليه فى أحد أقبية «تكريت» ذليلاً مطاردًا مهانًا!.

كان حزب البعث العربى الاشتراكى الذى أسسه مجموعة من غير المسلمين والنصيريين، والعلمانيين، وتولى الحكم فى أكثر من بلد عربى أبرزها سورية، والعراق يرفع راية القومية العربية، وعاث فى الأرض فسادًا باسم القومية العربية، وفتح أبواب السجون، والمعتقلات للمعارضين، وخاصة التيار الإسلامى، وكانت لغة الدم، والحديد، والنار هى منهجه فى التعامل مع المواطنين؛ الذين هجر كثير منهم وطنه، وعاش منفيًا غريبًا بائسًا.. لقد حارب حزب البعث الإسلام، وفعلت ذلك النظم القومية الأخرى، حيث حرمت شعوبها نعمة التعبير عن عقيدتها وإرادتها.. فكان الخراب، والهوان، والاستسلام لإرادة أعداء الإسلام، والمسلمين من اليهود الغزاة، والصليبيين المستعمرين!

القوميون العرب قادوا الأمة باختصار شديد إلى الانبطاح الجماعى أمام المستعمرين الهمج، بعد أن دمروا روح الأمة، وجعلوها قصعة الأمم.. لأنهم ببساطة حاربوا الإسلام، وعملوا على إقصائه.

وكان من المفارقات أن يعلن «صدام حسين» بعد وفاة «ميشيل عفلق» فيلسوف حزب البعث، أن «ميشيل» أعلن إسلامه، ولكنه لم يشأ أن يتصور الناس أنه يغير معتقده فى ظل ظروف قد تفسر هذا التغيير على غير مقتضاه، فأوصى بإعلان تحوله بعد وفاته ودفنه وفقًا للشريعة الإسلامية، وقبيل وفاته تحدث عن طبيعة الإسلام، وأهميته بالنسبة للعرب والعالم، وكأنه يعدّل فى مفهومه العرقى للقومية العربية.

وتجب الإشارة إلى أن بريطانيا كانت من وراء قيام «حزب البعث» ودعمه بوصفه طاردًا للإسلام، ونافيًا له، وهناك اعترافات من زعماء الحزب تتحدث صراحة عن دور الدول الاستعمارية فى تأييد البعثيين وتوقيع اتفاقيات سرية معهم، بوصفهم حائط صد يواجه المد الإسلامى ويؤخر انبعاثه مرة أخرى.

يقول «على صالح السعدى» نائب رئيس الوزراء العراقى الأسبق، فى صحيفة القبس الكويتية (الاثنين ١٥/١٢/٢٠٠٣) «إن صدام ونظامه هما صنيعة أمريكية جاءت لتحد من التيار الإسلامى المتنامى فى الوطن العربى»، ويضيف: «إننا وصلنا إلى السلطة بقطار أنجلو أمريكى». وقال الملك حسين، ملك الأردن الراحل، لمحمد حسنين هيكل فى مقابلة صحفية (أكتوبر عام ١٩٦٧): «أعلم بالتأكيد أن ما حدث فى العراق كان

بدعم المخابرات الأمـريكية، وبعض الذين يحكمون فى بغـداد لا يعلمون شيئًا عن هذا، ولكننى أعلم بالحقيقـة، لقد عقدت عدة لقاءات بين البعث والمخابرات الأمريكيـة». ويقول حردان التكريتى أحد أعـمدة حكم البعث العـراقى فى مـذكـراته: «إن الحكومـتين الـبريـطانيـة والأمـريكيـة أبدتا استعـدادهما للتعاون إلى أقـصى حد بشرطين. . . الأول: أن نقـدم لهما تعهدًا خطيًـا بالعمل وفق ما يرسمونه لنا، والثـانى: أن نبرهن على قوتنا فى الداخل. . . وقـد وافـقنا على الشـرطين». . هل بعـد ذلك شك فى تأسيس القومية العربية على العداء للإسلام، والشعوب العربية؟

●●●●

القومية بالمفهوم الأوروبى ضد تشريعـات الإسلام، وقيمه، ومفاهيمه، وهى المفاهيم، والقيم، والتشريعات التى تتناقض مع العنصرية، والعرقية، والطائفية والتمييز: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:١٣]، وفى الحديث الشريف: «**لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى**». المفاضلة فى الإسلام قـائمـة على أسـاس التقـوى لا على الحسب، أو النسب أو الجاه، أو الطبقة، أو العنصر، أو الجنس.

ومبـدأ المساواة فى الإسـلام مقـرر وثابت منذ فـجر الدعوة، وكـانت مدرسة النبوة أوضح مثال عـلى تطبيق هذا المبدأ، فأبو بكر يجلس بجوار بلال (الذى كان عـبدًا له وأعـتقه)، وعـبد الرحمن بن عـوف يجلس مع (عمار بن ياسر) الذى كان عبدًا أيضًا وأعتق، وسعد بن أبى وقاص يجاور (سلمان الفارسى) وكان من العبيد كذلك... السادة والعبيد، من العرب وغير الـعرب اجتمعـوا معًا فى مدرسـة النبوة، وجلسوا صفًـا واحدًا فى مجلس الرسول ﷺ، أو وقفوا مصطفين خلفه فى الصلاة، لا فارق بينهم ولا تمييـز، وبلال هو الذى نزع عمـامة القيـادة من خالد بن الوليـد قائد جيـوش المسلمين فى الشام على عهـد عمر، وألبسـها لعبـد الرحمن بن عوف.. فامتثل خالد، وقبل عـبد الرحمن، لأن الأمر صدر من الخليفة، والذى ينفذه من صحابة الرسـول ﷺ؛ والكل ينضوى تحت راية الإسلام التى لا تفاضل بين عنصر وعنصر، أو مستوى ومستوى.

التاريخ الإسلامى يشهد للقادة من غير العنصر العربى بالإخلاص والشجاعة، والبذل، والتضحية، وتحقيق الانتصار، وأطفالنا يعلمون أن طارق بن زياد وموسى بن نصير، وصلاح الدين الأيوبى، وقطز، وبيبرس، ومحمد الفاتح من غير العرب، ومع ذلك يجلهم العرب والمسلمون من غير العرب ويقدرونهم لما بذلوه دفاعًا عن حوزة الإسلام، وبلاده، وحماه.

هل يفهم من هذا أن القومية ضد الإسلام؟

الإجابة نعم ولا...

نعم حين تكون بديلاً له، أو عدوا يقصيه، ويستأصله، ويحول المسلمين إلى عبيد فى أوطانهم أو غرباء بعيدًا عنها، لا حول لهم ولا طول، ولا يشاركون فى بنائها، وتعميرها، والتمتع بخيراتها، وقد عدها الشاعر العظيم «محمد إقبال» كفرًا حين ارتفعت بعض الصيحات فى الهند تنادى بإحلال القومية محل الإسلام فقال: «إن القومية كفر»! القومية ضد الإسلام حين تتبنى العنصرية، أو الطبقية، أو رفض الأخوة الإسلامية.

ولا، حين تكون عونًا للمسلمين، وحامل عبء يفوق طاقة الآخرين فى إعلاء شأن الإسلام، وإعزازه، ونشره. لقد أعز الله العرب بالإسلام، فجعل النبى عربيًا، وأنزل القرآن بلسان عربى مبين، وجعل لغة أهل الجنة هى العربية، ولذا فإن المسلمين من شتى الأجناس، والأعراق، والعناصر، والأقطار ينظرون إلى العرب نظرة إعزاز وتقدير، ما حملوا الرسالة، وأدوا الأمانة وقاموا بواجبهم الحضارى.. أما حين ينكصون عن أداء مهمتهم المنوطة بهم فى شرح العقيدة، وتقديم الشريعة، والدفاع عن حوزة الدين، فهم محل مؤاخذة، وموضع مساءلة، ولا قيمة لهم بين العالمين، فضلاً عن المسلمين!

لقد اقترنت «العروبة» - وليس «القومية» - بالإسلام، وهى ليست مجرد لغة أو انتماء عرقى، ولكنها قيادة، وبذل، وتضحية، وقدوة. . . العروبة وعاء للإسلام والمسلمين على اختلاف أصولهم وأجناسهم، وهو الفهم الذى يدركه المسلمون خارج العالم العربى، فهم يعدونهم بلاد الوحى، ومنبع الرسالة، ومصدر النور، ومكان القبلة، لذا ينتظرون منهم عملاً (فوق العادة) يفوق ما يفعله المسلمون فى شتى بقاع الأرض، لأنهم أعرف الناس بالدين، وتشريعاته، ومفاهيمه، ومقاصده، ولكنهم حين يفاجأون بتخلى العرب عن الرسالة، وواجباتهم نحوها، وانعزالهم فى «جيتو» عرقى، ولغوى يفصلهم عن إخوتهم فى مشارق الأرض ومغاربها، ويدفعهم للاستسلام تحت أقدام العدو الصليبى الصهيونى الاستعمارى، فهذا خطب جلل يصيب أمة الإسلام فى مقتل!

إذا لم تكن هناك الرابطة السياسية، فلا أقل من وجود رابطة اقتصادية، وثقافية، وسياحية، وإذا كان هناك من يرى أن «منظمة المؤتمر الإسلامى» تمثل شكلاً من أشكال تجمع المسلمين، وارتباطهم السياسى، فمن المؤسف أن هذا التجمع مثله مثل التجمعات الإقليمية التى لا تعدو أن تكون حبراً على ورق لا عائد منها ولا حصاد! ووصل بها الأمر أن تخفق فى اتخاذ قرار - على الورق طبعًا - يلبى طموحات المسلمين تجاه القضايا العامة المشتركة.

وحدة المشاعر بين المسلمين - مع كل التناقضات والإحباطات والانهيارات - ستظل قائمة بإذن الله، ولكن تحريكها وتطبيقها على أرض الواقع، يحتاج من قادة المسلمين ونخبهم، نبذ القوميات العنصرية، والعرقية، والنظر بسماحة الإسلام إلى العوامل المشتركة التى تجمع بين

المسلمين ولا تفرق، والغايات الواحدة التى تهدف إلى قوتهم، وعزتهم، ونصرتهم فى مواجهة عالم الأشرار والمتربصين. . إن القومية القائمة على العرق، أو الجنس، أو اللغة لن تجدى فتيلاً فى عصر التكتلات السياسية، والاقتصادية، التى حققت مكاسب لا يمكن إنكارها ولعل فى تجربة رابطة دول شرق آسيا (الآسيان) التى شاركت فيها ماليزيا، وإندونيسيا مع دول غير إسلامية، ما يعطى جوابًا على أن التكتل بين المسلمين يمكن أن يحقق نجاحات كبرى فى أكثر من ميدان.

لقد حصد العرب نتيجة اعتماد الفكرة القومية - بالمفهوم الأوروبى طبعًا - حصادًا مريرًا، ولم يحققوا نجاحات تذكر، لأنهم استبعدوا الإسلام، وحاصروه، وعملوا على استئصاله فى أرض الواقع، وإن احتفلوا بالمواسم والأعياد الإسلامية الرسمية أمام شاشات التلفزة، وميكروفونات الإذاعة، ورأينا على مدى نصف قرن مضى، كيف تحركت الأقليات العرقية، والطائفية نحو الانفصال، وتجزئة الأوطان، فقد هب الأكراد فى العراق، والبربر فى الجزائر، والزنوج والنوبيون فى السودان، والمارون فى لبنان، يطالبون بإقامة دول منفصلة، أو اعتماد لغات ولهجات قبلية، أو تحقيق مطالب سياسية معينة. . . ولم تصمد القومية العربية طويلاً أمام واقع تكرس على الأرض، وإن بقى مربوطًا على حياء بالأوطان الأصلية بصلات شكلية واهية.

إن الإسلام من خلال العروبة التى يحبها المسلمون على اختلاف عناصرهم وجذورهم، هو الحل لإقامة أمة عربية أو إسلامية تنهض على أسس إسلامية قوية فى مقدمتها الحرية، والشورى، والعدل، والمساواة.

••••

٢٧

نعم؛ كان حلم القومية العربية توحيد الأوطان العربية من المحيط إلى الخليج فى دولة واحدة لها عاصمة واحدة، وحكومة واحدة، وعلم واحد، ونشيد واحد.. ولكن الحلم الآن، صار محصوراً فى بقاء الأوطان أو الأقطار العربية على حالها، فلا ينقسم وطن واحد، ولا يتجزأ قطر واحد، إلى عدة أوطان، أو عدة أقطار.. فكرة التفتيت قادمة من الغرب وأمريكا، وبدأ تطبيقها حثيثًا عقب حرب رمضان المجيدة عام ١٣٩٣ هـ- ١٩٧٣م بالخطة التى سبقت الإشارة إليها ووضعها «هنرى كيسنجر» وزير خارجية أمريكا الأسبق تحت مسمى «عبرنة المنطقة» -على وزن بلقنة جنوب شرقى أوربة، أى تفتيت دول البلقان، أما عبرنة المنطقة العربية فتعنى تفتيتها إلى كيانات صغيرة، وكنتونات على أسس عرقية، وطائفية، ومذهبية، وقبلية بقيادة الدولة العبرية (الكيان النازى اليهودى الاستعمارى فى فلسطين).

تجليات التفتيت ظهرت فى لبنان، والسودان، والعراق، والمغرب، والصومال، وتسعى إلى الظهور فى العديد من الدول العربية الأخرى، ويدور الحديث علنًا، - بعد سقوط بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية - عن الإعداد المباشر لتقسيم دول بعينها فى المستقبل القريب!

لا ريب أن الدعوات الشعوبية، والطائفية، والمذهبية، لم تبدأ اليوم، ولكنها بدأت منذ زمان بعيد، مع مجىء الحملة الفرنسية على مصر، فقد استقطبت نفراً من النصارى، والأروام، والمارون، ودفعت بهم إلى

مواجـهة إخوانهم فـى الوطن ، وسجل التاريخ مـا عرف بحـركة «المعلم يعقوب» الذى كـون فيلقًا من المحاربين النصارى وأشـباههم، وحارب مع جيش الاحتلال الفرنسى، وتحدث عنه «الجـبرتى» فى تاريخه فى أكثر من موضع ، ثم رحل ورجـاله مع الحملة المنسـحبة حيث لقى مصـرعه فى الطريق إلى فرنسا.

فى القرن التاسع عـشر، والقرن العشرين، أخذت النخبـة المتغربة التى تربت فى أوروبة، أو تعلمت وفق النظام الاستعـمارى، تدعو إلى الوطنية الضيـقة، والانفصـال عن المحيط الإسلامى، بـل العربى، والتوجـه نحو الغرب الاستعـمارى ، بوصفه رمز التقدم والحـضارة ، ورأى بعضهم أننا ننتمى إلـى حضارة البـحر المتوسط لا إلى الحـضارة الإسـلامية، وسـخر بعضـهم من الرابطة الشرقـية أو الدينيـة ، ودعا إلى الأخـذ عن الغرب، والاتجاه إليه بكل الطاقات، فى الوقت الذى أخذت فيه الدعوة إلى احتقار اللغة العربية وعدها سبب التخلف الذى يعيشه المصريون تتسع وتتعمق مع المطالبة بإحلال اللهجات العاميـة،واللغات الأجنبية الحية، التى هى - من وجهة نظرهم- مفتاح الحضارة والمستقبل!

فى مرحلة النظم القـومية العربية، تراجـعت هذه الدعوات، أو كانت تظهر على استـحياء، ولكن التاريخ سجل مواقف أصـحابها، وكانوا فى الغالب من مـشاهير الأدب، والفـكر، والسياسـة، أمثال: أحـمد لطفى السيد، وطه حسين، وسلامة موسى..

سجـل التاريخ مـوقف طه حسـين، وعدوانه على القـرآن الكريم فى رسالته للدكتوراه حول الشعـر الجاهلى، وتبشيره بالانسلاخ عن العروبة، والاتجاه نحو الغرب فى كتابه «مستقبل الثقافة»..

وسجل التاريخ موقف سلامة موسى، ضد الرابطة الدينية، والشرق واللغة العربية، وترحيبه بالعامية لغة كتابة وحضارة، ودعوته التى لم تفتر للحاق بركب الغرب الاستعمارى فى معظم كتبه التى تضم مقالاته أو مترجماته.

أما أحمد لطفى السيد، الذى يسمى أستاذ الجيل، فقد كان موقفه عجيبًا إذ إنه كان مؤسس حزب الأمة فى مطلع القرن العشرين، وكان ومؤسسو الحزب من أصحاب الأستاذ الإمام «محمد عبده»، والمؤمنين بفكره الإسلامى، ولكنهم بعد موته تحولوا إلى نمط آخر، يلهث نحو الغرب الاستعمارى، ويدعون إلى الانكفاء على مصر تحت دعوى «مصر للمصريين»، ويلاحظ أنهم هاجموا الدولة العثمانية بمنتهى القسوة، فى الوقت الذى هادنوا إنجلترا -دولة الاحتلال- وصادقوا المعتمد البريطانى اللورد كرومر، ووقفوا مواقف مريبة من دعم الأشقاء العرب الذين يحاربون الاستعمار، مثلما حدث بالنسبة إلى ليبيا...

فقد أشار صاحب المنار (١٥/ ٣٤) إلى ما نادى به أحمد لطفى السيد فى «الجريدة» يناير ١٩١٢م، لنبذ فكرة الإسلامية نبذًا تامًا، وعدم معاونة بعض الغيورين من المسلمين الذين بدءوا فى جمع المساعدات لأشقائهم الليبيين الذين وقعوا تحت الاستعمار الإيطالى، مدعيًا أن الحركة الحاضرة بمصر لإعانة الدولة العثمانية على حرب إيطاليا؛ قد ظهرت بشكل «الجهاد الدينى» أو الدعوة إلى «الجهاد الدينى»، وإن هذا خطأ ضار بمصر!!

لقد تبنى أحمد لطفى السيد فكرة «الداروينية» التى استخدمت لتحطيم الكنيسة فى الغرب، والتقليل من أهمية التعاليم التى تفرضها الكتب

المقـدسة. . فـهل كان تبنيـه للدارونيـة ينبع من رغبـته فى هدم الإسـلام وتحطيمه؟ ينقل عنه «محمد جابر الأنصارى» فى كتابه (تحولات الفكر فى الشـرق العـربى، الكـويت ١٩٨٠، ص ١٢٠) قـوله عـام ١٩١٣ لنبـذ الإسلامية والدعوة إلى الوطنية:

«كـان من السلف من يقول بأن أرض الإسـلام وطن لكل المسلمـين، تلك قاعدة استعمارية، تتـمشى مع العنصر القوى الذى يفتح البلاد باسم الدين. . . أما الآن فقد أصبحت هذه القاعدة لا حق لها فى البقاء، لأنها لا تتماشى مع الحال الراهنة للأمم الإسـلامية، فلم يبق إلا أن يحل محل هذه القاعـدة المذهب الوحيد المـتفق مع أطماع كل أمـة شرقيـة لها وطن محدود، وذلك المذهب مذهب الوطنية».

يرى «أحمد لطفى السـيد» أن الفتح الإسلامى لمصـر استعمار فـرضته القوة التى امتلـكها الفاتحون باسم الدين! ويرتب على ذلك فـصم العلاقة مع الأشقاء المسلمين، داعيًا إلى الوطنيـة، وعدم نجدة الإخوة الليبيين فى «جهادهم» ضد الاستعمار الإيطالى، وهو منهج غريب ، وعجيب، حيث إن الوطنية لا تعنى التعارض مع الـدين، ولا يعنى أن يكون المرء إسلاميًا أن يسلم وطنه للإنجليز الغـزاة، ويسكت عن احتلالهم لمصر، كـما يدعو إلى ترك الليبين وحدهم فى مواجهة الطليان الغزاة!

ولم يكن «أحمد لطفى السـيد» الذى يرى الفتح الإسلامى استـعمارًا، وغزوًا واحتلالاً، ولكن طه حسين ردد المقولة نفسها بعد عشرين عامًا فى «كوكب الشرق» ١٩٣٣ ، حين قال:

«إن المصريين قد خضعوا لضروب من البغض، وألوان من العدوات جاءتهم مع الفرس، واليونان، وجاءتهم من العرب.. (نقلاً عن كتاب «جذور العلمانية» للدكتور السيد أحمد فرج، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م ص١٣٩).

الأستاذ والتلميذ، كلاهما، يتهم الإسلام بالاستعمار، ولا يوجه كلمة للاستعمار الجاثم على صدر مصر، وغيرها من الدول العربية... وهذه نتيجة ناجحة بكل المقاييس للاستعمار فى صناعة النخب التى تقود العقول، وتصنع الثقافة.. وما أشبه الليلة بالبارحة!

●●●●

٢٨

لا ريب أن البذور التى ألقاها «أحمد لطفى السيد»، و«طه حسين»، و«سلامة موسى» وأمثالهم فى الأرض المصرية، والعربية، قد أخصبت وأثمرت، وخاصة لدى خصوم الإسلام من النخبة الموالية للغرب الصليبى الاستعمارى، أو بقايا الشيوعية المنهارة، وإذا كانت هذه البذور ظلت كامنة تحت طبقات الأرض لا تظهر إلا على استحياء أو بطريقة مراوغة طوال العصر القومى الاستبدادى، فإنها بعد سقوط رموز هذا العهد فى بغداد، وطرابلس، أطلت برأسها فى وقاحة غير مسبوقة لتطلب من المسلمين بطريقة مباشرة التخلى عن الإسلام تمامًا، واللغة العربية أيضًا، فضلاً عن سبّ العرب سبًا مقذعًا، ووصفهم بكل ما فى الكون من صفات البذاءة، والحمق، والفحش.

بعد خمسة أشهر فقط من سقوط بغداد، نشر موقع «إيلاف» على الشبكة الإلكترونية (الإنترنت) فى ٢٠٠٣/٨/٢٢، بيانًا مطولاً يتحدث عن إنشاء حزب جديد فى مصر أسسه «محسن لطفى السيد»، وهو ابن شقيق «أحمد لطفى السيد»- أستاذ الجيل! - يحمل اسم «مصر الأم». ويرتكز هذا الحزب على ما يلى:

- القومية المصرية.

- إلغاء مادة الإسلام دين الدولة الرسمى من الدستور، وإلا فإن الواجب يفرض إضافة «الإنجيل» إلى هذه المادة لوجود أقلية نصرانية.

- رفض العروبة لأنها كانت اختيارًا خاطئًا .

- إلغاء خانة الديانة من جوازات السفر، وبطاقات إثبات الشخصية، وكافة المحررات الرسمية المتداولة.

- بعث اللغة القومية المصرية (العامية) وضرورة تدريسها بتطوراتها المتعددة فى المدارس، والجامعات المصرية بدءًا من الهيروغليفية، والديموطيقية والقبطية؛ وصولاً إلى المرحلة الحديثة المسماة بالعامية.

- عد الفتح الإسلامى غزوًا واحتلالاً، غير طبيعة المصريين، وفرض عليهم ثقافة متخلفة ، فقد فرض عليهم التقويم القمرى، فى حين أنهم منذ آلاف السنين يعتمدون التوقيت الشمسى المرتبط بالزراعة.. والعرب بدو أقل حضارة، وقبليون، وأحاديو التفكير، عصبيو المزاج، يستبيحون دماء مخالفيهم، ولا يقبلون الآخر.

واضح أن هذه المرتكزات التى يقوم عليها البنيان الفكرى للحزب المذكور، تصب فى خانة نفى الإسلام، واستئصاله من حياة المصريين، عقيدة، ولغة، وانتماء، فضلاً عن وصمه بالغزو، والاحتلال، والتخلف، واتهام العرب بالبداوة، والعصبية، والدموية، هو اتهام غير مباشر للمسلمين الذين خلصوا مصر من نير الاحتلال الرومانى، وحرروا الكنيسة المصرية، والشعب المصرى (وثنيين ونصارى) من الاضطهاد الدينى، والعسف الاستعمارى اللذين فرضهما الرومان الغزاة، وأهدوا الإنسان المصرى قبسًا من نور الله يهديه فى ظلمات الحياة، ويملأ يقينه أملاً ورجاء فى المستقبل الدنيوى، والأخروى جميعًا، فآمن المصريون (الوثنيون والنصارى) بالدين الجديد عن اقتناع، وفى أقل من قرن من الزمان كانت مصر فى مجملها دولة إسلامية، تتكلم اللغة العربية ، وتمثل واسطة العقد فى البناء الإسلامى للدولة الإسلامية الظافرة!

مشكلة خصوم الإسلام والمسلمين، أنهم يتصورون أن الذاكرة الثقافية ممسوحة، وخالية من أى أثر للتاريخ الحقيقى، فيدلسون، ويكذبون، ويأخذون من بعض الحوادث الفردية مسوغًا للتعميم، والحكم الشامل على قضايا حساسة وخطيرة..

إن الحزب الجديد، الذى يعتمد فى تنظيمه على عناصر طائفية متعصبة، أو مهزومة فكريًا، لا يجد غضاضة فى التعبير الفج عن كراهيته للإسلام، والمسلمين بطريقة تبدو هزلية، أكثر منها تأصيلاً فكريًا ناضجًا يعبر عن وجهة نظر أو فكرة ما.

أحدهم يطعن فى العرب والعروبة اعتمادًا على ما ورد فى القرآن الكريم من وصف بعض العرب بالأعراب ﴿ **الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ** ﴾ [التوبة: ٩٧]، ويسحب هذا الوصف على العرب كلهم، وكذا وصفه للذين نادوا الرسول ﷺ من وراء الحجرات، والذين منوا عليه بأنهم أسلموا، على النحو الوارد فى سورة «الحجرات». ويترتب على ذلك أنهم اندفعوا إلى الغزو جريًا وراء الغنائم، والجوارى، وهو الاندفاع الذى نتج عن مكر بعض العرب الآخرين الذين أرادوا التخلص من منافسيهم، فقذفوا بهؤلاء إلى الخارج ليفتحوا البلاد المجاورة وينعموا بخيراتها ونسائها!.

هل نقف لنركز على هذه الترهات التى لا تمت بصلة إلى الفكر العلمى الرصين؟ هل نقول إن أصحاب هذه الأكاذيب لم ينظروا إلى وصف الأنواع الأخرى من الأعراب - على فرض أن الأعراب هم العرب- فى الآيات التالية لهذه الآية من سورة التوبة، قال - سبحانه وتعالى -: ﴿ **الأَعْرَابُ**

أشدُّ كفرًا ونفاقًا وأجدرُ ألاَّ يعلموا حدود ما أنزل اللَّهُ علىٰ رسوله واللَّهُ عليمٌ حكيمٌ (٩٧) ومن الأعراب من يتخذُ ما ينفقُ مغرمًا ويتربصُ بكمُ الدوائرَ عليهم دائرةُ السوْءِ واللَّهُ سميعٌ عليمٌ (٩٨) ومن الأعراب من يؤمنُ باللَّه واليوم الآخر ويتخذُ ما ينفقُ قرباتٍ عند اللَّه وصلواتِ الرسول ألا إنها قربةٌ لهم سيدخلهم اللَّهُ في رحمته إنَّ اللَّهَ غفورٌ رحيمٌ﴾ [التوبة: ٩٧ - ٩٩]. وقال- سبحانه وتعالى -: ﴿وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلىٰ عذاب عظيم (١٠١) وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا عسى اللَّهُ أن يتوب عليهم إنَّ اللَّهَ غفورٌ رحيمٌ﴾ [التوبة: ١٠١، ١٠٢].

إن مجتمع الصحابة في المدينة قد ترقى بالإسلام، وبالتالى فإن الأعراب، والبداة، والأعاجم ومن على شاكلتهم لابد أن يجدوا في الإسلام علاجًا لكثير من أمراض الفكر، والسلوك، كما نرجو أن يكون كذلك بالنسبة للذين خرجوا في عصرنا، على قيم الإسلام ومفاهيمه، وظاهروا خصومه، وأعداء الأمة، لينالوا من أهليهم، وذويهم دون سبب واضح، اللهم إلا خدمة المستعمر المتوحش.

أما ما يتردد عن الفتح الإسلامى، فأمره أعجب. فلو افترضنا جدلاً أن هناك من يهرع لمحاربة الناس من أجل الغنائم والسبايا. . . فهل يكون الاندفاع نحو الجهاد أمرًا سهلاً وبسيطًا؟ ألم يفكر هؤلاء أنهم سيقابلون قومًا يملكون السلاح، يلوحون بالموت لمن يشتبك معهم؟! هل الحصول على الغنائم والسبايا بهذا اليسر والهدوء؟

لا تنقضى عجائب المعاصرين من خصوم الإسلام، فى مصر أو الدول العربية على السواء، ووصف العرب بالأعراب، وأخذ ما يتعلق بالشواذ منهم قرينًا، ودليلاً عامًا على وحشيتهم، وبداوتهم، وجلافتهم؛ ليس آخر العجائب فى هذا المجال. فقد راح أحد بقايا الشيوعية المنهارة يحاول التفلسف، وتفسير سر الدعوة إلى نبذ العروبة، والانتماء العربى بتفسيرات عجيبة وغريبة، ولنقرأ ما قاله على موقع «إيلاف» فى ٢٠٠٣/٨/٢٢م:

«إن أهم سبب يجعلنا نعيد النظر فى هويتنا الحالية (يقصد الهوية الإسلامية) هو نظرية المعرفة العربية عن الكون (لا يوجد شيء اسمه نظرية المعرفة العربية والمعروف أن نظرية المعرفة التى يقصدها المذكور نظرية إسلامية)، وكيف نتعامل معه، فالرؤية العلمية الحديثة تصطدم بشدة فى الرؤية الشرقية عامة(؟) والعربية خاصة(؟) والعامل للمنظور الدينى (؟) للكون ، وليس معنى ذلك أننا أمام استبدال الرؤية العربية الدينية بالرؤية الفرعونية الأسطورية لأن هدف الاستبدال هو الرقى إلى مستوى العقل الفلسفى، والعلمى الحديث، وليس الارتداد إلى سلفية أيًا كان نوعها».

وأضاف المذكور: «إن اللحاق بقطار المعرفة الحداثية كان مشروع الطهطاوى، ومن هنا نشأ خطاب التنوير، والعقلانية الذى هو بالأساس خطاب نقدى لا وجود له فى مراحل التاريخ الثقافى المصرى منذ سيادة المسيحية فى العام ٤١٥م (؟) على أنقاض مجد الإسكندرية مؤملاً فى تحول

ثقافى، ومعرفى لينتهى إلى موقف حداثى مثله جميع(؟) مفكرى القرن الماضى من طه حسين ، وحسين فوزى، ولويس عوض وغيرهم» أ.هـ.

هذه الأسباب لنبذ العروبة، والإسلام متهافتة، ومتناقضة، وخاطئة. فنظرية المعرفة الإسلامية تعد أرقى نظرية معرفية عرفها العالم لأنها تقوم على مخاطبة العقل، وتدعو إلى تشغيل العقل، وتعظيم شأن العقل، الذى يتوصل إلى الإيمان بالوحى، فالتهافت هنا واضح لأنه يدعى البحث عن نظرية معرفية حداثية تغاير النظرية المعرفية الإسلامية التى لم يحاول صاحبنا الشيوعى البحث عنها أو التعرف إليها، لذا بدا التناقض واضحًا حين يدعو إلى نبذ نظرية المعرفة الإسلامية، وفى الوقت ذاته إلى عدم إحلال الرؤية الفرعونية الأسطورية مكانها. . ولا أدرى ماذا يقول لأصحابه أو يقول له أصحابه، وهم يدعون كما رأينا إلى قومية مصرية، وإلغاء الإسلام من الدستور، وبعث اللهجات العامية منذ الهيروغليفية حتى اليوم، وعد العرب أى المسلمين غزاة ومحتلين؟

وكلام صاحبنا خاطئ حين يزعم أن سيادة المسيحية تمت على أرض مصر فى العام ٤١٥م، لأن المسيحية لم تسد مصر أبدًا لا قبل هذا التاريخ ولا بعده، فالذين سادوا هم الرومان بوحشيتهم واستبدادهم، أما المسيحية فقد كانت محدودة الانتشار بدليل أن المسلمين حين فتحوا مصر كان أغلب أهلها وثنيين. . ثم من قال إن مصر لم تعرف الخطاب النّقدى، أو بالأحرى إن الإسلام لا يعرف الخطاب النقدى على مراحل التاريخ الثقافى المصرى؟

إن الخطاب الإسلامى فى جوهره خطاب نقدى، لأنه يقوم على قاعدة «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» ومدافعة الشر، وعدم الاستسلام للخطأ أو الانحراف الفكرى أو السلوكى، وقد أشار القرآن الكريم فى أكثر من موضع إلى هذه القاعدة، ومضمونها، وتحدثت السنة الشريفة عن واجب المسلم فى هذه القاعدة ، قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ... ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ... ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال ﷺ : **«من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»**.

ومن المؤكد أنه لا توجد حضارة أخرى، عمقت الحس النقدى، ومدافعة الخطأ والانحراف، مثل الحضارة الإسلامية، ولا توجد نظرية وضعية كالشيوعية، أو الرأسمالية، أو الوجودية، أو الحداثية، أو ما بعد الحداثية، تؤصل النقد الذاتى، والنقد العام مثل العقيدة الإسلامية التى ترغب، وترهب فى مجال التصحيح على كل المستويات، والنظر فى الأحوال العامة، والقضايا التى تهم جموع الناس.

إن نظرية المعرفة الإسلامية، أطلقت الحرية للإنسان المسلم كى يفكر ويصل إلى أدق أسرار الكون، وإلى النفاذ من أقطار السماوات والأرض إذا استطاع، والدليل العملى على ذلك، هو بناء حضارة شامخة فى القرون الوسطى المظلمة التى كان يعيشها الأوروبيون، وهى الحضارة التى

أقام الأوروبيون المعاصرون على أساسها حضارتهم- أو بمعنى أدق مدنيتهم الراهنة!

ثم من قال إن جميع مفكرى القرن الماضى كانوا حداثيين كما يدعى صاحبنا الشيوعى ؟ إن طه حسين، وحسين فوزى، ولويس عوض من الموالين للغرب الصليبى الاستعمارى، ليسوا جميعًا مفكرى القرن الماضى ولا يمثلونهم، فهناك المئات من المفكرين العظام الذين مثلوا الرقى الفكرى، والاستقلال الحضارى، وعبروا عن إسلامية الأمة، والرؤية على تفاوت، نذكر منهم على سبيل المثال، لا الحصر، (الأستاذ الإمام محمد عبده، محمد رشيد رضا، محمد فريد وجدى، عبد العزيز جاويش، محب الدين الخطيب، مصطفى لطفى المنفلوطى، على الغاياتى، مصطفى صادق الرافعى، عباس محمود العقاد، عبد العزيز البشرى، أحمد حسن الزيات، محمود محمد شاكر، محمد الغزالى، محمد متولى الشعراوى) ولا داعى لذكر المعاصرين خوف الحرج من نسيان بعضهم..

ثم إن الحداثة بالمفهوم الغربى، تتعارض مع الأديان عامة، والإسلام خاصة، لأنها لا تؤمن بالغيب، ولا بالوحى، ولا بوجود إله.. هى لا تؤمن إلا بالمادة، والتجربة الحية الملموسة، وهى قبل ذلك، وبعده ارتبطت كما يقول «عبد الوهاب المسيرى»: «بالنار والبارود» كناية عن فلسفة القوة التى عبرت عن نفسها فى استعمار الشعوب، وإذلالها، ونهب ثرواتها، وخيراتها، وسلكها فى سلك التبعية الأبدية!

إن إعادة النظر فى الهوية الإسلامية عمل غير مسوغ، وغير مقبول،

وطرحه فى مثل هذا الظرف الحرج الذى تمر به الأمة يعد عملاً خيانيًا لحساب الاستعمار الصليبى، والاستعمار الصهيونى فى آن واحد.

إن قوات الغزو الصليبى/ الصهيونى تربض أمام أعيننا فى بغداد والقدس، وتمارس إذلال المسلمين صباح مساء، ويشهد العالم تجليات هذا الإذلال يوميًا على شاشات التلفزة، ويسمعها عبر موجات الأثير، وهو ما يجعل التمسك بالهوية الإسلامية، والعض عليها بالنواجذ أمرًا ضروريًا خاصة أن الهوية الإسلامية لا تلغى الخصوصية التى تمايز شعبًا عن آخر أو قومية عن أخرى، ولكنها تظلل الجميع بجناحيها. وتغذيهم بعطائها الخصب الذى لا ينضب، وتمنحهم أفقًا من التسامح، والمودة، والأمل غير مسبوق فى أية حضارة سابقة أو لاحقة ترى هل هناك بعدئذ مكان للسؤال: من نحن ؟ نحن مسلمون وكفى!.

••••

٣٠

إذا كان العلمانيون، والشيوعيون، واللائذون بهم من الباحثين عن الرزق أو المصلحة. قد تحالفوا ضد الإسلام ومفاهيمه، وعملوا على تشويه التشريع الإسلامى، والتشويش عليه، وإقصائه عن الحياة والواقع، ومحاربة الإسلاميين، ونفيهم، واستئصالهم، فإن بعض المتسببين إلى الإسلام والدعوة الإسلامية يمارسون دوراً غير مقبول، وإن حسنت نوايا بعضهم، لأنه يصب فى خانة نفى الإسلام، واستئصاله ولو لم يقصدوا.

يمكننا أن نوجز موقف هؤلاء القوم تحت عنوانين؛ الأول : التفريط، والآخر: الإفراط.

التفريط قائم منذ قرون، وخاصة فى فترات الضعف، والهزيمة، ويظهر نفر من المنتسبين إلى الإسلام، فيوظفونه لخدمة الاستبداد أو الاستباحة. وفى عصر المد القومى فى القرن الميلادى الماضى - على سبيل المثال -، فإن السلطة المستبدة فى أكثر من بلد عربى، وظفت نفراً من علماء الدين لتسويغ بعض الأفكار، والنظريات المخالفة للإسلام. . . وللأسف، فإن هذا النفر راحوا يصدرون الفتاوى التى تؤيد، وتبارك، وتدعو إلى ما يقوله هؤلاء المستبدون الطغاة، أو يصمتون على ممارسات مخالفة للتشريع الإسلامى، وقوانين تصدر بعيدة عن أسس الدين وجوهره. . .

رأينا من يجعل الإسلام اشتراكيًا، أو ماركسيًا، أو يسكت على جعله كذلك، ورأينا من يوافق أو يصمت على إلغاء تدريس الدين الإسلامى عمليًا فى مدارس التعليم العام، أو تفريغ بعض الجامعات الإسلامية من

مضمونها الإسلامى، أو نزع حجاب المسلمات فى بلاد إسلامية، أو إفطار رمضــان بحجة أنه يعوق عن العــمل والإنتاج، أو إلغاء تعــدد الزوجات، وإلغاء الطلاق. . رأينا من المنتسـبين إلى الإسلام من يتبرع بفـتاوى لتقنين الاستبداد، والعنف، وسفح دماء الأبرياء، ورأينا أمثالهم يحللون الربا من خلال فوائد البنـوك، والأخطر من ذلك أن رأينا من يجيز استـيلاء أعداء الإسلام والمسلمين، على أرض إســلامية مقدسة تحت حــجة السلام، وما أدراك مــا هذا السلام؟ ثم وهو الأشــد غضــاضــة فتح أبواب الجــامعــات الإسلامية لليـهود الغاصبين، يدخلون إلى رحابهــا الطاهرة- رجالاً ونساءً سافـرات- بحجة أن الشيخ المنـوط به الأمر سيشـرح لهم الإسلام، وهم يبتغون الحصول على صك بالبراءة مـن مذابحهم، وإجرامهم ضد الشعب الفلسطينى، والشعـوب العربية والإســلامية. . ثم رأينا أخيـراً من يهرول للمـشاركة فـيمـا يسمى «حـوار الأديان» مع طرف لم يستنـكر المجازر، والجرائم التى ارتكبت ضــد المسلمين فى القــديم، أو الحديث، أو الوقت الراهن. . ومن المفارقات أن الحوار المذكور كان يجرى فى وقت تسفح فيه دمــاء المسلمــين بلا رحــمــة، ولا هوادة، حيــث كان الدم الـفلسطينى، والبوسنى، والكوسوفى، والشيشانى، والكشميرى، والعراقى، والأفغانى يسـفك غزيراً مــدراراً، والأشــاوش والنشامى من المنتــسبين إلى علمــاء الإسلام، يقفون مع الآخرين أمام عدسات التلفزة وميكروفونات الإذاعة، ليثبتوا للدنيا أننا نتحاور، وأننا متحضرون، دون أن ينبسوا ببنت شفة عما يجرى للمسلمين من قهر وإذلال، وإبادة، ومحاكم تفتيش عصرية. . . ثم رأينا مؤخراً من يتطوع،ويفتى أن من حق الدول الصليبـية الاستعمارية أن

تنزع حجاب المسلمات من مـواطناتها، لأن هذا شأن داخلى لهذه الدول، وراح يقيس قياسًا فاسدًا على حكـم «الضرورة» وأصغر طالب مبتدئ فى علم الأصول يعلم أن الضرورة، مرتبطة بما يبقى الحياة، ويبعد الموت!

رأينا- وخـاصة تحت الحكم الاسـتـبدادى- من يتـهـز الفرصـة، كى يغتـنى، ويسمن، ويلمع، ويقـدم مجـانًا الفتـاوى التى ترضى السلطان، وتدخل على نفسـه البهجة والحـبور، حتى لو خـالفت أصول الدين، أو المعروف منه بالضرورة.

هؤلاء الذين فـرطوا فى دينـهم، وبال على الإسـلام والمسلمـين، ويقدمون صورة مخزية لعالم الدين المسلم، الذى يمثل على مدى العصور صوت الدين الحقيقى فى مواجهة الباطل أيًا كان مصدره، والزيف أيًا كان صانعه، والقهر أيًا كانت سطوته..

عرف الـتاريخ الإسـلام مسلمـين، وعلماء دين، يواجـهون البـاطل، والزيف، والقهر، دون أن يخشوا فى الله لومة لائم، وبعضهم وضع رأسه على النطع وتحت الـسيف، دون أن يتـزحـزح، أو يتـراجع، أو يفكر فى المكسب والخسارة، فحفظوا بيضـة الإسلام، وضربوا أمثلة يذكرها التاريخ بكل فخر واعتزاز، وصاروا قدوة تحتذيها الأجيال، جيلاً بعد جيل..

سأذكر مرة أخرى على سبيل المثال: أبو ذر الغفارى، سعيد بن جبير، الإمام أبو حنيـفة، الإمام مـالك، الإمام أحمـد بن حنبل، العز بن عـبد السلام، ابن تيمية شيخ الإسلام، إبراهيم صـبرى، محمد عاكف، جمال الدين الأفغانى، مـحمد عبده، الشيخ المراغى، الشـيخ دراز، عبد الحليم محمود، جاد الحق على جاد الحق، محمد الغزالى، سيد قطب..

أمتنا تفخر بهؤلاء العلماء وغيرهم فى مشارق الأرض ومغاربها، ولولا تضحياتهم لامتهن الإسلام، وضاع، وانتهى، ولكن الله سبحانه يعطى من فضله نعمة الإيمان، والتمسك به لنفر من علماء الدين، وخاصة فى الظروف الصعبة، فيعضون على العقيدة بالنواجذ، ويعلنون كلمة الحق صريحة وجهيرة، دون خوف أو تلعثم، حتى لو فقد بعضهم حياته فداء وقربانًا من أجل منهج الله ..

إن هؤلاء العلماء المجاهدين يمثلون حجر عثرة للمفرطين فى الدين من علماء السلطة، وفقهاء الشرطة، لأنهم يقدمون النموذج الأرقى لعالم الدين، الذى يسمو على منافع الدنيا الرخيصة، من أجل ثواب الآخرة، وينهضون بشعوبهم، وأمتهم معنويًا للاستمرار، ومواجهة الطغيان، والهزائم التى يجلبها الطغاة. . إنهم القيادة الحقيقية للأمة. . . أما المفرطون فهم ذيول السلطة، وهم عار على الإسلام الحقيقى. . ولا يقولن أحد إنهم مجتهدون ، ويحاولون التيسير على الناس، فالاجتهاد له شروطه وأصوله ومؤهلاته، ولا يمكن أن يكون التفريط فى الدين اجتهادًا تحت أى ظرف من الظروف. أيضًا لا يمكن التعلل بالضغوط السياسية أو غيرها؛ مما يمارسه الطغاة والمستبدون على العلماء بوصفه سببًا للتفريط فى الدين، والإفتاء بغير ما أنزل الله، فقد عرف الإسلام منذ البعثة، وحتى الآن من لزم بيته، ومن أغلق فمه، ومن استقال من منصبه حتى لا يقول قولاً يغضب الله، لا عذر للمفرطين على أية حال!.

●●●●

٣١

إذا كان المفرطون فى الدين يمنحون خصوم الإسلام فرصة ذهبية لإخراج المسلمين من حظيرة الدين، وإدخالهم فى مجال التبعية والذيلية والانبطاح، فإن الإفراط، أو التشدد يمنح الفرصة نفسها، وخاصة إذا ارتبط هذا الإفراط بالجزئيات، والفروع، والشكليات التى تحتمل الاجتهاد والخلاف فى الرأى.

ومن رحمة الله -سبحانه- بالمسلمين، أن جمع المسلمين على الثوابت التى يتفق عليها علماء الأمة بلا استثناء، أما المتغيرات والفرعيات، ففيها مجال لاجتهاد المجتهدين الذين تتوفر فيهم شروط الاجتهاد وأصوله ومقتضياته، وقد عرفت الأمة الإسلامية على مدى تاريخها مذاهب أربعة رئيسية عدا المذاهب الأخرى غير المشهورة، وفى داخل كل مذهب من هذه المذاهب آراء واجتهادات بعضها راجح والآخر مرجوح، وكانت مستجدات الحياة، واختلاف البيئة من المجالات الخصبة للاجتهاد والرأى الذى يسنده الدليل، ويدعمه البرهان. ووصل المسلمون فى بعض المراحل الفكرية الخصبة إلى افتراض قضايا لم تحدث، واجتهدوا فى كيفية الحكم عليها وبيان موقف الشرع منها. مما أدى إلى ثراء فكرى غير مسبوق فى أية حضارة أخرى، وهو ما يدحض اتهام بعض غلاة العلمانيين والمفتونين بالغرب الاستعمارى، للإسلام بعدم العقلانية، أو ابتعاده عن العقل، وإيثاره للنقل!

وفى هذا الإطار فإن الإفراط والتشدد فى القضايا الفرعية، وإنفاق الوقت فى التدليل على صحة ما يزعمه المفرطون والمتشددون يتحول إلى نوع من العبث الذى لا يحقق مقاصد الدين بحال من الأحوال، لأنه يتحول إلى تنطع، وقد توعد الرسول ﷺ، المتشددين والمتنطعين، فقال ﷺ: «... ولن يشادَّ الدين أحد إلا غلبه، فسدِّدوا وقاربوا..» وقال: «هلك المتنطعون..» مما يعنى أن التشدد فى الجزئيات والمختلف عليه أمر غير مقبول، وترفضه الفطرة السليمة فضلاً عن الدين. وتأمل قول الرسول ﷺ «لن يشاد الدين أحد إلا غلبه..» إن طلب المثالية فى تطبيق الدين أمر مشروع، ولكن الإلحاح على هذا الطلب دون مراعاة الظروف، والإمكانات الملائمة لن يحقق المثالية أبدًا، وقد أعفانا الحق -سبحانه- من ذلك بقوله تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

فالتكليف فى الإسلام مرهون بالقدرة، والوسع، والطاقة، ولكن قومًا من المنتسبين إلى الإسلام يصرون على حمل الناس على تطبيق فروع الدين بمقياس واحد لا يراعى ظرفًا، ولا يضع فى الحسبان عذرًا، والأدهى من ذلك أن يصر على التطبيق بالقوة، والشدة، فى إطار من إساءة الظن بالناس، التى قد يتبعها أمر كريه آخر هو التجسس. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا..﴾ [الحجرات: ١٢].

ويروى التاريخ قصة طريفة، كان بطلها «عمر بن الخطاب» - رضى الله عنه - وكان خليفة المسلمين، فقد كان من دأبه أن يمضى فى الليل يمر بشوارع المدينة، ليطمئن على أحوال الرعية (مصطلح الرعية فى رأيى أفضل من مصطلح المواطنين، لأنه يعلق مسئولية جسيمة على الراعى أى الحاكم!)، فسمع بعض الهرج صادرًا عن أحد البيوت، فراح يتسمّع ويتحسس، ثم تسلق الجدار حتى وصل إلى مصدر الأصوات، فرأى مجموعة من الشباب يسكرون، أو يتناولون الخمر، وأراد أن يعاقبهم ويوقع بهم القصاص. فردوا عليه بأنهم أخطأوا خطأ واحدًا، أما هو فقد أخطأ ثلاثة أخطاء، وعددوها له على النحو التالى:

١- أنه دخل بيتًا من غير إذن أصحابه، والله -سبحانه- يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢٧، ٢٨].

٢- أنه لم يدخل من الباب وتسلق الجدار، والله -سبحانه وتعالى- يقول: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩].

٣- أنه تجسس عليهم، وهو أمر يرفضه الإسلام والله -سبحانه وتعالى- يقول: ﴿وَلا تَجَسَّسُوا...﴾ [الحجرات: ١٢].

لم يجد عمر مفرًا من الاعتراف بخطئه، مع أن نواياه كانت حسنة، فهو يبغى إصلاح هؤلاء الشباب، وكان اعترافه، وتركهم دون عقاب وهو من هو، سببًا لإقلاعهم عن رذيلة الشرب!.

الدعوة إلى الله، لابد أن تكون بالحسنى، وبطريقة غير فظة ولا جارحة، وقد خاطب الحق -سبحانه وتعالى- نبيه الكريم ﷺ فى هذا السياق قائلاً: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. والآية الكريمة تشير بوضوح قاطع إلى عنصرى الرحمة، واللين يقابلهما الفظاظة والغلظة - غلظة القلب أقسى من كل غلظة - وبسبب الرحمة واللين، فإن العفو والاستغفار، ثم المشاورة تفتح الطريق أمام العزم، ومن ثم التوكل على الله وإمضاء الأمر أيًا كان هذا الأمر، فالذين يعتمدون الشدة والقسوة على المدعويين، أو المخالفين لهم فى المذهب، أو الاتجاه، لا يمكن أن يحققوا تواؤمًا اجتماعيًا إسلاميًا، ولكنهم يزرعون - بفظاظتهم وغلظتهم، وربما جلافتهم - بذور البغضاء والكراهية، والحمق والتعقب، وهذا زرع مسموم، يجب تنقية الحديقة الإسلامية من بذوره تمامًا وإلا كانت النتيجة وبالاً على الإسلام والمسلمين.

لقد عرف الأزهر الشريف على مدى ألف عام، أروع صور التعايش بين المذاهب، والآراء الفقهية، وكان الحنابلة - وهم أقلية - لا يجدون صدودًا من الأغلبية التى يمثلها المالكية، والأحناف، والشافعية، ولم يكن

غريبًا أو نادرًا أن ترى فى كتب المالكية مثلاً استعراضًا لآراء المذاهب الأخرى، مسبوقًا بلغة راقية تقول مثلاً: وللسادة الشافعية أو الحنفية رأى فى كذا وكذا، أو يرجح السادة الحنابلة الرأى القائل بكذا وكذا.. لقد كان ذلك هو القاعدة التى تسم الفكر الإسلامى فى أعرق معاهد العلم على الإطلاق - أعنى الأزهر الشريف - فأين هذا من بعض الغلاة الذين يسيئون لأنفسهم، وللدين جميعًا؛ بإصرارهم على أن موقفهم هو الصواب، وموقف غيرهم هو الخطأ؟

●●●●

عندما نسـمع المقولة المأثورة والمنسوبة إلى الإمام الشـافعى -رضى الله عنه-: رأيى خطأ يحتـمل الصواب، ورأيك صواب يحتـمل الخطأ؛ فإننا ندرك على الفـور، أن أمتنا هى أمـة العقل بامـتيـاز، وهى الأمة الأكـثر سماحـة ورحابة من غيرها من الأمم، ولكن إصـرار البعض على صواب رأيه وخطأ رأى الآخريـن، ينبع من ضيق الأفق الذى رسخـته مـحدودية العلم والاطلاع. فالذين لم يحـصّلوا ثروة كبيرة من العلـم، وعاشوا فى شقـاق مع القراءة والمعرفـة، واكتفـوا بالسمـاع، والمشافهـة المحدودة، لا يحتمـلون آراء الغير ولا أفكاره... ويجب أن نعتـرف بوجود هذا النمط من الناس المنتسـبين إلى الإسلام، وللأسف، فإن خدام الغـرب الصليبى الاستـعمارى واليـهود والغزاة، يأخـذون من هذا النمط دليلاً عـامًا يدين المسلمين جميعًا، ويرتبون عليه اتهاماتهم للإسلام وأبرزها: رفض الآخر، التعـصب، العنف، الدموية، التـخلف، الجهل، قهـر المرأة... إلى آخر هذه الاتهامات الباطلة، لأن الإسلام برىء منها براءة تامة.

كان الإمـام الشهـيد (حسن البنـا) - رحمه الله - يردد مـقولة قـريبة المضمون من المقولة السابقة المنسوبة إلى الإمام الشافعى - رضى الله عنه - فيقول: فلنتفق على ما يجمعنا، وليعـذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا حوله. ويقال إنه ذهب ذات يوم إلى إحدى قرى الصعـيد، فرأى الناس منقسمين حول صيـغة الأذان، بعضهم يرى أن الأذان الشـرعى هو الذى ينتهى مع

ترديد «لا إله إلا الله»، والبعض الآخر يصر على أن يلحقها بالصلاة والتسليم على رسول الله ﷺ من خلال ذكر بعض صفاته وسجاياه. وكانت نتيجة هذا الانقسام أن صلى كل فريق من أهل القرية فى مكان غير الذى يصلى فيه الفريق الآخر، فما كان من الإمام الشهيد - ليصلح بينهما- إلا أن قال: صلوا بدون أذان، والتقى الفريقان بعد خصام.

الشاهد فى القصة أن التعصب للرأى ينتج فرقة، وتناحرًا، وخصومة، وهذا الإنتاج لم يكن فى يوم من الأيام غاية إسلامية أو مقصدًا تشريعيًا.. بل هو ضد التشريع والإسلام جميعًا، وما أحوجنا فى عصر الهزيمة والانبطاح الاستباقى، أن نجتمع تحت راية الإسلام الوسطى الذى تفضل به رب العالمين، وجعله يسرًا لا عسرًا، وأعفانا من الحرج: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

ولا ريب أن العواطف المشبوبة والمشاعر الفياضة، قد تكون من وراء التعصب الذى نراه لدى البعض، واستمساكه ببعض الآراء، والأفكار، وإذا كانت العواطف والمشاعر مطلوبة للذود عن حمى الدين، وحمى المسلمين، فإن توظيفها فى غير مجالها يصبح عبئًا يجب التخلص منه، خاصة والمسألة تحتاج إلى وعى حاد، بالظروف الخارجية، والداخلية التى يمر بها الإسلام، والمسلمون...

إن أكثر ما تعمل فيه العواطف والمشاعر، هو مجال الحركة والدعوة.. ولا ريب أن هذا المجال يجب دعمه ومؤازرته بكل الوسائل وفى مقدمتها العواطف والمشاعر، ولكن أن تتحول إلى مستوى يحبذ الصدام، والتناحر والفرقة، فهذا أمر مرفوض بكل قوة...

من الطبيعى أن تكون فى مجال الحركة، والدعوة جماعات أو جمعيات تعمل وفق طاقاتهـا لنشر الإسلام، والتعريف به، ومـعاونة المسلمين على أمور دينهم ودنياهم. ولا ريب أن كل جـماعة، أو جمعيـة تسلك منهجًا يتفق مع ظروفها، وإمكاناتها، وفى كل الأحوال، فـإنها جميعًا تصب فى بحر واحد هو خدمة الإسلام والمسلمين. قد تخطئ هذه الجماعة أو تلك، فالسلوك البشرى معـرض للصواب والخطأ، ومن ثم، فإن واجب الآخرين الذين يرون الخطأ أن يعـملوا على تقـويمـه بالحسنى، وتصـويبـه باللين، وتوجيهه بالرحـمة، أما أساليب الاتهام والهجـاء، والتحريض، والغلظة، والفظاظة، فإنهـا لا تتفق مع منهج الإسلام فى الدعـوة إلى الله بالحكمة، والموعظة الحسنة أو المجادلة بالتـى هى أحسن، وفى الوقت ذاته لا تحـقق غايتـها فى التوجـيه والتصـويب، والتقويم، لأن من نتـهمه، ونهـجوه، ونحرض عليـه، ونغلظ له ونمارس الفظاظة معـه لن يتقـبل منا نقدًا، ولا توجيهًا. فضلاً عن كونه يسئ إلى إخوة لنا فى الله والإسلام.

ذات يوم أصدر أحد علماء الدين المرموقـين كتابًا يتناول بعض القضايا الإسلامـية، فإذا ببـعض الأطراف التى لم تعجبـها آراء الداعيـة المعروف تتناوله بالهجـاء، والإقذاع إلى درجة الفحش، وصـدر العديد من الكتب تحمل صورة بشعة للخلاف فى الرأى بين الإسلاميين، ولولا تدخل بعض العقلاء من الدعاة لحدث ما لا تحمد عقباه.

والأمر نفـسه يحـدث بالنسبـة للجمـاعات، والجمـعيـات الإسلامـية المتنافسة، فقد تجد بعضها يهـجو بعضًا، أو ينتقده بسبب تافه أو هامشى،

وقد ينشق شخص أو أشخاص على زملائهم، فيكون التشهير هو الوسيلة الأكثر رواجًا فى تصفية الحسابات، وهو ما يأباه المنهج الإسلامى، وأخلاقه وروحه.

إن هذه النوعية من المتنسبين إلى الحقل الإسلامى تمثل نمطًا سلبيًا يعوق حركة الدعوة، ويقلص تمددها ويشوه صورة الإسلام والمسلمين، ويعطى خصوم الإسلام، والمتربصين به فرصة النيل منه ومن الدعوة جميعًا..

ثم إن بعض أطراف «الإفراط» يمارسون نمطًا غريبًا وهجينًا فى الفكر والسلوك، حين يتصورون أنهم الأصح إسلامًا، والأقرب إلى الله، فيقعون فى «فخ» العنصرية البغيضة، ويرون أن قومًا هنا أو هناك ليسوا على مستوى الإسلام الصحيح، لأن بلدانهم لا تطبق الشريعة أو لا تهتم بها، وبالتالى فهم أقل درجة وأدنى منزلة من سواهم، والأسوأ من ذلك أن يقسموا الناس إلى طبقات على أساس الجنس أو الحسب أو النسب، وكثيرًا ما تفاجأ فى بعض البلدان الإسلامية بمن يكتب معبرًا عن هذه العنصرية البغيضة ويسمى شقيقه المسلم بالأجنبى!.

لا شك أن ظاهرة «العنصرية» حين يرعاها بعض المنتسبين إلى الإسلام تمسى وصمة عار فى جبين المسلمين والدعوة والإسلام جميعًا، وهى ظاهرة نشأت عن قصور فى الفهم، وعدم الوعى بروح الإسلام فى التسامح والمودة والتعاطف، نتيجة لظروف مختلفة جعلت بعض الناس يتورطون فى تكريس هذه الظاهرة البغيضة. إن الاعتزاز بالأوطان، أو

الانتمـاء القبلى أو الطائفى، لا يسـوغ ممارسة العنصريـة فكرًا أو سلوكًا، لأن العنصرية تنتمى إلى التراث الجاهلى وتجلياته المتلفة. . . ثم إن الانتماء إلى الإسلام مقدم على بقية الانتماءات!

«التفريط» و«الإفراط» كلاهما عدو للـدعوة الإسلامية، وخطر عليها، ووسطية الإسلام هى الطريق إلى بناء حركة إسلامية فاعلة تُسِهمُ فى زيادة الوعى الإسلامى، وشرح المفاهيم، وتصحيح الأخطاء، وتفنيد الأباطيل، والوسطية: وعاء يتسع لجميع العاملين فى ميدان الدعوة بالتسامح، والمودة والمناصحة بالحسنى.

••••

الخاتمة

يبقى لنا فى ختام هذه الرحلة السريعة والخاطفة حول «تحرير الإسلام» الإشارة إلى أن خصوم الإسلام، والمطالبين برأسه كثيرون، فى الخارج والداخل على السواء، فى مقدمتهم تلك النخبة من المثقفين الذين أرغمتهم الماركسية على التقاعد بعد انهيار الاتحاد السوفيتى وانفراط عقد المنظومة الشيوعية العالمية، فتحولوا إلى دعاة للاستعمار الصليبى الأمريكى، يطلبون من الأمة الانبطاح أمام الإرادة الصليبية الاستعمارية والتسليم لها بمقدراتنا وثرواتنا وديننا. . .

هذه النخبة التى تظاهرها مجموعات العلمانيين والطائفيين والمتفعين، تدعم بلا شك النظم الاستبدادية القمعية فى العالم العربى والإسلامى، وتستفيد فى المقابل من هذه الأنظمة ماديًا ومعنويًا، ولا تجد غضاضة فى ذلك، بعد أن تخلت عن كل الدعاوى التى تخص الحرية، والديمقراطية والمساواة، والعدل، كما لا تجد حرجًا فى التعبير عن انقلابها المخزى على ماضيها، بأنه ترتيب للأولويات، وضرورة المراجعة. . وكنا نأمل أن تكون هذه المراجعة وتلك الأولويات فى سياق تصحيح الموقف من الإسلام، ولكنها للأسف راحت تصب فى سياق الانتهازية، والمنفعة.

ولاشك أن الهجمة الصليبية الاستعمارية التى قادتها الولايات المتحدة وبريطانيا ضد الإسلام والمسلمين، واحتلت من خلالها، حتى الآن أفغانستان، والعراق وأخضعت ليبيا، وحكومات البلاد العربية لإرادتها

وهيمنتـها، قد استـهدفت الإسلام بنيـانًا فكريًا، ونسقًا مـعرفيًا، ونهـجًا ثقافيًا، وذلك بالدعوة إلى إخراجه، أو إقـصائه، أو استئصاله من منهاهج التعليم فى مـدارس التعليم العربيـة، بل والجامعـات الإسلامية العـريقة، وإحلال النمط الثـقافى الصليـبى. . . وقد بادرت دول عديدة بالانصـياع للإرادة الصليبيـة الاستعمارية، وسارعت إلى تعـديل المناهج الدراسية فى التعليم العام والجـامعى. أضف إلى ذلك محاصرة الدعوة الإسـلامية فى البلاد العربية والإسلامية عن طريق سن القوانين التى تمنع العمل الخيرى، والإسلامى أو تقيده بحـجة تمويله للإرهاب، والتطرف، وإغلاق الصحف الإسلامـية، وتحريم المنـابر فى المساجد الحكومـية، والأهليـة على الدعاة الذين لا ترضـى عنهـم السلطـات المستـبدة. فضـلاً عن تفـريـغ الإعـلام - وخـاصـة التلـفـزة - من المواد التى تنمى الوعـى بالإسـلام، وتضىء جوانبه، وتشرح مقاصده.

لقد اتخذت الهجمة الصليبية الاستعـمارية منهجًا خبيثًا فى تعاملها مع الجانب الفكرى، والعـقدى فى الإسلام؛ إذ طلبت من الحكومـات المعنية فى العالم الإسـلامى، تعديل ما يسـمى بالخطاب الدينى، وكانت تقـصد بالطبع الخطاب الدينـى الإسلامى وحـده دون غيـره، فلم تطلب تعـديل الخطاب الدينى اليهودى الذى يقوم على الخرافة، والأسطورة لطرد العرب من أراضيهم وبيـوتهم، وإحلال الغرباء القادمـين من كل مكان محلهم، واستخدام العنف، والدم لإقامة مملكة داود، والشعب المختار، على أشلاء الأبرياء، والمظلومـين من أبناء الشـعب الفلسطينى، والشـعـوب العربيـة

الأخرى، ولم تطلب تعديل الخطاب الدينى المسيحى، الذى يتبناه المتعصبون الغلاة من أبناء بعض الطوائف فى العالم العربى، مثل الطائفة المارونية التى قام بعض أبنائها بالاستقواء بالأجنبى الاستعمارى، وعملوا على سلخ لبنان، أو أجزاء منه تحت مسمى «لبنان الحر» وكانت تجربة «سعد حداد»، وخليفته: «أنطوان لحد» أبرز الأمثلة فى هذا السياق.

وقد رأينا أن فكرة تعديل الخطاب الدينى الإسلامى، لا محل لها إزاء ما يتعرض له الإسلام على أيدى المستعمرين وصنائعهم فى البلاد الإسلامية، من نفى واستبعاد، واستئصال، إذ لا وجود للإسلام فى الواقع العملى للحكومات، فضلاً عن قيام معظم هذه الحكومات بمحاربته وملاحقة الدعاة، ومحاكمتهم تحت حجج شتى، مع استشراء موجة تعذيب الإسلاميين على مدى نصف قرن مضى أو يزيد مما دفع ببعض الشباب إلى العنف الذى كان يقابل بعنف أشد، فكانت الخسارة على الجميع فادحة وخطيرة.

إن «تحرير الإسلام» يقتضى زيادة الوعى بالإسلام، لتخليصه من العناصر، والقوى التى تعمل على نفيه، واستبعاده واستئصاله، سواء كانت قوى خارجية أو داخلية، وهو ما يعنى تضافر الجهود المخلصة والواعية لبناء أجيال إسلامية مخلصة وواعية، تملك الفهم الصحيح، والإدراك الناضج، والفكر المضىء، والعمل الدءوب، لإعزاز الإسلام والمسلمين جميعًا.

إن الأمل فى الله كبير، ثم فى رجـال الأزهر الشريف المخلصين الذين لا يبحـثون عن الدنيا بقـدر ما يبحـثون عن الدين، ويعملون لله أكـثر مما يعـملون للسلطان. . هؤلاء الرجـال منوط بهم الحـركة من أجل إصـلاح الأزهر، وتصحـيح مساره، والارتفـاع بمستواه، كى يؤدى دوره فى قـيادة الأمة الإسـلامية، ويسـتعيـد مكانته التى أهدرها علمـاء السلطة، وفقـهاء الشرطة. لقد كان الأزهر جامعة علمية تتوفر على دراسة العلوم الإسلامية والآداب العربيـة، فكانت تخرج شبابًا فـاقهًا لدينه، عـارفًا بلغته، واعـيًا بدوره، ناشطًا فى مجاله، مسلحًا بالمعرفة العميقة، والثقافة الواسعة، وهذا ما نرجـو أن يتحـقق فى المسـتقبل القريـب، إن شاء الله؛ لأن هؤلاء هم الذين سيحـرصون على هوية الأمة، وهم الذين سيدافعـون عنها بحفظهم للقرآن الكريم واستيعابهم للحديث الشـريف وتخصصهم فى اللغة العربية وآدابهـا، فلا يصـمد أمـامهم دعى، أو علمـانى، أو يسارى ممن أباحـوا لأنفسهم استباحة الإسلام وعلومه، وحشروا أنفسهم فيما لا علم لهم به، لخدمة أغراض شيطانية تخص لسلطان، أو الاستعمار، أو همًا معًا.

إن الشبـاب الأزهرى المرتجى، هو الذى سيُعَـلِّم فى المعاهد والمدارس، وهو الذى سـيكتب فـى الصـحف، والمجـلات، ويحـررها، وهو الذى سيـذيع فى الإذاعة والتلفـزة، وهو الذى سيتناول الإسـلام على المنابر. . وهو من بعد ومن قـبل؛ سيحمل رسالة الإسـلام الوسطى الذى يبرأ من الإفـراط والتفـريط، ويقود الأمـة فى مواجـهـتهـا للجهل، والتـخلف، والضلال، والعجز والهزيمة.

تحرير الإسلام على المستوى الشعبى، والرسمى ضرورة لإنقاذ الأوطان وتوحيد الأمة، تحت الراية الإسلامية الظافرة - إن شاء الله - بعد أن تستعيد عافيتها فى الحرية، والشورى، والعدل، والمساواة، والأخوة واحترام آدمية الإنسان..

لست من المتشائمين، ولست -أيضًا- من المفرطين فى التفاؤل، ولكنى واثق من قدرة الحق -سبحانه وتعالى- على هداية من يحب، والإتيان بمن ينصر دينه ويعز اتباعه: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد : ٣٨] صدق الله العظيم.

●●●●

كتب للمؤلف

١- مسلمون لا نخجل.

٢- حراس العقيدة.

٣- الحرب الصليبية العاشرة.

٤- العودة إلى الينابيع.

٥- الصلح الأسود.. رؤيه إسلامية لمبادرة السادات والطريق إلى القدس.

٦- ثورة المساجد.. حجارة من سجيل.

٧- هتلر الشرق وبلطجى العراق ولص بغداد.

٨- جاهلية صدام وزلزال الخليج.

٩- النظام العسكرى فى الجزائر.

١٠- حفنة سطور.. شهادة إسلامية على قضايا الأمة.

١١- أهل الفن وتجارة الغرائز.

١٢- واسلمى يا مصر.

١٣- التنوير.. رؤية إسلامية.

١٤- ثقافة التبعية: المنهج، الخصائص، التطبيقات.

١٥- دفاعًا عن الإسلام والحرية.

١٦- الأقصى فى مواجهة أفيال أبرهة.

١٧- الغروب المستحيل: سيرة كاتب محمد عبد الحليم عبد الله.

١٨- رائحة الحبيب (مجموعة قصصية).

١٩- الحب يأتى مصادفة (رواية).

٢٠- مدرسة البيان فى النثر الحديث.

٢١- موسم البحث عن هوية: دراسات فى الرواية والقصة.

٢٢- محمد ﷺ فى الشعر العربى الحديث.

٣٣- القصائد الإسلامية الطوال فى العصر الحديث.

٢٤- الرواية التاريخية فى أدبنا الحديث.

٢٥- الحداثة العربية: المصطلح والمفهوم.

٢٦- الورد والهالوك: شعراء السبعينيات.

٢٧- لويس عوض: الأسطورة والحقيقة.

٢٨- الواقعية الإسلامية فى روايات نجيب الكيلانى.

٢٩- حوار مع الرواية المعاصرة فى مصر وسوريا.

٣٠- الرواية الإسلامية المعاصرة.

٣١- الصحافة المهاجرة: رؤية إسلامية.

٣٢- الإسلام فى مواجهة الاستئصال.

٣٣- تحرير الإسلام.

٣٤- الرؤية الإسلامية فى الرواية المعاصرة.

تحت الطبع (إن شاء الله)

١- ملامح ووجوه.

٢- شعراء معاصرون.

٣- دفتر أحوال المسلمين.

٤- قد شغفها حبًا (رواية).

٥- فقه الحرية وثقافة الغشّ.

٦- كلمات من الجمر: رؤية إسلامية.

••••

الفهرس

هذا الكتاب

يعالج واقع العدوان الصليبــى الاســتعمارى ، من خلال ما تردده النخبة ، ممن يطلق عليهم مثقفو السلطة وكُتَّابها ، الذين لم تعرف أقلام بعضهم الوضوء ، ولا الحياء ... سعيًا إلى " تحرير الإسلام " من قبضة الاستبداد والاستعمار وخدامهما جميعًا .

والكتاب للدكتور حلمى القاعود . الذى يقــول : إن الإجابــة على أسئلة مثقفى السلطة وكُتَّابها ليست ترفًا ، أو نشاطًا زائدًا على الحاجة ، ولكنه تشريح لأكاذيب ينخدع بها من لم يطَّلعوا على منهج الإســلام بصورة جيدة ، أو من حُرموا الوعى بكنوز الدين الحنيف ، ومعطياته .

والكتاب مُقســـم إلى ثلاثة فصول ، يتناول الفصل الأول : جريمة استباحة الإسلام والمطالبة بإلغائه من حياة المسلمين ، والفصل الثانى يتناول : ضلالة دعوى " تجديد الوعى" ، وذلك بسعيهم لحذف الإسلام، بحـــجة أننا نعيش فى عصر العلم ، أما الفصل الثالث : فيتناول تعرية أكذوبة" تحرير الإسلام " عن طريق اســتئصال الإســلام من الحــياة والمجتمع وذلك بقلب الحقــائق، وتزييف الواقــع ، وذلك من خلال ما يردده مثقفو السلطة وكُتَّابها فى مقالاتهم . وقد قام الدكتور القـــاعود بالردّ على هذه الحجج الباطلة التى يرددونها صباحًا ومســـاءً إرضاءً للاستعمار الصليبى الأمريكى .

نسأل الله أن ينفع بهذا العلم أبناء أمتنا الإسلامية

والله الهادى ، والموفق إلى سواء السبيل

الناشر


دار التـــوزيع والنشـــر الإســلامـيـــة
٢٥١ش بورسعيد ت: ٣٩٠٠٥٧٢ فاكس: ٣٩٣١٤٧٥
email:info@eldaawa.com www.eldaawa.com